المدائح النبوية في شعر
الشيخ محمد الناصر كبر
دراسة تحليلية لقصيدته "الماء المسكوب..."



تأليف

الدكتور المتبولي شيخ كبر

قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو – نيجيريا

مراجعة

الأستاذ الدكتور محمد طاهر سيد

رئيس قسم اللغة العربية، جامعة بايرو (سابقا)

المدائح النبوية في شعر الشيخ محمد الناصر كبر: دراسة تحليلية لقصيدته "الماء المسكوب..."



عن الكتاب..

إن كتاب المدائح النبوية في شعر محمد الناصر كبر -الذي كان أصلا رسالة للحصول على درجة الماجستير بقسم اللغة العربية جامعة بايرو- إنتاج علمي رفيع وهو كتاب تعد صفحاته بالعشرات، ولا يُكاد تُعد أو تُحصى فوائده وإسهاماته ولا يستغنى عنه في معرفة حالة الثقافة العربية والإسلامية عامة والمدائح النبوية في بلاد هوسا عامة وفي مدينة كنو خاصة، وكذلك في أدوار الطرق الصوفية في نشر الإسلام والثقافة العربية، وما يمس حياة الشيخ محمد الناصر كبر-تغدمه الله برحمته وبارك في ذريته وطلابه- وآثاره في علوم العربية والإسلامية على العموم وفي المديح النبوي على وجه الخصوص.

إن هذا الكتاب تناول نبذة عن حالة الثقافة العربية في قارة أفريقيا وفي بلاد هوسا عامة وفي مدينة كنو خاصة، ثم تحدث عن حياة الشيخ محمد الناصر -رحمه الله تعالى برحمة واسعة- الشخصية والعلمية والصوفية، وذلك قبل أن يقوم بدراسة تحليلية لقصيدة من قصائد الشيخ محمد الناصر في المديح النبوي وهي: "الماء المسكوب"من حيث الفكرة العامة والخصائص المضمونية والشكلية، والقصيدة تبلغ مائة وثلاثة وعشرين بيتا من بحر البسيط.

وأخيرا أنوه بهذا العمل، راجيا من الله تعالى أن يتقبله قبول حسن ويعفو عن الهفوات وزلل القلم إنه هو السميع العليم والغفور الرحيم.

بقلم

أ.د محمد طاهر سيد (فغي)

قسم اللغة العربية جامعة بايرو، كنو نيجيريا





ISBN 978-978-968-485-4

9 789789 684854

Published & Printed by Ahmadu Bello University Press Ltd.,
P.M.B. 1094 Samaru, Zaria, Nigeria. Tel: 08065949711.
E-mail: abupresslimited2005@yahoo.co.uk;
Website: www.abupress.org

المدائح النبوية في شعر

الشيخ محمد الناصر كبر

دراسة تحليلية لقصيدته "الماء المسكوب..."

تأليف:

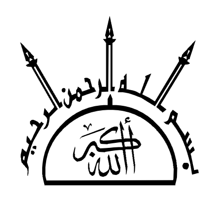
الدكتور المتبولي شيخ كبر

قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو – نيجيريا

مراجعة

الأستاذ الدكتور محمد طاهر سيد

رئيس قسم اللغة العربية، جامعة بايرو (سابقا)



والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

First Published 2020

ISBN: 978-978-968-477-9

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٤٢هـ/ نوفمبر ٢٠٢٠م

ISBN: 978-978-968-472-4

Published & Printed by:
Ahmadu Bello University Press Ltd.
P.M.B. 1094 Samaru, Zaria, Nigeria. Tel: 08065949711
Website: www.abupress.org
E-mail: abupresslimited2005@yahoo.co.uk

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله.

هذا الكتاب أصله رسالة قدمها الباحث إلى قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو، تكملة للمؤهل المطلوب للحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد طاهر سيد، عام ١٤٢٣هـ الموافق ٢٠٠٢م.

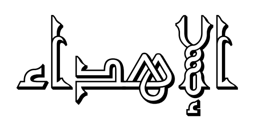
THE PROPHETIC PANEGYRIC IN THE POETRY OF SHEIKH MUH'D NASIR KABARA: AN ANALYTICAL STUDY OF 'AL-MA'UL MASKOUB'

By:
Dr. Matbuli Shehu Kabara

Abstract

Al-Mada'ih Annabawiyyah – (i.e. the Prophetic panegyric) in the poetry of Sheikh Muh'd Nasir Kabara is a thesis submitted to the Department of Arabic Bayero University, Kano as partial fulfillment for the award of masters Degree in Arabic. It is an analytical study of the Sheikh's Qasidah "Al-ma'ul Maskoub". My aim in choosing this topic is to bring into the knowledge of our general populace the gigantic literal works of our Ulamaa-Sheikh Muh'd Nasir Kabara is among them. Although Sheikh Muh'd Nasir Kabara is not an un-known to many of our people, especially the young ones. This I think will serve as a very humble contribution towards boosting our heritage in particular, and the Arabic language in general.

The thesis consists of three main chapters, with each one containing some sub-chapters. The 1st chapter studies the biography of Sheikh Muh'd Nasir Kabara, while the 2nd one deals with the topic "Prophetic panegyric" in Hausaland. As for the 3rd chapter, it concentrates on the analytical study of the Qasidah. It is from Allah that I seek guidance, for He is the guider to the right path.



سيدي يا رسول الله..

كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى في أن يكون إهداء هذا العمل المتواضع إلى حضرتكم، ولكن من عسى أن يكون المهدي؟!!! وماذا سيهدي؟!!! هذا ما جعلني أتردد. فما مثلي يقدم إلى حضرتكم هدية؟ وما مثل هذا العمل الذي شانته السمعة والرياء يُهدى إليكم، إلا أنني تذكرت بأن الهدايا على مقدار مهديها، فها أنا أقول في لين وتواضع وخفض صوت:

إنني أهدي إلى حضرتكم الشريفة هذا العمل المتواضع.

فعسى أن تلطفوا بنحاسي فيصير إبريزا من الذهب..!

وأعود مرة ثانية لأستأذنكم في إلحاق زوجي سلمى (رحمة الله عليها) في هذا الإهداء، رجاء أن تتبرك بجواركم، فيغمرها فيضكم وإحسانكم.

أبو الخنساء: د/ المتبولي شيخ كبر

شكر وتقدير

إن الحمد الحقيقي أوله وآخره لله سبحانه وتعالى الذي منّ علينا بكتابة هذا الكتاب وبسّره لنا من غير حول ولا قوة، فله الحمد والشكر، إلا أن واجب الوفاء والعرفان بالجميل يدفع بي إلى شكر كثيرين ساهموا في تيسير مهمتي بما قدّموه لي من مساعدات مجدية وأخص من بينهم:

- والدي الدكتور شيخ عثمان كبر الذي لم يزل يراقبني ويتتبع العمل منذ بدايته حتى النهاية.
- والدتي السيدة مريم (حَجِيَي Hajiyayye) بنت الحاج إدريس التي لم يقل عملها عن عمل الوالد تجاه البحث.
- مولانا الخليفة الشيخ عبد القادر قريب الله الشيخ محمد الناصر كبر الذي تولى عمادة كلية تراث الإسلام حيثما قمت بالتدريس إبّان كتابة أصل الكتاب، فقد سمح لي عن الحضور إلى العمل مدة من الزمن لأتفرغ لهذا البحث.
- الأستاذ الدكتور محمد طاهر سيد الذي أشرف على أصل الكتاب والذي عاملني معاملة الوالد مع ولده، وفتح لي باب مكتبته الخاصة على مصراعيه لأستفيد بما فيها من الكتب وصبر على جفوتي الصبر الجميل، فكان يقبل عليّ بكل انشراح وأريحية، ولم يأل جهداً من تصحيح الأخطاء وتقويمها، ويعلم الله أن لساني لا يملك كلمة تفي بحق هذا السيد الكريم، إلا أن ذكراه الطيبة ستبقى خالدة في نفسي ما حييت.

- السيد موسى القاسيوني الشيخ محمد الناصر كبر الذي وضع تحت يدي النسخة الأصلية لقصيدة "الماء المسكوب..." المكتوبة بخط ناظمها.
- زوجتي سلمى بنت خالي السيد عبد الوهاب الشعراني التي كانت دائماً تشجعني على الدراسة والبحث، فكم كانت تتمنى أن ترى زوجها يحمل أعلى شهادة جامعية (الدكتوراه)، ولكن الأجل وافاها قبل أن ترى ذلك، فلن أنس صنيعها معي يوم وفاتها وأنا أقوم بكتابة هذا البحث فكانت تدخل غرفتي وأنا أكتب لترى هل نمت أم ما زلت أواصل السير في الكتابة، فيغمرها الفرح والسرور حينما تراني وأنا مستغرق في الكتابة فترجع إلى حجرتها، وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات تعود لتتفقد الحال فتجدني على ما يطيب خاطرها، ولم تدر بأنه لم يبق لها في الدنيا سوى سويعات! يرحمك الله يا سلمى. فها هو البحث قد كمل وأنتِ مع الرفيق الأعلى!
- المرحوم الدكتور توفيق عبدالله السنوسي السوداني، وصديقي الدكتور محمد إِنُوَ ثالث طلحة، والمرحوم السيد علي الخواص الشيخ محمد الناصر كبر، بالدعم الأكاديمي الذي قدّمه كل من الأول والثاني والمادي الذي قدّمه الثالث.
- كما أحمد صنيع كل من تفضّل بإسداء المساعدة في هذا العمل بشكل أو بآخر، جزى الله الجميع عني وعن لغة القرآن خير الجزاء.

المُؤلّف والمؤلَّف في السطور

هو الدكتور/ المتبولي شيخ كبر المالكي الأشعري القادري الناصري، المحاضر بقسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو نيجيريا المتخصص في البلاغة العربية، وله مؤلفات ومقالات علمية منشورة ومخطوطة في الدراسات العربية والإسلامية، ومن مواليد سنة ١٩٦٧م. اغترف من نهيرات العلم بالكُتّاب إلى الجامعة والمعهد العلمي الصوفي الكبري، وقام برحلات علمية عدة، وهو متزوج ورزقه الله بأولاد، وما زال على قيد الحياة، يساهم في هذه الجامعة وخارجها بتوفيق الله سبحانه وتعالى، فالرجاء من الله تعالى أن يطيل عمره في خدمة الإسلام ولغة الضاد، إنه سميع الدعاء.

إن كتاب المدائح النبوية في شعر الشيخ محمد الناصر كبر –الذي كان أصلا رسالة للحصول على درجة الماجستير بقسم اللغة العربية جامعة بايرو– إنتاج علمي رفيع وهو كتاب تعد صفحاته بالعشرات، ولا يُكاد تُعد أو تُحصى فوائده وإسهاماته ولا يستغنى عنه في معرفة حالة الثقافة العربية والإسلامية عامة والمدائح النبوية في بلاد هوسا عامة وفي مدينة كنو خاصة، وكذلك في أدوار الطرق الصوفية في نشر الإسلام والثقافة العربية، وما يمس حياة الشيخ محمد الناصر كبر–تغدمه الله برحمته وبارك في ذريته وطلابه– وآثاره في علوم العربية والإسلامية على العموم وفي المديح النبوي على وجه الخصوص.

إن هذا الكتاب تناول نبذة عن حالة الثقافة العربية في قارة أفريقيا وفي بلاد هوسا عامة وفي مدينة كنو خاصة، ثم تحدث عن حياة الشيخ محمد الناصر –رحمه الله تعالى رحمة واسعة– الشخصية والعلمية والصوفية، وذلك قبل أن يقوم بدراسة تحليلية لقصيدة من قصائد الشيخ محمد الناصر في المديح النبوي وهي: "الماء المسكوب"من حيث الفكرة العامة والخصائص المضمونية والشكلية، والقصيدة تبلغ مائة وثلاثة وعشرين بيتا من بحر البسيط.

وأخيرا أنوه بهذا العمل، راجيا من الله تعالى أن يتقبله قبولا حسنا ويعفو عن الهفوات وزلل القلم إنه هو السميع العليم والغفور الرحيم.

بقلم:

أ.د محمد طاهر سيد (فغي)

قسم اللغة العربية جامعة بايرو، كنو نيجيريا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه والتابعين وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

لقد كانت حركة الثقافة العربية في بلاد نيجيريا بمثابة صقع مجهول لدى كثير من المثقفين وخاصة في البلاد العربية، وذلك على الرغم من المكانة المرموقة التي تحتلها إنتاجات علماء هذه البلاد سواء في ميدان الأدب أو سائر الفنون العربية والإسلامية. فإن ما كتبه كثير من هؤلاء العلماء لا يقلّ جمالاً ورونقاً عن ما كتبه معاصروهم في البلاد العربية، بل إن منهم من لا يجاريه العرب الأقحاح في ميدانه ولا البلغاء المصاقع اللسن في فصاحته، نذكر منهم على سبيل المثال – في القرن التاسع عشر – الجهبذ الفلتير والدرّاكة الحظير الشيخ عبدالله بن فودي، فإن أدنى نظرة في "محيطه" و"حصنه" أو في "تزيينه" أو في "ضيائه" أو في "مفتاحه" أو "ألفيته الأصولية" تؤيد ما ادعيناه وتصدّق ما زعمناه على أنه لم تطأ قدمه أي بلد عربي ولو بالعبور، بل إنه حصل على جميع هذه العلوم في هذه الديار النيجيرية، مما يدل على رسوخ أقدام أهل هذه البلاد في الثقافة العربية والإسلامية، وأن علماءها أبناء بجدة هذا الميدان.

وأما في القرن العشرين فإن خير من نضرب به المثل:

هو الناصر المختار فتح قصيدتي	لأسمائه من فرط روعتها نشر
توشّـــــح نيجيريا وجاء بعلمها	يرافقه الإعجاز والمنطق السحر[1]

[1] الأستاذ مصطفى سند.

وأما من ناحية إسهامه في مجال الإنتاج والتأليف فحدّث عن البحر ولا حرج إذ:

"له التصانيف المضيئة قد سطت" * تربو على المائتين في إحصائها
جادت وما فتئت تــجود بنفعها * وتفك أسر الجهل عن قرائها[1]

إن الحديث عن الأدب العربي النيجيري في القرن العشرين سيكون ناقصاً إذا خلا من ذكر الشيخ الكبري؛ ذلكم هو الشيخ محمد الناصر الذي أريد أن أحط رحلي في بحبوحة فناء شعره واعتبرت مدائحه النبوية رضع عَزَّة قريضه التي أنزل فيها وأعقل قلوصي عندها.

فالمدائح النبوية من أهم الموضوعات الشعرية التي طرق الشيخ أبوابها، بل ربما لا يجانبا الصواب إن قلنا إنها تحتل محل الصدارة في شعره، وذلك لذوبانه في العشق المحمدي، فإن كما يقال: "كل إناء بالذي يرشح"، ولذلك اخترناها لتكون موضوع الكتابة بعنوان "المدائح النبوية في شعر الشيخ محمد الناصر كبر: دراسة تحليلية لقصيدته "الماء المسكوب...".

لقد كان شوقي للنبي صلّى الله عليه وسلّم – إن صحّ التعبير – من أكبر الدواعي التي جعلتني أختار موضوعاً يمت بحبل الصلة إلى جنابه الشريف، فإن وُفقت فمن بركات ذلك الشوق، وإن أخطأت فالكمال لله وحده وعليه التكلان.

تكمن أهمية هذا العمل في زيادة شيء لا يستهان به إلى المكتبة العربية ثم محاولة زيادة إلقاء ضوء كاشف على الأدب العربي النيجيري بحيث يتسنى

[1] الأستاذ أحمد خضر.

للنشأ من أبناء هذه البلاد أن يتعزوا بالثروة العلمية التي حازها آباؤهم وأجدادهم وتبحرهم في لغة القرآن، كما يساعد البحث على تقديم شيء من أعمال علمائنا إلى الباحثين الأجانب الذين يجهلون الذخائر العلمية التي كانت مكدسة في بلادنا، ويسهل البحث كذلك الطريق إلى فهم منهج علمائنا في فن المديح وخاصة المدائح النبوية والأساليب التي يستخدمونها في هذا المضمار.

تقوم الكتابة على دراسة فن المديح النبوي في شعر الشيخ محمد الناصر كبر بصفة مجملة، ثم دراسة إحدى قصائده في المديح النبوي دراسة تحليلية بصفة مفصلة، وهذه القصيدة هي التي عنونها بـ"الماء المسكوب من سحاب المحبوب على ساحة القلوب".

وليست هذه أولى مرة يظهر فيها شعر الشيخ محمد الناصر على مسرح البحث الجامعي، بل هناك كثير من الباحثين تناولوا شعره بالدراسة، إلا أنني لا أعرف أحداً خصّ هذه الناحية من شعره بدراسة مستقلة، وبالأخص هذه القصيدة التي نقوم بدراستها، فإنها لم تكن معروفة حتى لدى كثير من أبناء الشيخ وأقربائه، فأنا – فيما أعلم – أول من يقدمها للقراء بعد مرور أكثر من خمسين عاما عليها تقريباً.

أما المنهج المتبع في البحث فهو منهج تاريخي من حيث الحديث عن حياة الشاعر ونشأة المديح النبوي في بلاد هوسا، ووصفي من حيث دراسة القصيدة التي نقوم بدراستها.

وقد استدعت المادة العلمية المتجمعة لديّ بناء البحث على تمهيد وثلاثة فصول.

التمهيد: في عصر الشاعر، ليكون ذلك توطئة للدخول في صلب البحث.

الفصل الأول: حياة الشاعر، وتحت ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: حياة الشاعر الشخصية والعلمية.
- المبحث الثاني: مساهمته في العلوم العربية والإسلامية.
- المبحث الثالث: ما قال بعض العلماء فيه.

وأما الفصل الثاني: فقد خص الكلام فيه عن المدائح النبوية في بلاد هوسا، وتحته أيضاً ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: المدائح النبوية قبل الشيخ الناصر.
- المبحث الثاني: المدائح النبوية في عصر الشيخ الناصر.
- المبحث الثالث: المدائح النبوية في شعر الشيخ محمد الناصر.

وأما الفصل الثالث والأخير فهو عبارة عن دراسة وتحليل لقصيدة الماء المسكوب، ويندرج تحته هو الآخر ثلاثة مباحث وهي:

- المبحث الأول: عرض أفكار القصيدة.
- المبحث الثاني: خصائص المضمون الفنية.
- المبحث الثالث: خصائص الشكل الفنية.

وقد انطوى كل مبحث على نقاط قمنا بمعالجتها.

واختتمنا بخاتمة فيها خلاصة البحث ونتائجه وبعض التوصيات.

أما المصادر والمراجع التي استقينا منها مادة البحث فهي: القرآن الكريم وكتب الحديث والسير وكتب الأدب والنقد وكتب البلاغة وغيرها.

هذا، ولا يفوتني أن أشير إلى بعض العراقيل التي لاقيتها أثناء

البحث، وهي تلك الصدمة التي فوجئت بها من وفاة زوجتي وهي حامل؛ تلك المرأة التي بالغت في حسن معاشرتها معي وواستني بكل ما لديها حتى إنني أستطيع أن أقول إنها أحبتني أكثر من حبي لنفسي لولا أن يفنّدني القارئ. وبعد هذه الصدمة بشهور أصبت بمرض "تيفود" فمكثت حوالي شهرين وأنا طريح الفراش أعاني منه إلى أن عافني الله، ولكن نحمد الله تعالى على كل حال حيث إنه لم يزل يغمرنا بألطافه وكرمه، فقد أبدل لنا زوجة تقتفي آثار تلك، فله الحمد أولى وأخرى، ونصلي ونسلم على حبيبه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

١٢ ربيع الأول، ١٤٢٣هـ

التمهيد

شاءت قدرة الباري عز وجل أن يكون شاعرنا الشيخ محمد الناصر كبر من أبناء مدينة كنو، وهي من أكبر مدن نيجيريا، تلك المدينة ذات الآثار التاريخية العريقة، والتي بزغت شمسها في ميدان التجارة منذ قرون مضت، حتى صارت كعبة القصّاد، تؤمها القوافل من كل فج عميق من أنحاء السودان الغربي لتشهد منافع لها... تلك المدينة التي طبَّقت شهرتها الآفاق، والتي هيأتها الأسباب لتكون مركزاً تجارياً وثقافياً هاماً في غرب إفريقيا(١).

كانت حياة شاعرنا في القرن العشرين الميلادي، بدءاً بأوائله وانتهاءاً بأواخره. وقد شهدت مدينة كنو بالذات، والعالم الإسلامي بأجمعه تغيرات لا سابق لها بها من قبل، وهذه التغيرات قد شملت جميع نواحي الحياة الإنسانية: العلمية والدينية، والاجتماعية، وغيرها. أدرك شاعرنا النصف الأول من هذا القرن. حيث العلم والعلماء، وحيث العلم بالمعرفة لا بالألقاب والشهادات، حيث التقوى والصلاح، وحيث الأمانة والأمان...

أدرك شاعرنا مدينة كنو في أوائل القرن العشرين، أيام أن كانت فيها البقية الباقية من نخبة علمائها، أمثال الشيخ إبراهيم نظغني(٢) Natsugane المشهور بورعه وزهده، والذي كان علما من أعلام المعرفة في مختلف الفنون العربية والإسلامية. لاسيّما علم الكلام منها. والعالم اللغوي الحاج

(١) - شخصية الشيخ محمد الناصر كبر وأدبه: شيخ عثمان كبر ص ١٨. بحث مقدم إلى جامعة الخرطوم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية عام ١٩٨٠-١٩٨١م

(٢) - لم يؤلف الشيخ إبراهيم نظغني ولو كتاباً واحداً في حياته، بل قضى أوقاته كلها في العبادة والتدريس. وآثر عنه أنه قال: إن الشيخ محمد الناصر هو أكبر تأليف يتركه للناس بعد وفاته.

مصطفى قاضي بِثِي[١] Bichi، والمحدث الشيخ عبد الكريم الملقب بما لم سَابُو ثرُوماوا[٢] Ciromawa ، والشيخ مجنيوا[٣] Mijinyawa، والعلامة القاضي إبراهيم ابن الأستاذ قاضي قضاة كنو[٤]، الذي كان بحراً زاخراً لا يجارى في العلوم العربية والإسلامية. ويشهد على سعة باع هذا الشيخ ورسوخ قدمه في ميدان المعرفة ما حدث بينه وبين أمير كنو العباس "مَجي نَسَراوا" Maje Nasarawa حينما أمر الأمير بنهب مكتبته التي تحتوي على مئات من المجلدات. ولكن الشيخ لم يكترث بذلك، بل أرسل إلى الأمير بعد أن نُهبت منه الكتب بأن هذا الشيء لم يفزعه ولم يثر أي قلق في نفسه، وأثبت الشيخ بأن علمه في صدره لا في بطائن الصحف! وخير شاهد على ما ادعاه الشيخ، طلابه الذين تخرجوا عليه بعد نهب كتبه، أمثال الشيخ محمد الناصر. فصار كما يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

علمي معي حثما يمّمت ينفعني	**قلبي وعاء له لا بطن صندوق**
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي	**أو كنت في السوق كان العلم في السوق**

[١] - من مشاهير علماء كنو. وله مؤلفات عديدة، منها: "الثمرات الجنية" في النحو وأرجوزة في علم العروض. ذكره الدكتور على أبوبكر عند حديثه عن معاهد كنو. انظر (الثقافة العربية في نيجيريا) ص ١٧٥

[٢] - وهو أيضا من علماء كنو المشهورين. له تأليف في علم الحديث وفي الفقه المالكي. من ذلك شرحه لكتاب الأوجلي. و"عقود الماري فيما لكل صاحب من أحاديث البخاري".

[٣] - كان عالماً متفننا قضى حياته كلها في التدريس. ومن مؤلفاته "النفحات الرحمانية في شرائط الطريقة التجانية".

[٤] - من مؤلفات هذا الشيخ: نظم "المثل السائر" للمنصور الثعالبي في خمسة آلاف بيت. وله شرح على "المعلقات" يقول الشيخ الناصر إنه لم يقف على مثله. وله كذلك تقارير على "القاموس المحيط" للفيروزآبادي. كما أنه قام بنشر منظومة القرطبي في الفقه المالكي الخ. والمؤسف أن مؤلفات هذا الشيخ لم تر النور، ومعظمها قد ضاعت.

ففي الجيل الذي عاش فيه هؤلاء نشأ شاعرنا، وعلى أيدي أمثالهم تخرّج. كما أن الحياة قد مدت به فعاش النصف الثاني من القرن المذكور. حينما بدأت آثار المدنية الحديثة تظهر في بلادنا، وبدأت الأمور تتغير وصارت الحياة تتقلب من حال إلى حال، نتيجة الاستعمار البريطاني الذي غشى البلاد منذ فجر القرن العشرين. فكانت لهذه التغيرات في حياتنا الثقافية والدينية والاجتماعية، ما لها وعليها ما عليها. فالشاعر عاش في زمن الاستعمار، وشاهد أيام الاستقلال، ثم قضى زمناً بعد الاستقلال.

الفصل الأول
حياة الشاعــــر

المبحث الأول: حياة الشاعر الشخصية والعلمية:

إسمه ولقبه ونسبه:

أما عن اسم الشاعر ولقبه، فنستمع إليه وهو يذكر لنا ذلك في إحدى أبيات قصيدة من قصائده:

أنا اسمي محمد ولنصر * الدين فألا بناصر لقبوني

واسم والده محمد المختار بن محمد الناصر بن محمد "مْيزَوْي" بن أحمد المختار الشهير (بما لم كبر)[١]. ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه. هذا من جهة والده. وأما نسب الشيخ ما لم كبر من جهة والدته فهو حسني إذ ينتهي نسب والدها إلى السيد أحمد الصقلي الحسني رضوان الله عليهم.[٢]

واسم والدته مريم بنت ما لم حسن الملقب (بغوِنِي) Gwani أي الماهر، وهو عالم حافظ للقرآن الكريم، أنشأ كتاتيب لتعليم وتحفيظ القرآن في قرية (غُرِنْغَاوَا)[٣] وما جاورها.

---

[١] - اشتهر باسم الشيخ عمر مالم كبر، كما يسميه، بذلك الشيخ عثمان بن فودي، ولكن حقيقة اسمه هو أحمد الختار. راجع "نسب الإمام السنكوري الأنور" للشيخ محمد الناصر كبر، مخطوط وتوجد نسخة منه في مكتبته، أما عن لفظ (كَبَرْ) فارجع إلى أطروحتي في الليسانس "شعر الشيخ محمد الناصر كبر، جمعه وترتيبه حسب الموضوعات" ص ١٢ قسم اللغة العربية جامعة بايرو كنو ١٩٩٤م.

[٢] - انظر نسب الإمام السنكوري: للشيخ محمد الناصر ص ٤-٥ (مخطوط).

[٣] - من ضواحي مدينة كنو وتبتعد عن المدينة القديمة خمسة أميال تقريباً. وفيها ولد =

مولده ونشأته:

ولد الشيخ محمد الناصر كبر يوم الخميس في شهر شوال. إلا أن هناك تضارباً بين الآراء بالنسبة للسنة التي ولد فيها. فبعض الذين كتبوا عنه يؤرخون سنة ولادته بـ١٩٢١م أو ١٩٢٠م بينما يرجعها البعض إلى ١٩١١م ولكن الذي ذهب إليه الدكتور شيخ عثمان كبّر هو أن الشيخ ولد في عام ١٩١٢م، حيث أخبرني بأنه بعد بحث وتحقيق حصل على أن الشيخ ولد بعد مرور تسع سنوات من تولي أمير كنو العباس بن عبد الله منصب الإمارة، وقد ولي عام ١٩٠٣م. بينما أخبرني الأستاذ سليمان الشهير "بمالم مَانُ سُوَرَنْطِنْك" بأن الشيخ الناصر ولد قبله بسنتين أو ثلاث، ولكنه يرجح الثلاث. وله أربع وثمانون سنة (٨٤) عام (٢٠٠٠). و "مالم مَانُ" هذا ثقة، فقد كان صديقاً للشيخ منذ نعومة الأظفار، قبل أن يبلغ الشيخ تسع سنوات، ولم يفترقا إلى أن انتقل الشيخ إلى رحمة ربه.

وبناءً على ما تقدم، فإنه يمكن الجزم بأن ولادة الشيخ كانت بين ١٩١٢ و١٩١٣م[١].

ومنشأ هذا الخلاف حول تاريخ ميلاد الشيخ راجع إلى أن الشيخ نفسه لم يحرر سنة ولادته. وهذا ناتج عن طبيعة بلادنا في تلك الآونة. فليس

الشيخ الناصر عند أخواله.

[١] - لقد قررت في أطروحتي لليسانس "شعر الشيخ محمد الناصر..." ص١٤، أن ولادة الشيخ كانت في (١٩١٤) ولكنني الآن تراجعت عن ذلك. والذي أرجحه هو (١٩١٢).

هناك ما يسمى اليوم بشهادة الميلاد. كما أن الآباء لا يهتمون بتسجيل تاريخ ولادة أبنائهم[1].

توفي والد الشيخ الناصر ولم يجاوز ابنه السنة السادسة من عمره. فقام بكفالته أحد أعمامه ووارث عريكة العلم في معهد (كبر)، الشيخ إبراهيم بن أحمد الشهير "بنظغني" Natsugune أي المحتبى[2]، ذلك الصوفي الزاهد الورع، والبحر الخضّم الذي لا ساحل له. فقد رباه تربية علمية وروحية حسنة واعتنى به غاية الاعتناء. ولهذا فإن يُتم الشيخ يتم صوري، إذ إن الشيخ إبراهيم نظغني وفّر له جميع ما يحتاج إليه في الحياة، وأمده بما يضنّ به الآباء عن أبنائهم. حتى إن الشيخ الناصر كان في بعض الأحيان يحمل بعضاً من ملابسه ويذهب بها إلى الكتّاب فيدفعها للأستاذ لكي يعطيها لبعض زملائه الفقراء الذين لا يقدر آباؤهم على توفير الملابس لهم. فلم تعرف خطوب الدهر – التي تكشر أنيابها أمام اليتامى – إليه سبيلا. فما أشبه حاله في ذلك الحين بحال الحسن اليوسي إذ يقول:

أيام كنت رخيّ بال في ذرى حدب علي موسِّن وموسِّد

ألهو بأحداث الزمان مراغماً لأنوفها عبث الوليد المستدي

---

[1] - الذي جرني إلى هذا التطويل في محل – ربما – لا يحتاج إليه، هو كون كثير من الناس الآن يكتبون عن الشيخ إما بالهوسا أو بالإنجليزية أو العربية فتجد تضارباً وتعارضاً في كتاباتهم حول تاريخ ولادته، فرأيت أن أحسم هذا الخلاف بعد تحقيق وتدقيق. حتى لا يكون الباحث في حيرة من أمره. والله الموفق للصواب.

[2] - لقب بذلك للزومه تلك الهيئة في الجلوس طول حياته، قاصداً بذلك أن الدنيا ليست داراً للجلوس والإقامة، بل للعبور فيكفيه الإحتباء فيها. وهو أيضاً من أنواع جلوس المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما ذكره القاضي عياض في الشفا.

مرخـى العنـان يـروض كـل لبانـة مرحـاً بهـا مـرح الفلـوِّ المخضـد

ولم يزل الشيخ تحت رعاية الشيخ إبراهيم نظغني إلى أن توفاه الله، بعد أن قضى معه ثلاثاً وعشرين سنة.

جُبل الشيخ – منذ نعومة أظفاره – على حب العلم والعبادة، فكان يأتي المسجد ويؤذن للصلاة منذ طفولته. فجل أوقاته كانت موزعة بين ثلاثة أشياء، الدرس، أو الذكر، أو الصلاة. حتى اشتهر بلقب (كوانَا صلا) Kwana Salla الذي يعني بالهوسا قائم الليل بالتهجد أو المتهجد.

تعلمه:

دخل الشيخ إبراهيم نظغني في البيت ذات يوم فوجد الشيخ مستغرقاً في البكاء، فسأله عن سبب بكائه. فأجابه بأنه يحب أن يلتحق بالكُتَّاب. فمجرد سماع ذلك أمره الشيخ إبراهيم أن يمسح دموعه. ثم بين له بأن هذا أمر لا يستدعي البكاء. وأنه غاية مراده ومرماه. وطلب منه أن يختار أي كُتَّاب يحب أن يلتحق به. فقال الشيخ انه يحب كتاب "لغناواLagwanawa" في حارة "سورنطنك" Soron dinki. وسرعان ما قدمه الشيخ إبراهيم نظغني إلى أستاذ هذا الكتاب المعلم محمد "غَجيري" Gajere. وشرع في تعلم مبادئ القراءة والكتابة ثم قراءة القرآن الكريم عنده.

ويذكر لنا الشيخ أنه كثيراً ما يرى في المنام – في ذلك الحين – أنه يذهب إلى الكتاب، فيستيقظ في منتصف الليل، ويتسلل من البيت على حين غفلة من أهله ويذهب إلى الكتاب، فكلما اطلع عليه الحرّاس وهو في الطريق فروا منه، ظناً بأنه جنِّي، إذ لا يتصورون خروج رجل من بيته في مثل

هذا الوقت، بله طفل صغير في السادسة أو السابعة من عمره. وعندما يصل إلى الكتاب يدخل يده الصغيرة ويفتح الباب من الداخل، فيجلس وينتظر نور الصباح بحيث يستطيع قراءة لوحه. وعندما يخرج الأستاذ يتلو عليه ما حفظ. فيأمره بمحو لوحه وكتابة آيات أو سورة جديدة. فكان يمحو لوحه مرتين في كل يوم، في حين أن بعض الطلبة يستغرقون أسبوعاً أو أسبوعين قبل موافقة الأستاذ على ذلك. فلم تمض ستة أشهر حتى تفوّق على جل الطلبة الذين كانوا في الكُتاب، وصار ممن يشار إليه بالبنان. وعندئذ شرع في طلب العلم (غير القرآن) عند مربيه الشيخ إبراهيم نظغني. فبدأ بقراءة "بدء الأمالي" و "المرشدة" كلاهما في التوحيد. وفي الفقه بدأ بكتاب "مختصر الأخضري" ثم "المقدمة العزية" فالرسالة لابن أبي زيد القيرواني.

وهكذا ظل الشيخ يقرأ القرآن في الكتاب، ويدرس الكتب العلمية في البيت عند الشيخ إبراهيم نظغني إلى أن ختم القرآن الكريم وهو ابن تسع سنوات. فتفرغ للدراسات الإسلامية، والعلوم العربية. ودفعته نفسه التوّاقة إلى المعرفة إلى أن يتعلق من كل علم بسبب، ويضرب فيه بسهم. وحالفه الحظ بأن كان بمدينة كنو – في ذلك الحين– ما يروي الغليل ويشفي العليل. فغشى مجالس العلماء، وتتلمذ على طائفة من أعلام عصره، ومشاهير دهره. وكان يدرس ثلاثين كتاباً في اليوم لدى علماء متفننين في معاهد متفرقة. ففي كل يوم يركب دراجته بعد صلاة الصبح ويذهب إلى هذه المعاهد أو المدارس الأهلية – التي هي عبارة عن بيوت الأساتذة – لكي يوزِّع كُتبه، ثم يرجع إلى البيت لكي يبدأ قراءته عند الشيخ إبراهيم

نظغني، ويتناول الإفطار. وبعد ذلك يترك الدراجة في البيت ويمشي إلى تلك المدارس التي سبق أن وصّل كتبه إليها. وحينما يأتي إلى أيّة مدرسة يشرع في الدرس عند ذلك الأستاذ، لأنه هو السابق بوضع كتبه قبل كل طالب. وإذا فرغ انتقل إلى مدرسة أخرى، إلى أن ينتهي. وهاك هذه المعاهد التي يطوف الشيخ بها:

١. معهد الشيخ محمد الثاني نائب إمام الجامع الكبير بكنو في حارة دنيج Daneji
٢. معهد المعلم القاضي إبراهيم بن الأستاذ قاضي قضاة كنو (المتقاعد) في حارة ياكاسي Yakasai.
٣. معهد قاضي بِثِي الحاج المصطفى في كوراوا Kurawa
٤. معهد مالم عبد الكريم الملقب بسابو في حارة ثِروماوا Ciromawa.
٥. معهد إمام الزاوية معلم إنو في حارة مَيَنْكَا Mayanka[1].

وهكذا إنكبّ الشيخ على الدرس، وجدّ في التحصيل، يواصل ليله بنهاره. وكثيراً ما يجلس في غرفته ليلا يذاكر دروسه فيخرج لكي يكتشف طلوع الفجر، فيرى أن الشمس قد طلعت وهو لا يشعر. إذ لا ينام ليله إلا أن يقهره النوم وهو في أثناء المذاكرة. ولم يكن له فراش للنوم في ذلك الحين، فضلاً عن أن يكون له سرير أو وسادة. وكان يذكر لنا بأنه لم يعرف كيف ينام الناس إلا بعد أن كان مدرساً في مدرسة الشريعة بشاهوثي،

[1] - شعر الشيخ محمد الناصر كبر، جمعه وترتيبه حسب موضوعه الشعري: المتبولي شيخ كبر، بحث تكميلي مقدم إلى قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو ١٩٩٤، ص ١٧.

فكان جالساً في غرفة المدرسين ذات يوم إذ سمع واحداً منهم يتحدث عن نومه، فعندئذ عرف بأن الإنسان إذا أراد أن ينام يخلع ثيابه ويلبس ثياباً خاصة للنوم، ثم يخلع ساعته من يده... وما إلى ذلك من الاستعدادات. فتعجب من ذلك جداً، وجعل يتساءل في نفسه، متى وصل النوم إلى هذه المنزلة حتى يستعد الإنسان له؟ يرحم الله الشيخ! وقديماً قيل:

بقدر الكد تكتسب المعالي * ومن طلب العلى سهر الليالي

وهذه الهمة النادرة مع ذكائه المنقطع النظير، جعلاه يتميز عن زملائه. فكان يحفظ معظم الكتب التي درسها عند أساتذته نظمها ونثرها. وطلابه أو الذين يحضرون دروسه هم خير من يشهد على ذلك. ولله در القائل:

أأبيت سهران الدجى وتبيته * نوماً وترجو بعد ذاك لحاقي؟

استمر ديدن الشيخ على هذا، ولم يتوقف عن الذهاب إلى المدرسة حتى توفي معظم علمائه، ورأى أن ليس هناك من يروي غلّته، فانقطع للتدريس، وخاض في ميدان التأليف، وهو ابن بضع وعشرين سنة. وورث عريكة العلم في معهد كبر[1]، بعد وفاة الشيخ إبراهيم نظغني. فأمه الطلاب من كل ناحية من نواحي نيجيريا وغيرها، وذاع صيته في الآفاق. وصار خادماً للعلم والدين عامة، والطريقة القادرية خاصة.

[1] - أسس هذا المعهد الشيخ عمر مالم كبر في حوالي سنة ١٧٨٧م. (انظر الثقافة العربية في نيجيريا، للدكتور علي أبو بكر ص ١٦٩ لمزيد عن هذا المعهد).

علماؤه:

سبق أن أشرنا إلى المعاهد التي يطوف بها الشيخ محمد الناصر وينهل من معينها. فهنا نذكر علماءه والفنون العلمية التي تعلمها على أيديهم. وهم:

١/ الشيخ إبراهيم بن أحمد الكبري الشهير بنظغني:

تعلم الشيخ على يديه الحديث، والفقه، والنحو، والأدب، والتصوف، والسيرة. وقرأ عنده في التوحيد ما ينيف على خمسين مؤلفاً[١]. وزيادة على ذلك فإن الشيخ إبراهيم لا يسمح لأي طالب أن يدرس عنده كتاباً ما إلا ومع الشيخ الناصر هذا الكتاب يدرسه معه، بل إنه لا يشرع في التدريس إلا بعد حضور الشيخ الناصر. كما أنه هو الذي يتولى شراء جميع الكتب له. فلذا من الصعب تحديد الكتب التي قرأها الشيخ عند الشيخ إبراهيم نظغني، فجزاه الله تعالى خير الجزاء. إنه أحب الشيخ! وقدّم له ما لم يقدمه لأي واحد من أبنائه.

٢/ قاضي قضاة كنو الشيخ إبراهيم بن عثمان الشهير بابن الأستاذ:[٢]

تعلم الشيخ على يديه علوماً شتى، وخاصة ما يمتُّ إلى اللغة العربية بحبل الصلة، فقرأ عنده في النحو مثلاً ما لم يقرأ عند غيره من علمائه. كما قرأ عنده البلاغة، والعروض، وفقه اللغة، والأدب، والتفسير، والفقه وأصوله، والتصوف، وعلم الطبيعة، والمنطق[٣].

---

[١] - ولا غرابة في ذلك، لأن معهد كبر اشتهر من بين معاهد كنو بعلم التوحيد. فهو إذن تراث آبائه – إن صح التعبير-.

[٢] - ويلقب بِميغري

[٣]- شيخ عثمان كبر، شخصية الشيخ محمد الناصر كبر وأدبه، بحث مقدم إلى قسم =

وقد تأثر الشيخ الناصر بشيخه هذا غاية التأثر، وخاصة في العلوم العربية، حتى أنه ليقول ليس له في الدنيا مثل إبراهيمين: نظغني والقاضي. وقضت المقادير بأن يتوفيا في عام واحد. فانظر إلى كلماته وهي تخرج من أعماق قلبه:

وليس يطيب العيش بعد وفاته * فيا ليتني قد متُّ حتى ألاقيه

إلى أن قال:

ولولا احتسابي في المصائب صابراً * لأوديت نفسي حين تنعيه ناعيه

وهذا هو الحرب العوان لأنني * دهاني قبل الحرب ما قد دهانيه[1]

وقد أحب الشيخ إبراهيم – هو الآخر – الشيخ الناصر حباً جما، وفضله على سائر تلاميذه، مع صغر سنه في ذلك الوقت، لما رأى من ملامح ذكائه الذي يتكهّن بإشراق مستقبله.

٣/ الشيخ الحاج المصطفى قاضي "بثي"[2]:

وهو من كبار علماء مدينة كنو درس الشيخ عنده النحو، والصرف، والعروض، والمنطق، والتوحيد، وعلم الأوفاق.

اللغة العربية، جامعة الخرطوم للحصول على درجة الماجستير، عام ١٩٨٠، ص ٥٤.

[1]- ويشير هنا إلى وفاة الشيخ إبراهيم نظغني.

[2] - وهذا الشيخ هو الذي خلفه الشيخ الناصر في القيام بتفسير القرآن الكريم بقصر إمارة كنو في ليالي رمضان ذلك لما كان المرحوم الأمير محمد السنوسي يتولى منصب "ثروما". وكان الشيخ المصطفى هو الذي يقوم بالتفسير في داره بحارة "ثِرَنْتِ"Cirinci. فلما توفي سأل السنوسي من أين يجد من يستطيع أن يقوم بتفسير حزبين من القرآن في كل ليلة، وينتهي منه قبل بداية ما يسمونه بـ "فادنثن دري" Fadancin dare وهي عادة قديمة لأمراء كنو، حيث يجلس الأمير في ليالي رمضان بعد الساعة العاشرة تقريباً بدءاً من نصف الشهر حتى نهايته، فيأتي إليه طائفة من أعيان الناس في البلد ليهنئوه بشهر =

٤/ الشيخ محمد إِنُوَ إمام الزاوية:

درس الشيخ الناصر عند هذا العالم كتاب مختصر الخليل، في الفقه المالكي، وكان شديد التواضع، يطلب العلم من أربابه بغضّ النظر عن منزلتهم أو صغر سنهم. فكان يدرس عند الشيخ الناصر علم التوحيد في نفس الوقت الذي كان الشيخ طالباً أمامه، وفي محضر من طلابه.

٥/ الشيخ عبد الكريم الملقب بمالم سَابُو ثِرُومَاوَا:

هو من أجل عُلماء كنو الذين كان لهم قدم راسخ في علم الحديث. ومصطلحه. وله مؤلفات قيمة في هذا المجال. وقد درس عليه الشيخ الحديث والمصطلح.

رمضان الكريم. وهناك يُخرج بالمأكولات والمشروبات من داخل قصر الإمارة يعكف عليها حاشية الأمير. فالسنوسي لا يحب أن يفوته هذا المجلس، كما أنه حريص كل الحرص على الاستماع إلى تفسير القرآن الكريم. ولذلك فإنه يحتاج إلى من يستطيع أن يفسر حزبين في كل ليلة مع سرعة وإتقان، بحيث يختم القرآن في نهاية الشهر – كما كان الشيخ المصطفى يفعل من قبل – فقيل له: إنه لا يوجد من بين طلاب هذا الشيخ المرحوم من يستطيع ذلك إلا الشيخ الناصر، فعندئذ طلب السنوسي منه أن يأتي ويخلف أستاذه في القيام بهذا الأمر. وبعد بداية التفسير بضع سنين، تولى السنوسي منصب إمارة كنو، فانتقل التفسير من "ثرنث" إلى قصر الإمارة. وذلك عام ١٩٥٤م. وبعد السنوسي استمر التفسير في قصر الإمارة إلى يومنا هذا. والذي يقوم به الآن هو الشيخ قريب الله بن الشيخ الناصر وخليفته. وقد أسند إليه الشيخ هذا التفسير منذ أن كان في قيد الحياة.

٦/ الشيخ مالم ثاني إمام الجامع الكبير في كنو:

تتلمذ الشيخ عنده لمدة تبلغ سبع سنوات. وتلقى منع علوماً في النحو، والبلاغة، والتجويد، والتوحيد، والمنطق.

وهؤلاء هم علماء الشيخ الناصر النيجيريون الذين أخذ عنهم العلوم والثقافة. وهناك علماء لم يكونوا من أهل نيجيريا، وإنما جاءوا إليها إما للزيارة أو لشيء آخر. فانتهز الشيخ فرصة وجودهم في كنو واغترف من بحرهم الزاخر وهم:

- الشيخ مولاي عبد الرحمن، الذي وفد من غاوو في مالي. قرأ الشيخ عنده الموطأ والصحيحين، وكتب السنن الأربعة. هذا، قراءة للبعض وإجازة للجميع.
- الشيخ محمود الجنزوري الطرابلسي. وقد تلقى الشيخ عنده علم المنطق، ومصطلح الحديث، والفقه. ثم الشيخ محمد بن الشُرَّاح الذي تعلم الشيخ عنده علم الرسم. وكذلك الشيخ شريف محمد بن زين العابدين الملقب بشريف سمعت[١].

[١] - شخصية الشيخ محمد ناصر كبر وأدبه: شيخ عثمان كبر مرجع سابق ص ٦٠

المبحث الثاني: مساهماته العربية والإسلامية

دوره في نشر العلوم الإسلامية والعربية:

لقد كانت حياة الشيخ كلها جداً واجتهاداً، لتكون راية الإسلام خفّاقة مترفرة في جميع الأقطار. وهذا أمر لا يتأتى إلا بالعلم، فلذلك كرس قصارى جهده، وقضى جميع أوقاته في سبيل إنجاح هذا الغرض، ولهذا يصعب علينا في هذا المجال الضيق أن نلم بجميع مساهماته في هذه الناحية إلا أننا نشير إشارة خاطفة إلى بعض أعماله.

فالشيخ من أوائل من قام بتأسيس مدرسة إسلامية نظامية نيجيريا على مستوى الابتدائي، على غرار النظام الحديث وسمى المدرسة "بمعهد الدين" وذلك في عام ١٣٨١هـ (١٩٥٨). وقد تخرج من هذه المدرسة – ولا يزال يتخرج – آلاف من أبناء المسلمين. امتلأت بهم الجامعات والوزارات في نيجيريا وخارجها[١]. وتولّد من أثر هذه المدرسة مدارس إسلامية لا تعد ولا تحصى. وكل هذا حسنة من حسنات الشيخ رحمه الله.

ولم يتوقف عند هذا الحد، بل أسس مدرسة أخرى على المستوى الثانوي باسم كلية تراث الإسلام في عام (١٩٨٠) وأحضر لها أساتذة من العراق. وله الأسبقية في هذا أيضاً من بين الأفراد والجماعات. وقد بدأ الشعب النيجيري المسلم يجني ثمرات هذا الغرس المبارك منذ سنوات عديدة.

وهو من أوائل من جعل المساجد في كنو تساير المساجد في العالم الإسلامي، وتلعب دورها بأن كانت المساجد جوامع وجامعات في نفس

[١] - وأنا أيضا من طلاب هذه المدرسة.

الوقت. فالمساجد في كنو قبل الشيخ كانت مخصوصة بالصلاة فقط[1]. أما التدريس فمحدود في بيوت الأساتذة. ولكن الشيخ لما بني أول مسجد له في حارة "كبر" جعله مدرسة وزاوية معاً. يقوم بإلقاء الدروس فيه. وكذلك لما فتح مسجده الثاني في "كبر" (جامع الباز الأشهب) جعل لكل عمود من أعمدة المسجد أستاذاً يدرس فيه مواداً معينة، واختار لنفسه هو الآخر عمود خاص، يقوم بالتدريس عنده. كما أمر جميع تلاميذه أن يجعلوا مساجدهم مدارس[2]. ثم بعد ذلك فتح مدرسة أخرى في مسجده على مستوى عال باسم "جامعة الرسول صلى الله عليه وسلم" وهو الذي يتولى التدريس فيها. وكان قبل ذلك – في مبدأ أمره – يطوف بأسواق القرى يعلم القرويين الوضوء والصلاة عملياً.

كل هذا بجانب الدروس الفردية التي أتاح مجالها للطلاب ليلاً ونهاراً. فما أجدره بمقالة الجيلاني رضي الله عنه: "أنا نشر العلوم والدرس شغلي..."

---

[1] - طلب الشيخ من الأمير عبد الله بايرو أن يسمح له بإلقاء الدروس في الجامع الكبير، ولكن طلبه لم يصادف قبولا لأن ذلك لم يجر في العرف المحلي.

[2] - خذ على سبيل المثال مسجد تلميذه الشيخ يوسف عبد الله مكوراري، الذي يقوم فيه بتدريس التفسير والحديث، واللغة العربية يومياً بعد صلاة الصبح إلى وقت الضحى. وقد مضى على هذا المعهد اليوم (١٤٢١هـ) ما يزيد على أربعين سنة. وكان يحضره كل يوم ما لا يقل عن خمسمائة طالب. وهو الآن منارة من منارات الشيخ، بل حتى بناء المسجد نفسه لم يتم إلا بمحاولاته، جزاه الله خيراً.

مشيخته للطريقة القادرية:

لقد دخلت الطريقة القادرية في ربوع ما يسمى بنيجيريا في القرن الخامس عشر الميلادي[1]، وإن أبناءها هم أصحاب اليد الطولى في نشر الإسلام وتعاليمه في كافة السودان الغربي. إلى أنّ ظهر الشيخ عثمان بن فودي –رحمه الله– في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، فقام بتجديد الإسلام في بلاد هوسا (شمال نيجيريا). وأسس مملكة إسلامية في البلاد. وقد قام بهذا العمل الجبّار باسم طريقته القادرية، حتى صار علَم جماعته (جمعر قادراوا) Jama'ar Kadirawa أي جماعة القادريين. وصارت الطريقة القادرية هي الطريقة الرسمية للدولة. وبعد وفاة الشيخ عثمان بن فودي تغمده الله برحمته، دخلت الطريقة التجانية في البلاد، فوجدت قبولا بين الجماهير. كما بدأ الكسوف يأخذ شمس القادرية، ثم جاء الاستعمار البريطاني وزعزع أركان الدولة، فاضمحلّ أمر القادرية، حتى لم يبق إلا اسمها، وإلاّ أورادها وأحزابها التي لا تزال محتفظة لدى بعض أتباعها يقوم كل فرد بتلاوتها وحده بدون أن تكون هناك رابطة تربطهم في مكان واحد.

---

[1]- الثقافة العربية في نيجيريا: الدكتور على أبوبكر. مؤسسة عبد الحفيظ البساط، بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٩٧٢م ص ٦٧. وهناك رواية تذكر أن الشيخ عثمان بن فودي قد أخبر بأن الشيخ عبد القادر الجيلاني نفسه قد وصل إلى بلدة "فورنمود" في ولاية "زنفرا" الواقعة في شمال نيجيريا، وذلك أثناء جولته التعبدية في الفيافي التي تعرف "بالسياحة" بالعرف الصوفي، والتي قضى فيها حوالي عشرين سنة، قبل عودته إلى بغداد. وعلى هذا يمكن القول بأن القادرية قد دخلت نيجيريا في وقت مبكر على يد صاحبها. اهـ نقلنا هذا الكلام من فم الشيخ محمد الناصر كبر – رحمه الله -.

ولكن لما جاء دور الشيخ محمد الناصر عزم على أن يعيد للقادرية مجدها السابق، وركب كل وعر وسهل في سبيل ذلك. وواصل ليله بنهاره حتى حقق الله له أمنيته. وأسس زوايا للقادرية في نيجيريا وخارجها، تعد الآن بالآلاف. بينما لم يكن للقادرية قبل هذه النهضة إلا زاوية واحدة أسستها الجاليات الليبية المستقرة في كنو. وعمله هذا لا يعتبر إعادة ما بناه الشيخ عثمان للقادرية فحسب، بل وزيادة! لأن دعوته قد وصلت إلى كثير من الأماكن التي لم تصل إليها الحركة الفودوية وبالأخص جنوب نيجيريا. وبعض الدول الإفريقية خارج نيجيريا. فأتباعه الآن يعدون بالملايين[1].

المناصب التي تبوّأها والأوسمة التي حازها:

لقد من الله على الشيخ بمكانة علمية رفيعة، وهمة قويّة علية، وذكاء تحار دونه الألباب، فطبقت شهرته الآفاق. ولذلك هرعت إليه الهيئات والمنظمات الإسلامية والعلمية في نيجيريا وغيرها لينضمّ إليها ويساعد في تكليل أعمالها بالنجاح الباهر، وقيادة سفينتها إلى برّ الأمان. فلذلك شغل الشيخ عدة مناصب في خدمة الإسلام والمسلمين. نذكر منها ما يلي:

(١) هو شيخ الطريقة القادرية في عموم إفريقيا. وقد عين على هذا المنصب من قبل الحضرة الكيلانية العظمى في العراق، وذلك حينما زار إمام وخطيب جامع الشيخ عبد القادر الجيلاني، ببغداد وحفيده الشيخ عبد الوهاب الطُعُمة مدينة كنو في عام ١٩٨٥م.

(٢) عضو في مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

[1] - راجع أطروحتنا في الليسانس لمزيد من التفصيل ص ٤٧-٥٥

(٣) عضو في مجلس أمناء جامعة صدام حسين للعلوم الإسلامية في العراق.

(٤) عضو في المؤتمر الشعبي الإسلامي بالعراق أيضاً.

(٥) عضو في القيادة الشعبية الإسلامية العالمية بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية – ليبيا.

(٦) عضو في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهيئة كبار العلماء بنيجيريا.

(٧) مدير لمركزه الفكري الإسلامي.

(٨) مؤسس ورئيس لجمعية وحدة الإسلام والحج التي عرفت من قبل براحة الإسلام والحج.

(٩) أمير جيش الشيخ عثمان بن فودي (وهو لقب تشريفي تقليدي تفضل به عليه المرحوم سلطان سكتو الحاج أبوبكر الثالث (عام ١٩٧٤).

هذا، وقد حصل الشيخ على أوسمة عالمية، وذلك كالتي حازها في بغداد سنة (١٩٦٠م) بمناسبة احتفالات بغداد والكندي، والتي أكرمه بها العقيد معمر القذافي عام (١٩٨٧م) تحت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

كما أن جامعة أم درمان الإسلامية في السودان قد منحته الدكتوراه الفخرية في مجال الدعوة. وذلك في ١٧/٧/١٩٩٥م.

مؤلفاته:

جاد الشيخ محمد الناصر على المكتبة العربية الإسلامية في نيجيريا بإنتاجات سخية قيمة تنبئ برسوخ أقدام صاحبها في العلم، وشفوف

منزلته في الجد والاجتهاد. وقد تناولت مختلف الفنون العلمية. مثل التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، والتوحيد، وعلوم القرآن، والنحو، وغير ذلك. إلا أن التصوف وخاصة ما يتصل بالقادرية هو الذي يأخذ بنصيب الأسد من بين إنتاجاته شعرها ونثرها. وقد قام الدكتور شيخ عثمان كبر بإحصائها في مقدمة تفسير "إحسان المنان"[1] فذكر ما ينيف على مائة وستين مؤلفاً. نذكر من بينها على سبيل المثال – ما يلي:

(١) إحسان المنان في إبراز خبايا القرآن إلى كل حواري من فقراء هذا الزمان (تفسير وترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى لغة هوسا في أربعة أجزاء).

(٢) تنوير الجنان في تبويب التفسيرين الرهان: ضياء التأويل وكفاية ضعفاء السودان. في مجلدين ضخمين.

(٣) البشرى الكبرى بشرح "نظم الكبرى" عين المقصود في معرفة المعبود. في جزئين.

(٤) استهلال الهلال في مآثر سيدنا بلال.

(٥) ألفية السيرة المسماة بالنفحة المسكية في سيرة أشرف البرية.

(٦) ضرب القباب على أسامي الأصحاب.

(٧) النفحات الناصرية في الطريقة القادرية.

(٨) العينان النضاختان في تاريخ النيجيريتين والعقبتين الفاتحين.

(٩) غاية البيان في تصريف "أبان" (عَلَم لرجل).

---

[1] - إحسان المنان في إبراز خبايا القرآن، للشيخ محمد الناصر كبر، ط٢، نيجيريا: مكتبة القادرية، د.ت، ص ٥-١٣.

(١٠) فتح القريب في نظم مفردات مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.

(١١) فتح الجبار في الدخول على الملك الواحد القهار، من باب الذل والانكسار، الذي هو مشرب القادرية الكبار.

(١٢) أحسن الصريف في التعريف بمصحف نيجيريا الشريف.

هذه هي بعض مؤلفات الشيخ محمد الناصر كبر، وهي –كما ذكرنا– كثيرة جداً. ولكن رأينا أن نكتفي بهذا العدد، خوفا من التطويل. وندير دفّة الحديث الآن إلى جانب آخر وهو: ثناء بعض معاصريه عليه واعترافهم بفضله.

المبحث الثالث: ما قال بعض العلماء عنه:

صار الشيخ الناصر كشمس الظهيرة، حتى في خارج قطره. ونوه بفضله وتفوقه جميع معاصريه. وسواء في ذلك الحِبّ والخِبّ. ونود هنا أن نشير ولو إشارة خاطفة إلى بعض أقوال علماء عصره فيه. فنذكر منهم على سبيل المثال، لا الحصر والاستقصاء.

١. **الوزير جنيد سكتو:**[١]

قال في رسالة أرسل بها إلى الشيخ بتاريخ سبتمبر ١٩٤٦م:

إلى الناصر المحبوب ألـف تحيـة   وألف سلام عاطران مع القطر

حبيبي وأستاذي العليم وصفوتي   ولست بناس ذكره غاية الدهر

٢. **الشيخ محمود بن محمد بللو إمام مدينة بوثي Bauci:**[٢]

قال في مدح الشيخ الناصر:

وكـم مـن فرات لا كصـدي لـوارد   وكم من فتى في سعده لا كمالك

وكم من عميد الوقت لا مثل (ناصر)   ولكن طبع الناس تعظيـم هالك

[١] - هو من أجل العلماء الذين تفتخر بهم ربوع نيجيريا. تولى منصب وزير سلطان سكتو حوالي ١٩٤٨م. انظر حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا للبروفيسور شيخو أحمد سعيد غلادنث، ص ١٨٧ وما بعدها. وانظر الأبيات بكاملها في بحثنا لليسانس ص ٣٤ وما بعدها.

[٢] - هو من كبار علماء نيجيريا وأدبائها المجيدين وعضو في مجلس كبار العلماء بكدونا، وكان أسنّ من الشيخ الناصر بكثير، توفي عام ١٩٦٩م. راجع الثقافة العربية في نيجيريا للدكتور على أبوبكر، ص ١٨٣.

فتى كنوي ليس يفرى فريه   خلا لك سعدي الجو أنت ومالك[١]

٣. الشيخ أسامة عبد الكريم الرفاعي:[٢]

قال في تقريظه لكتاب ألفية السيرة للشيخ الناصر:

((... هذا، وإني لست أهلاً لما وضعني فيه سيدنا الشيخ من مقام، ولكن حسن ظنه جعله يحبوني ويكرمني بهذه المنزلة الرفيعة. فكان أن رأيت علما عظيماً، وفهماً لعقيدة السلف الصالح- بالله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام – لا يعدله فهم...))[٣]

٤. البروفيسور عبد الله الطيب:[٤]

قال في إحدى زياراته إلى الشيخ بتاريخ ١٤٠٨/٦/١٢هـ: "إن الشيخ بحر لا ساحل له" ثم أردف هذه الكلمة الجامعة لكل فضيلة ببيتين هما:

جزاكم الله خيراً إن مجلسكـــم   فيه العلوم ومنه الفضل يكتسب

---

[١] - راجع مصادر الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية: للشيخ أدم عبد الله الإلوري ص ٤٣ للوقوف على ألابيات بكاملها.

[٢] - هو خادم العلم الشريف في دمشق الشام، له مؤلفات عديدة قد نشرت في العالم الإسلام. منها تفسير القرآن الكريم الذي سماه: "التفسير الوجيز لكتاب الله العزيز"، وتحقيقه لكتاب "الشفا" للقاضي عياض.

[٣] - ألفية السيرة: للشيخ الناصر كبر، ط١؛ بيروت: دار العربية، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ص ٥-٦

[٤]- مدير جامعة الخرطوم سابقاً، ومدير جامعة عبد الله بايرو كنو أول فجر تاريخها في الستينات، وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة، ورئيسه بالسودان. والآن بروفيسور عالمي في الأدب العربي.

فيه الصفاء وفيه اليسر متصل   وعندكم درجات العلم والأدب [(١)]

٥. السيد فراج الطيب السراج: [(٢)]

قال في قصيدة طويلة مدح بها الشيخ:

وبحسب نيجيريا فخاراً في الورى   "كبر" الكبير القدر في العلماء

هــذا المحمــد باسمــه وفعالــه   والمفــرد المرموق في العظمـاء

الألمعـــي اللوذعـــي الـــمنتمـــي   فضـــلاً وأخلاقــاً إلى النبـــلاء [(٣)]

٦. الدكتور بدوي دشين: [(٤)]

قال في قصيدة رحّب بها الشيخ حينما زار السودان:

قد جاءنا الشيخ فاهلت بمقدمه   سحائب الخير والعرفان تنهمر

محمد ناصر الدين الحنيــف يرى   في كل صقع له من جهده أثر

إلى أن قال:

---

(١) - كتب السيد البروفيسور هذا الكلام في سجل توقيع الضيوف والزوار لمكتبة الشيخ الناصر، ومن خطه نقلته.

(٢) - أديب وكاتب وناقد، رئيس إتحاد الأدباء السودانيين، رئيس شعبة اللغة العربية لمدارس الشعب سابقا، ورئيس مجلس إدارة ديوان المصنفات الأدبية والفنية، عضو مجلس إدارة جامعة القرآن الكريم، مستشار بالقصر الجمهوري، وعضو بالمجلس الوطني – السودان.

(٣) - انظر مجلة صوت الوحدة الصادرة عن فتية القادرية الناصرية، عدد خاص ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

(٤) - محاضر بجامعة الخرطوم، ثم بجامعة عبد الله بايرو بكنو مع الأستاذ عبد الله الطيب ٦٤-١٩٦٦م ومن بعدها بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٧٩-١٩٩٥م. والآن عميد كلية اللغة العربية بجامعة أمدرمان الإسلامية.

فالشيخ نور وعلم باهر وتقي ودعوة الشيخ كانت منك تنتظر[1]

٧. الأستاذ مصطفى سند:[2]

قال في قصيدة بلغت ستا وعشرين بيتاً يمدح فيها الشيخ:

فهل يقرن الإحسان إلا باسمه ولولاه لم يشـــرق بمغربنـــا فجـــر

إلى أن قال:

هو الكبري الفذ موئل كبرنا وحاشاه من حسن الطباع به كبر

يخوض مدارات العلوم كأنما أنيـــط به رفـع النباهـــة والنشـــر[3]

وفاته:

انتقل الشيخ إلى الرفيق الأعلى في منتصف الليل يوم الجمعة ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٧هـ (٤ أكتوبر ١٩٩٦). بداره المعروفة بدار القادرية في كنو. وفوجئ الناس بخبر وفاته مع طلوع فجر يوم السبت ٥ أكتوبر، فهرع الناس إلى داره من جميع أطراف كنو وخارجها، إلى أن غصّت بهم جميع الشوارع الموصلة إلى دار القادرية، فكان يوماً مشهوداً. وصلى عليه أكبر تلاميذه الشيخ يوسف بن عبد الله المكوراري Makwari في ساحة الجامع الكبير لمدينة كنو. ودفن في مقرة ميغغني Mai giginyaجنب جامع الكنز المطلسم.

[1] - انظر مجلة صوت الوحدة الصادرة عن فتية القادرية الناصرية، عدد خاص ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

[2] - رئيس تحرير مجلة البرلمان وعضو بالمجلس الوطني الإنتقالي، ونائب رئيس لجنة الثقافة والإعلام، وعضو لجنة التربية والتعليم والبحث العلمي- السودان.

[3] - مجلة صوت الوحدة.

هذا، وقد ذكرت بعض وسائل الإعلام العالمية بأن جنازة الشيخ هي أكبر جنازة شهدتها مدينة كنو منذ تأسيسها. حيث احتشد الناس على جنازته ولم يفرغ من دفنه منذ الصباح الباكر إلا مع صلاة الظهر.

تبكي على نعشه آلاف مؤمنة * الله أكبر هذا النور قد تُربا

الفصل الثاني
الـمدائح النبوية في بلاد هوسا

المبحث الأول:
المدائح النبوية قبل الشيخ محمد الناصر:

لقد عرف الشعر العربي المديح النبوي منذ فجر الرسالة المحمدية. وهو امتداد لفن المدح المعروف في مصاف أغراض الشعر العربي. إلا أنه – أي المديح النبوي – في حد ذاته فن مستحدث بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. يقتصر في أول الأمر على امتداح خصال النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وشمائله ورسالته وهو بجسده وروحه. فلما التحق بالرفيق الأعلى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته، مع ذكر سيرته ومعجزاته، وتعلق القلب بحبه، والشوق إلى لقائه، والإشادة بالدين الإسلامي. ولم يزل الشعراء في جميع الأقطار يتوارثون هذا اللون من الأدب العربي كابراً عن كابر منذ حسان بن ثابت إلى عصرنا الراهن، وإلى....[١].

[١] - الذين يريدون أن يعرفوا ما كان للمديح النبوي من ثروة ضخمة يحسن بهم أن يعودوا إلى كتاب "المجموعة النبهانية في المدائح النبوية" للسيد يوسف بن إسماعيل النبهاني. وقد نظم الشاعر المصري محمد عبد الغني حسن ديواناً كاملا في مديح النبي سماه "من وحي النبوة" كما نظم الشيخ ابن بابه التنبكتي قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم عدّ أبياتها بعدد حروف القرآن وغيرهم كثير، وإنما ذكرناهم للإشارة إلى كثرة هذا المديح ووفرته.

وبلاده هوسا من بين الأقطار الإسلامية التي نفقت فيها سوق المدائح النبوية. وربما ساعد على ذلك كون النواة الأولى التي ابتنى صرح الإسلام عليها في هذه البلاد هم الصوفية. ومعلوم أنهم هم روّاد هذا الفن، غير أنهم كثيراً ما يكوّنون حلقات لتلاوة هذه المدائح، بل ويضمنونها تارة في أورادهم يتقربون إلى الله تعالى بتلاوتها. ولذلك انتشرت هذه المدائح في هذي البلاد منذ قديم الزمان. فبعض من هذه القصائد كانت من إنتاجات علماء هوسا وبعضها من إنتاجات غيرهم، بينما يقومون تارة بالشرح والتعليق عليها.

فمنذ القرن الثامن الهجري أتى الشيخ عبد الرحمن الزَّغَيْتِي القادري[1] من وَنغْرَ ملي إلى كنو – زمن أمير كنو على المعروف "بياج طن ظاميا" Yaji

[1] - اشتهر بين الناس بعبد الرحمن زيتي، وقيل إن حارة زيتاوا التي في داخل كنو منسوبة إليه. قدم إلى كنو في وفد من الونغريين يقال إنهم أربعون نفراً، وهو زعيم هذا الوفد. قدموا إلى كنو من (ونغر Wangara) وهو بلد يقع على الضفة الغربية لنهر السنغال. وكان تحت مملكة مالي حينما هاجر الوفد منه إلى كنو انظر حركة اللغة العربية في نيجيريا الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثي، ص ٤٥. وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن هذا الوفد هم الذين جاءوا بالإسلام إلى كنو، انظر على سبيل المثال Kano ta Dabo ci gari لوزير كنو المرحوم أبي بكر دوكاج ص ١٥. إلا أن الحقائق التاريخية لا تؤيد هذا القول. فمثلاً، إن الشيخ عبد الرحمن زغيتي لما وصل إلى كنو حاملاً معه كتاب المدونة البرادعية، وجد في هذه المدينة الشيخ أحمد مي غيزا – الذي قدم من مصر – يدرس كتاب مختصر الخليل، وزاره يوما فاستمع إلى دروسه، فقال: لابد إن هذا الكتاب ابن للمدونة، لأنه لم يسمع به قط. فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قدم عهد الإسلام في هذه البلدة، وبطلان الزعم السابق. حيث وجد في ذلك الوقت معهد علمي يدرس فيه كتاب مختصر الخليل وهو غض طري في عصر مؤلفه. اهـ استفدت هذه المعلومات من فم الشيخ محمد الناصر كبر، وهو ثقة.

dan tsamiya حاملاً معه بعض الكتب الدينية التي من بينها قصيدة البردة للبوصيري[١]، تلك القصيدة التي كانت أظهر وأشهر من الشمس في رابعة النهار في العالم الإسلامي، والتي وجدت قبولاً هائلاً لدى مسلمي بلاد هوسا[٢] خاصة وكثير من العالم الإسلامي عامة، كما أن الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي القادري[٣] زار كلاً من مدينة كنو وكظنا Katsina في القرن التاسع الهجري — أيام أمير كنو محمد رمفا — ومعه بعض مؤلفاته التي من بينها جيميته التي ارتجلها أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والتي مطلعها:

[١] - التحقيقات السنية على الكيسان الهنية: القاسيوني الشيخ محمد الناصر كبر، بحث تكميلي لنيل شهادة الليسانس في اللغة العربية قسم اللغة العربية جامعة بايرو كنو ١٩٩٤م، ص ٦.

[٢] - راجع رسالة الماجستير لمحمد آدم أبوبكر قسم اللغة العربية جامعة بايرو، كنو. بعنوان: "مظاهر تأثير قصيدة البردة في الحياة الأدبية والروحية لدى بعض علماء مدينة كنو" لتبرهن على ما ذكرناه ولكي تجد مزيداً من الإيضاح والتفصيل حول ذلك.

[٣] - هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، العالم، المجاهد الذي دارت بينه وبين اليهود حروب كان الظفر حليفه فيها. اتخذه أمير كنو محمد رمفا مستشاراً سياسياً وقد استفاد به – مدة إقامته في كنو – خلق كثير، وبذل كل ما في وسعه في دفع عجلة الثقافة الإسلامية إلى الأمام. وهو الذي وضع البذور الأولى للطريقة القادرية في كنو. عاد إلى تمبكتو حيث عينه أسكيا محمد مستشاراً سياسياً له أيضا. بعد أن أعقب في كنو ذرية لا تزال باقية إلى الآن . وهم الذين يتولون نقابة الأشراف. وفي أواخر حياته رجع إلى بلاده الجزائر إلى أن وافته المنية بأدرار. وقبره هناك مشهور يزار عليه قبة وبجنبه جامع كبير. وقد خلف انتاجات مفيدة شعراً ونثراً. راجع عنه رسالة الدكتوراه في مكتبة جامعة بايرو لقاضي قضاة كنو السابق حسن إبراهيم غورزو، بعنون المغيلي حياته وأفكاره.

بشراك قلبي هذا سيد الأمم * وهذه حضرة المختار في الحرم[1]

بينما نجد الشيخ طَنْ مَسِني[2] من علماء مدينة كظنا Katsina في القرن السابع عشر الميلادي وضع شرحاً لقصيدة العشرينية في مجلدين صخمين وأسماه بالنفحة العنبرية في حل ألفاظ العشرينية. وقصيدة العشرينية هذه ألفها الشيخ عبد الرحمن الفازازي من علماء الأندلس، وخمسها ابن مهيب. وهي قصيدة مشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ذاع صيتها في المغرب وبلاد أفريقيا عموماً[3]. ولم تزل تتلى في هذه البلاد في المناسبات الدينية، بل تجد في مدن بلاد هوسا أماكن تعقد فيها الحلقات لتلاوتها أسبوعيا أو يومياً. كما أن طائفة كبيرة من الشيب والشبان يحفظونها عن ظهر قلب.

وعندما نصل إلى القرن التاسع عشر الميلادي، أي عصر الشيخ عثمان ابن فودي، الذي يعتبر كالعصر الذهبي للثقافة العربية والدراسات الإسلامية

(1) - الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية، قبل كيان دولة "صوكوتو" العاصمة العلمية: الشيخ قريب الله الشيخ محمد الناصر، دار الآن للطباعة والنشر – قبرص – (بدون تاريخ) ص ٦٠إلا أن القصيدة تميل إلى التوسيل أكثر من ميلها إلى المديح.

(2) - اسمه محمد وكنيته أبو عبد الله ولقبه "طن مسنى" وتعنى هذه الكلمة في لغة هوسا ابن العالم. لقب أمير كظنا والده بهذا اللقب لعلمه. ولد في عام ١٠٠٣هـ الموافق ١٥٨٣م. له مؤلفات عدة، يقال إن المستعمرين هم الذين سرقوها بحيلة حين شنوا الغارة على البلاد، ولم يبق منها سوى هذا الشرح. راجع عنه في "الشيخ طن مسني ودراسة كتابه النفحة العنبرية في حل ألفاظ العشرينية" لإبراهيم أبوبكر غمبراوا. رسالة ماجستير في اللغة العربية، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو.

(3) - دراسات عربية: إعداد قسم اللغة العربية بجامعة بايرو، العدد الخامس، عام ١٩٨٣م، ص ١١

في كافة أنحاء بلاد هوسا (شمال نيجيريا) وما جاورها من بعض المدن، وذلك بسبب المجهود الجبار الذي قام به الشيخ عثمان بن فودي وأعوانه، نجد أن المدائح النبوية لم تزد إلا شيوعاً وازدهاراً، كمّا وكيفا. وكيف لا وقد قلنا آنفاً إن الصوفية هم رواد هذا الفن. والشيخ عثمان قطب[١] من أقطابهم!. وحتى حركته الإصلاحية التي قام بها إنما قامت باسم طريقته القادرية[٢]. فلذلك قلما تجد عالماً من علماء هوسا يقرض شعراً[٣] إلا وله قصيدة أو قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم. نذكر على سبيل المثال الشيخ عثمان نفسه، فإن له قصائد في المديح النبوي، وأشهرها قصيدته الدالية التي مطلعها[٤]:

هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعاً لأزور قبـــر الهاشمـي محمد
لما فشـــا رياه في أكنافهـــا وتكمّش الحجاج نحو محمد
غودرت أهمل الدموع موبلا شوقـــاً إلى هذا النبي محمد
أقسمت بالرحمن مالي مفصل إلا حوى حـب النبي محمد

[١] - القطبانية: من أعلى مقامات الولاية عند الصوفية (انظر معجم المصطلحات الصوفية للكاشاني)

[٢]- الثقافة العربية في نيجيريا: الدكتور على أبوبكر ص ٦٨

[٣] - إن العلماء هم الشعراء في بلاد هوسا، لأنهم هم الذين يجيدون اللغة العربية، فلا سبيل لغيرهم في قرض الشعر بالعربية.

[٤] - القصيدة من بحر الرجز وعدد أبياتها ٦٣ بيتاً. وقد شطرها الشيخ الناصر كبر كما سنرى في الفصل التالي.

وهناك أيضاً قصيدة مخمسة تنسب إليه، وتعرف بعشرينية الشيخ عثمان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومطلعها[1]:

أيا من لـه أعلـى العـلا متبـوأ   أيا من له حجب الجلال توطأ
أيا من له وجه من الشمس أضوأ   أتيتـك بالزلات إنـك ملجـأ
أغثني أجرني أنت من ذاك منشأ

وآخرها:

يزيح عن الشيطان قبل توقيا   يدل على الرحمن مذ كان داعياً
يجود بإعطاء ولم يك جافيـا   يقوم مقام ما حـوى قط ثانيـا
يتم لمسعود به الدين والدنيا

هذا عن الشيخ، وأما بالنسبة لأخيه عبد الله – نادرة السودان – فإنه يقص لنا في تزيينه بأن المديح النبوي هو أول قرضه من الشعر. استمع إليه وهو يقول: "... وأول منظوم لي معتبر فيما تذكرت هو تخميس قصيدة شيخنا أمير المؤمنين، أخي عثمان بن محمد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم التي أولها:

هل لي مسير نحو طيبة مسرعاً   لأزور قبر الهاشمي محمد

وهي أول قصيدة عربية نظمتها فيما علمت. وأول التخميس هو قولي:

بسم الإله بدأت قـولي شافعـاً   بمديـح خير العالمين وصادعـا
مستفهما نيل الوصول وذا دعا   هل لي مسير نحو طيبة مسرعا
لأزور قبر الهاشمي محمد... [2]

---

[1] - منشورة بالطبعة المحلية. وتوجد عند الوراقين والباعة. وعندي نسخة منها.

[2] - تزيين الوقات: الشيخ عبد الله بن فودي، (مخطوط) منشور بالطبعة المحلية، ص ٣-٤

وقد سقنا هذا النص لكي نبرهن على ذيوع وشيوع فن المديح النبوي، وما يتمتع به من الأهمية لدى شعراء ذلك العصر. حيث إن أشعر من عرفته البلاد في ذلك الحين – على حد قول الدكتور على أبوبكر –[1] وهو الشيخ عبد الله يذكر لنا بأن أول بنت شفة جادت بها قريحته في ميدان الشعر، كانت في باب المديح النبوي. فهو السلم الذي ارتقى به إلى أوج الكمال في هذا الميدان.

ولا يسعنا أن نطوي الحديث عن عصر الشيخ عثمان بدون أن نذكر أبنه وخليفته، أمير المؤمنين محمد بللو، إذ هو ثالث الأثاثي التي أشرقت بها ربوع نيجيريا. فله عدة قصائد في مدح الهادي الشفيع صلى الله عليه وسلم.

نذكر من بينها قصيدته الهائية التي يقول في مطلعها[2]:

أيا طاهر الأوصاف يا طيب الحلا   ويا غوث ملهوف طريد وملجاه

ويا باب، عفو الله غوث عبـــاده   وجاها عظيما وهو جاه هو الجاه

فهــذا عبيد جــاء للباب عاتبـاً   أسير ذنــوب قيدتــه خطايـــاه

ومن ذلك أيضاً كافيته التي يقول فيها:

شمس الضحى نزلت بطيبــة فاهتـدى * منه الأفاضل والأباطـل أهلكا

نور الهدى بدر الدجى شمس الضحى * غيث الورى في كل أرض تبركا [3]

---

[1] - الثقافة العربية في نيجيريا: الدكتور علي أبوبكر، ص ٣٣١، وص ٣٤١

[2]- القصيدة من بحر الطويل وعدد أبياتها ١٣ بيتاً. وهي موجودة بأكملها في "حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا" للبروفيسور شيخ غلادنث ص ٣١٢.

[3] - المرجع السابق: ص ١٣٧. نقلاً عن: "إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين =

وكذلك قوله[1]:

أيا طيباً من طيّب طاب مبداه ... ويا طاهراً من طاهر طاب منشاه

ويا أول النبآء خلقاً وآخراً ... لهم مبعثاً يا عاقباً جلّ معناه

فإنك أول شافع ومشفع ... وأول من تنشق عنه بأخراه

كما أنه قد قام بتخمس قصيدة البردة للإمام البوصيري رضي الله عنه فخمسها تخميساً بديعاً رائعاً امتزج بها امتزاج الماء بالراح. ومطلع هذا التخميس هو:

يا ساهر الليلة الألياء لم ينم ... وأصبح القلب ذا وجد وذا ألم

وظل ذا قلق يبكي كذا لمم ... أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دمعاً جرى من مقلتي بدم [2]

وليس هذا كل ما كتبه الشيخ محمد بللو في هذا المجال. وإنما نكتفي بهذا القدر استجابة لما يدعونا إليه المحل من الإيجار.

ونجد الشيخ شيث بن عبد الرؤوف[3] من علماء مدينة زاريا قد قام بنظم عدة قصائد في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، أهمها تخميسه لقصيدة البردة للإمام البوصيري. وقد افتتحها بقوله:

محمد بللو الوزير جنيد ص ٨٨.

[1] - والقصيدة من بحر الطويل. وعدد أبياتها ٢٥. انظرها في: "ظاهرة المديح الديني في الشعر العربي لدى بعض العلماء في بلاد هوسا" للأستاذ محمد المختار أتم فغي، رسالة ماجستير قدمت إلى قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو، ص ١٣٢.

[2] - القصيدة موجودة بأكملها في المرجع السابق ص ١٠٧-١٣١

[3] - هو من كبار مشائخ مدينة زاريا، ولد في عام (١٢٢١هـ) الموافق بـ (١٨٠٧م) وذلك بعد البيعة للشيخ عثمان بن فودي وإقامة الدولة الإسلامية في سوكتو. له مؤلفات =

أمن توهم أوطان من الإرم   أمن تنسم ريح المسك في الخيم
أمن سواطع أنوار من العلم   أمن تذكر جيران بـذي سلـم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم حنت النفس من هجران صارمة   أم نالت الوجد من أرجاف لائمة
أم ملّت الصبر مـن إيلام لازمـة   أم هبت الريح من تلقاء كاظمـة
وأومض البرق في الظلماء من إضم

واختتمها بقوله:

ما لاح برق وصاب المزن منسكباً   ما سال بحر وكان الموج مضطرباً
ما دار يوج وام الفلـك بالغربـا   ما رنحت عذبات البان ريح صبا
وأطرب العيس حاد العيس بالنعم

وكذلك الشيخ يهوذا بن سعد[1] – من علماء زاريا أيضاً – فقد قام هو الآخر بتخميس "البردة"، وأضاف بعض الأبيات إلى أبيات القصيدة الأصلية ثم قام بتخميسها بحيث بلغت أبيات القصيدة عنده مائة وثلاثة وستين (١٦٣) بيتاً، بينما كانت عند الشيخ شئت بن عبد الرؤوف مائة واثنتا عشر (١١٢) بيتاً. وهذه الإضافة كانت منذ البداية، حيث قدم في أول القصيدة بيتاً مخمساً من عندياته. فنجد أول القصيدة عنده هو:

عديدة إلا أنها غير مطبوعة، وتفرقت بعد وفاته في أيدي الورثة، ومعظمها كانت شعراً، منها قصائد الهمزية واللامية والدالية في المديح، وقصائد في الزهد.

[1] - وهو أيضاً من كبار علماء مدينة زاريا البارزين. ولد عام (١٨٨٢م) وله مؤلفات في الفقه والتوحيد والتصوف بالإضافة إلى مجموعة من الأشعار. ومن مؤلفاته في الفقه: فتح الجواد في شرح العسكري وشرح منظومة القرطبي.

حمدا لـــرب غنى بارئ النســـم　　　له الوجود كذا البقاء كالقـــدم

له الكلام وبصر جل عن صمم　　　الحمد لله منشى الخلق من عدم

ثم الصلاة على المختار في القدم

أمن تذكر عرفات أو الحـرم　　　أو زمزم أو حطيم كنت ذا ألم

أو لعلع أحد أو ترعة النعم　　　أمن تذكر جيران بـذي سلـم

مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وحرّ نفسي خليلي ما بصارمة　　　جيوش حب غزت ليست بسالمة

وكيف تسلمْ بأشواق ملازمـة　　　أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من إضم

واختتم التخميس بقوله:

صلّ عليه تعلى واعطه الأربا　　　وكــل ما يبتغــي... مــا طلبـــا

وآله وعلى أصحابــه النجبا　　　ما رنحت عذبات البان ريح صبا

وأطرب العيس حادي العيس بالنغم [1]

---

[1] - استقيت جميع المعلومات التي تختص بعلماء زاريا من رسالة ناصر مرتضى للماجستير التي قدمها إلى قسم اللغة العربية بجامعة بايروا بعنوان "المدائح النبوية عند بعض علماء مدينة زارية"

المبحث الثاني:

المدائح النبوية في عصر الشيخ محمد الناصر:

أما إذا انتقلنا إلى القرن العشرين الميلادي، العصر الذي عاش فيه الشيخ محمد الناصر فإننا نصادف المدائح النبوية قد زاد سيرها قدماً، وصار لها من بين سائر الأغراض الشعرية شأن. وذلك راجع إلى أمرين: الأمر الأول، هو ازدياد الذين يتكلمون باللغة العربية في هذا القرن. يقول الدكتور علي أبوبكر: "يمتاز القرن العشرين عن القرن التاسع عشر بكثرة عدد العلماء الذين يجيدون اللغة العربية، ويرجع الفضل في ذلك إلى إنشاء مدرسة الشريعة سنة ١٩٣٤م التي أخذت تخرج دفعاتها سنوياً منذ سنة ١٩٣٨م...")[1].

والأمر الثاني، كون النشاط الصوفي لم يزل ساري المفعول في البلاد، بل زاحمه شيء من التطور والازدهار. وعلى هذا، فإن الحركة الثقافية أو الإنتاج الأدبي في هذا القرن وبالأخص النصف الأول منه لم يكن إلا امتداداً للإنتاج الأدبي في القرن التاسع عشر شكلا ومضموناً. وفي هذا الصدد يقول البروفيسور شيخو أحمد سعيد غلادنث: "الذي يدرس الإنتاج الأدبي العربي في نيجيريا في القرن العشرين يجد أنه لا يختلف كثيراً عن الإنتاج الأدبي في القرن الماضي. وهذه الحقيقة واضحة خصوصاً في السنوات الأولى بعد دخول المستعمرين..."[2] فما دام أن الإنتاج الأدبي في هذا القرن لا

[1] - الثقافة العربية في نيجيريا: الدكتور علي أبوبكر، ص ٣٤٤

[2] - حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا: البروفيسور شيخو أحمد سعيد غلادنث، ص ١٧٥

يختلف عنه بكثير في القرن الماضي فلا غرابة إذا وجدنا طائفة كبيرة من شعراء هذا القرن يسبحون في بحر المدائح النبوية كسابقيهم. استمع إلى البروفيسور غلادنث وهو في معرض الحديث عن الأغراض الشعرية العربية النيجيرية في هذا القرن حيث يقول: "ومن قبيل المدح، المديح النبوي، وهذا شائع وخاصة عند أصحاب الطرق الصوفية. وقد نظم كثير من العلماء قصائد في هذا الميدان، ولا يزالون ينظمون في المناسبات الدينية كالمولد النبوي. وبعض هذه القصائد تتلى وتنشد في هذه المناسبات، أو في حلقات الذكر. وتمتاز بسهولة الألفاظ وعذوبتها... وكثير منها ينظم ثم يدرس في الحلقات، وقد يقرؤها الناس ويرتلونها تبركاً..."[١]

إذا تدبرنا ما قاله البروفيسور فإننا سنرى أنه يعطينا صورة جلية لما عليه المدائح النبوية في بلاد الهوسا في القرن العشرين. كما أنه تأكيد لما ندّعيه من شيوع وذيوع هذا الفن في هذا العصر الذي نتحدث عنه. فما علينا إلا أن نأتي ببعض أمثلة تشهد لنا في ذلك، إذ بالأمثلة تتضح المقاصد. فلنبدأ إذا بالشيخ أبي بكر عتيق[٢]، يقول في قصيدته المسماة بـ (مفتاح الأغلاق في مدح حبيب الخلاق)[٣]:

---

[١] - المرجع السابق، ص ١٨٣

[٢] - هو الشيخ أبوبكر عتيق بن خضر الكشناوي، من مشاهير العلماء في نيجيريا وأحد شيوخ الطريقة التجانية البارزين فيها. ولد في كشنة سنة ١٩٠٩م، وعاش في كنو حتى توفي بها سنة ١٩٧٤. له مؤلفات كثيرة، من بينها ديوان شعر باسم "هدية الأحباب والخلاّن". كتب عنه في الدراسات العليا بجامعة بايرو.

[٣] - القصيدة من بحر الكامل وعدد أبياتها ٣١ بيتاً. راجعها في "ظاهرة المديح الديني" للمختار أتم مرجع سابق ص ١٨١

مدحي له قد كـان في إطباقـي   لاما أسطـره علـى الأوراق
ماذا أقول بمدح من رب الـورى   أثني عليـه بأعظـم الأخلاق
قل ما تشا في مدحه من بعد أن   وصفتـه بعبودة الخـلاق
قـل عبـده وخليلـه وحبيبـه   وصفيه هو فاتـح الأغـلاق
هو سيد الرسل الكرام وخيرهـم   هو أصل كل الخلق بالإطلاق

ويقول أيضاً في قصيدة أخرى[1]:

يا سيدي يا رسـول يا سنـدي   يا غوث كل الورى لـدى الملمّات
ها قد أتيتك يا خير الورى وجلا   وليس عندي سوى صدق الطويات
وليس لي غير حبي فيك يا أملي   وسيلـة مـع أبيـات ركيكـات
نظمت أسمائك الغرا وجئت بها   أرجـوا القبـول وإحسـان المجارات

ومن الشعراء الذين نظموا أيضاً في المديح النبوي، الشيخ علي الكماسي[2]، يقول في إحدى قصائده[3]:

---

[1] - هي قصيدة تائية من بحر الرجز مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ملتزماً بذكر اسمائه صلى الله عليه وسلم المذكورة في دلائل الخيرات. وعدد أبياتها ١٢٠ بيتاً. وللشيخ محمد الناصر أيضاً قصيدة دالية على هذا الشكل، سنقف عليها – إن شاء الله – في الفصل التالي.

[2] - من كبار علماء مدينة كنو البارزين، ومهرة الكتاب المجيدين، ومن الذين تتلمذوا على يد الشيخ محمد الناصر كبر. ولد في كماسي (غانا) سنة ١٩١٥م، ثم ساقته المقادير ليعود ويعيش في بلاد آبائه وأجداده، فاستوطن مدينة كنو إلى أن وافته المنية في ١٩٨٦/٦/١٢م. وقد خلّف كتباً في الفنون العربية والدراسات الإسلامية، وأشعاراً في المدائح النبوية وغيرها -رحمة الله عليه- كُتب عنه في الدراسات العليا في جامعة جوس سنة ١٩٨٦م.

[3] - القصيدة من بحر المديد، وعدد أبياتها ٢٩ بيتاً. انظر: "شعر الحاج علي الكماسي" =

مرحباً بالمصطفى العلم   خير خلق الله كلهم
أصل هذا الكون سيده   روحه هو سيد الأمم
أبشروا سادات وابتهجوا   هذه الأنوار من حرم
آه من شوق أنوه به   للرسول المصطفى العلم

ومنها هذه الأبيات:

هذه أمريكا باغية   فارمها بالذل والندم
أنت معتصم وملتجأ   أنت حصن أنت خير حم
إن ترم أعدا إهانتنا   أنت ركن غير منهزم
وإذا الكفار قد خدعت   دمرنها مهلك الإرم

ويقول في أخرى[1]:

إن قيل من تهوى فقل   خير الورى هو أحمد
وشفا فؤادي دائماً   وضياء عيني أحمد
هو عمدتي هو صفوتي   وحياة روحي أحمد
يا خير من وطئ الثرى   يا نور عيني أحمد

وهذه الشواهد جئنا بها كمثال فقط، إذ الحديث عن المدائح النبوية في بلاد الهوسا مهامه فِيحٌ، تحار فيها القطا، وتقصر بها الخُطا، ولو في بحث مستقل لذلك على حدة. فكيف بنا الذين ما تحدثنا عن ذلك إلا لنمهد

للدكتور محمد الأول أبوبكر، رئيس قسم اللغة العربية جامعة بايرو (سابقاً). (مقال قدمهُ في إحدى ندوات القسم).

[1]- والقصيدة من بحر الكامل، وعدد أبياتها ٣١ بيتاً، راجع ظاهرة المديح الديني، مرجع سابق ص ١٧٢

لأنفسنا الطريق إلى غرضنا الذي هو موضوع البحث الأصلي. ومع ذلك أرى أن في هذا القدر كفاية لمن له عناية.

ثم إننا إذا تقصينا كل ما سبق ذكره، وتتبعناه بعين الاعتبار، فإنه يظهر لنا جلياً أن ما قام به الشيخ محمد الناصر من هذه المدائح النبوية التي سنسردها في الفصل التالي، لم يكن بدعة أو مجرد صدفة، وإنما هو مولود شرعي تعاونت القريحة مع البيئة على إيجاد حمله.

المبحث الثالث:

المدائح النبوية في شعر الشيخ محمد الناصر كبر:

هذا المبحث عبارة عن عرض وجيز لجميع قصائد الشيخ التي وصلت إلينا في المديح النبوي[1].

هذا، ولا أدّعى أنني استقصيت وأحطت بكل ما نظمه الشيخ من الشعر في هذا الجانب، بل إنني أوردت ما تمكن لي جمعه. ذلك لأن كثيراً من قصائده لم تزل إلى الآن مبعثرة وموذعة في أيدي التلاميذ والمريدين، وبعض الأبناء. وطائفة منها غالتها يد الزمان.

أما عن نوعيّة القصائد أو كيفيتها، فإنها تمثّل لنا الشعر العربي النيجيري، وخاصة في القرن التاسع عشر إلى نهاية العقد الأول من القرن العشرين. فهذا الشعر لم يكن إلا نموذجاً للشعر العمودي ببحوره وقوافيه، ولغته المنتقاة، من تحري شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، واحترام قواعد اللغة وأصولها كما استقر عليها العرف وقنّن لها النحاة، من حيث افتتاح القصائد بالوقوف على الأطلال، ووصف المرأة والناقة، إلى غير ذلك من الصفات التي أقام عليها نقاد العرب القدامى عمود الشعر[2].

---

[1] - إن بعض قصائد هذا المبحث مأخوذة من أطورحتي في الليسانس التي جمعت فيها أشعار الشيخ حسب الموضوعات الشعرية. وبعضها الآخر مأخوذة من ديوان الشيخ المسمى بـ "سبحات الأنوار من سحبات الأسرار". الذي قام بجمعه تلميذه الشيخ يوسف بن عبد الله المكوراري.

[2] - مزيد من الإيضاح حول هذه النقطة، انظر: "الشعر العربي في نيجيريا في القرنين التاسع عشر والعشرين، "الدكتور كمال بدري. مجلة دراسات عربية، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو. العدد الرابع ١٩٧٨/٧٩م

فمعظم شعر الشيخ من هذا القبيل، أي إنه شعر تقليدي، إلا أنه مع ذلك لم يفقد شخصيته في شعره، نجد نوعاً من التجديد في بعض أشعاره وذلك باستقلال شخصيته عن المقلدين في كثير من المواطن، فقد عبر عن شعوره ومشاهداته، بأن ساق معاني جديدة، وصوراً حديثة، وفوق ذلك فإن له شعراً في المناسبات والقضايا الاجتماعية. ولذلك نستطيع أن ننسبه إلى المدرسة الكلاسيكية الحديثة التي يتزعمها البارودي[1] في العصر الحديث، مدرسة البعث والإحياء.

والشيء الملفت للنظر أن نرى كيف تأتّي لشخص لم تكن اللغة العربية هي لغة الأم له، ولم يكن يعيش معها إلا في خلال الكتب – اللهم إلا في بعض المناسبات – نرى كيف تأتّي له أن تنقاد له اللغة فيصيغ لنا أشعاراً كما صاغها العرب الأوائل؟ فإن تعجب، فعجب صدور مثل هذا الشعر منه ومن أمثاله!.

ولكن لا أطيل عليك أيها القارئ العزيز، تعال معي نطوف في أرجاء هذه المدائح، لتروي منها مقلتك.

[1] - محمود سامي البارودي رائد الشعراء المحافظين، واحد رؤساء ثورة عرابي باشا، في مصر عام (١٨٣٨م) وتوفي عام (١٩٠٤). له ديوان شعر في جزئين، وأربع مجموعات شعرية تعرف "بمختارات البارودي" وقد ترأس مدرسة بعثت الشعر من جديد وعادت به إلى عصر العباسيين في جزالته وروعته. وعلى هذا فإن الشعر العربي الحديث يدين للبارودي بأنه النموذج الحي الذي احتذاه الشعراء من بعده وساروا على نهجه في أسلوبه وأغراضه، ذلك لأنه أتى بشعر جزل رائق الديباجة عذب النغم في حقبة ساد فيها شعر الضعف والصنعة وعقم الخيال. ونقل ديباجة الشعر من التمدّح وطلب العطاء إلى تصوير مشاعره النفسية وتجاربه العاطفية. لمزيد من التفصيل عنه راجع: "البارودي رائد الشعر الحديث" للدكتور شوقي ضيف.

١. **زهرة الربيع في مدح الشفيع**[1]:

وهذه قصيدة ميمية تقع في ثلاثة وستين بيتاً (٦٣) في بحر الطويل. وهي قصيدة تبين لنا مدى تأثر الشيخ بالشعر القديم. فإنك حين تقرأها تشعر كأنك أمام قصيدة واحد من فحول الشعراء الجاهليين. لولا المعاني الإسلامية التي تضمنتها.

تناول الشيخ في هذه القصيدة خمس نقاط، وهي:

أ. **المقدمة**: وهي مقدمة غزلية على المنهج التقليدي المعروف عند العرب. فبدأها بقوله:

سقى جيرة بالضال فالغار ديِّمولا زال منهلاً بهم حيث خيموا

وبعد أن طلب السقيا لهؤلاء الجيران، شرع في وصف مكابداته وضيق عيشه لبعدهم، وأن عيشه بدونهم صار كعيش سيدنا يعقوب بعد فقده ابنه يوسف عليهما السلام.

هم جيرة ما العيش دونهم سوى كعيش ابن إسحاق ويوسف درهم

وما لذّ لي من دونهم طيب الكرى ليالي للتوديع رامة سلموا

وواصل في وصف سهد وضنك لاقاها لأجل هؤلاء الأحبة.

ب. **وصفة الناقة**: ثم شرع في وصف الناقة التي اتجهت به إلى منازل الأحبة بأنها سريعة وقوية، وأنها تحمل رجالاً مؤمنين بربهم:

ولا عمّها عَنْسٌ رَجُوسٌ عَرَنْدسُ نمى مجدها السامي بجاء وشذقم

أخوها أبوها عمها خالها وفي مناسمها للرقم في البيد عندم

على الأين تمشي الخَيْزَلَي وتريك ما من الجَمَزَي يرضى به المتنسم

---

[1] - القصيدة موجودة في ديوان سبحات الأنوار، ص ١١٨-١٢٢

عليها رجـال مؤمنون برهـم　　سكـارى حيارى وُلّه فيه هُيَّم

ج. **التخلص إلى ذكر الممدوح:** وبعد وصف الناقة طلب من حاديها أن يقف ساعة، ليبدي ما كان يكتمه من الأسرار. فشرع في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، بما فيه من الصفات الخلقية والخُلقية:

فبالله إلا ما توقفت ساعة　　لأبدي من الأسرار ما كنت أكتم

ألم تر أنـوار النبي محمـد　　بطيبة حيـث العلـم حيث التعلم

نبي به يعتز فهر بن مالك　　وآدم بين المـاء والطـين يـؤدم

د. **مشاعره نحو الذات المحمدية:** وهنا صور لنا شوقه نحو النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان يرسل إليه روحه لتقبل الروضة الشريفة نيابة عنه، وتارة يرسل سفينة، وتارة سيارة وهكذا...

وكان بريـدي قبـل طيراً محلّقـاً　　إليه وروح روضـة القبر تلثـم

وأبـرد طوراً ذي بخـار عَمَلّسٍ　　يشقق تيـار البحار يغمغـم

وأبردت هذا العام والحال حاكم　　"تُرُمْبِيلَةُ"[1] قذَافـة تتدمـدم

فأبلغه عنـي ما أقول وارتجـي　　وإن كان لا يخفى عليه المكتم

تقول له صبّ "بكانو" متيـم　　له شاهدا عدل بهار وعَنْـدَمُ

يراود ما رام الكليم وإن ضزي　　فرؤية هاتيك الجبـال تَكَلـمُ

إلى قوله:

وما النوح إلا كلمة "كانوية"　　منمّقة مـن ألكـن يتجمجـم

وما بلغت كعباً ولكن عروبة　　جلاها لدى عرب الأباطح أعجم

[1] - ترمبيلة: سيارة (Bus)

يزير كها "حوسية"[1] أعجمية   سميّك يسديها المديح ويلحم..

هـ. **الخاتمة**: ختم القصيدة بالدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين:

وصل على المختار فهر بن مالك   ومن ضمه منه عباء ملثم

وأصحابه والتابعين وتابع   لآثارهم أو من ترضّى عليهم

متى اشتد "حوسيٌّ" لطيبة أو شدى   سقى جيرة بالضال فالغار ديم

٢. **"الأرج الندي في تشخيص الذات المحمدي"**[2]

تقع هذه القصيدة في سبعين بيتاً (٧٠) وهي في بحر المديد. والباعث على نظمها، هو أن الشيخ لما زار السودان عام ١٣٨٨هـ التقى هناك مع الشيخ محمد على يوسف في دار الشيخ محمد الفاتح قريب الله بأمدرمان، فسأله عن حكم تشخيص (أي تصوّر) ذات الله تعالى الذي يدرس في بعض المدارس، تقريبا لذاته تعالى إلى أفهام الطلبة. فأجابه الشيخ بعدم جواز ذلك في الشرع. ثم قال: حبّذا لو كان ذلك التشخيص في ذات الرسول صلى الله عليه وسلم. فنظم هذه القصيدة بعد عودته، وسماها بالاسم المذكور.

وقد افتتح الناظم قصيدته بالغزل حسبما هو معروف في الشعر التقليدي، فقال:

سكن الجرعا بمنعرج   فغدا قلبي على لهج

[1] - نسبة إلى قبيلة حوسا، القبيلة المشهورة في نيجيريا وغرب إفريقيا

[2] - شعر الشيخ محمد النصار، مصدر سابق، ص ٦٦-٧٠

شـادن غن لهجـت بـه　　في حمى نعمان من حجج

لاح لي والشوق يلعب بي　　ففقـدت الـروح بالمهج

إلا أن هذه المقدمة الغزلية لم تطل، إذ سرعان ما قطعها الشاعر وتخلص إلى موضوعه الذي هو ذكر أوصافه صلى الله عليه وسلم الخَلقية. وأشار إلى أن هذه الأوصاف التي أخذها من كتاب "الشفا" للقاضي عياض. استمع إلى هذه الصفات:

كان خير الخلق سيدنا　　أزهر الألوان في دعج

أنجل العينين في شكل　　أهدب الأشفّار في بلج...الخ

وأخيراً اختتم القصيدة بالدعوات والتوسلات، طالباً من المولى الهداية إلى الصراط المستقيم وحسن الخاتمة له ولأحبابه وعائلته، وأن يزجّ به في قعر بحر محبة النبي صلى الله عليه وسلم:

الصلاة والسلام على　　طه من دوماً لديك نجى

وعلى آل وذي شغـف　　كلما صب إليك هجي

ما شدا شاد على هزج　　سكـن الجرعا بمنعـرج

٣.يا ناق سيري...[١]

لم يضع الناظم لهذه القصيدة عنواناً. وهي قصيدة دالية تقع في خمسين بيتاً (٥٠) نظمها في أيام صباه قبل أن يزور البلد الحرام. فقرض هذه القصيدة يذكر فيها شوقه وحنينه إلى زيارة خير الأنام صلى الله عليه وسلم.

افتتح القصيدة بقوله:

[١] - القصيدة موجودة في شعر الشيخ محمد الناصر.... ص ٧١-٧٤

يا ناق سيري بالفقير محمد بن محمد بن محمد بن محمد

نفرى المهامه والقفار لكي نرى بلد به ذات النبي محمد

وهكذا استمر يذكر مناقب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومزاياها، حتى بلغ نصف القصيدة. ثم صرف عنان القول نحو بيان حبه وعشقه للرسول. ومنيته في رؤيته. كما بين أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يستوي فيه البليغ وغيره. ولذلك مدحه.

إلا فإن مداحي أضحوكة لكنها عذبت بلفظة أحمد

ثم عاد في وصف شوقه للرسول، وأنه إذا تمكن لأحد أن يلقب بمجنون ليلى، فإنه مجنون محمد، وأنه يكتفي بأن يعرف بهذا اللقب:

حسب المحب إذا يجنّ بحُبكم أن يعرف المجنون جن محمد

وأخيراً بين أنه لا خير إلا في اتباع القرآن والحديث، وأن الاعتصام بالسنة المطهرة، هو خير وسيلة توصل الإنسان إلى الهداية. واختتم القصيدة بقوله:

فالصب يكفيه التهاتر باسمه وتفنن في حبه بتجرد

يكفيه معرفة النبي نكوصه عن درك أدنى ذرة لمحمد

كملت هنا أبيات جن محمد يا رب فاختم لي بجنّ[1] محمد

---

[1] - يقصد بالجن الثانية: "أحمد"، لأن حاصل عدد حروف جن هو (٥٣)، الذي هو عدد حروف (أحمد) على طريق حساب الجمّل.

٤. يا خير خلق الله.....[١]

وهذه قصيدة رائية في بحر الرجز، تقع في (٢٢) بيتاً. نظمها الشيخ حينما زار المدينة المنورة – نورنا الله بنور زيارتها –، وذلك في مستهل شهر الله المحرم عام ١٣٨٦هـ. وقد نظم القصيدة في المواجهة الشريفة بالحرم النبوي، فقال:

يا خير خلق الله جئتك قاصداً   يا نقطة في قبضة القهار

يا نقطة في القلب إنك ساكن   في حُرّ[٢] قلبي يا قريب الدار

أهدي السلام إليك يا خير الورى   من سر أسراري ومن إجهاري

فإذا أتيتُ إلى المدينة مرة فلكم أتيتَ القلب ألف مرار

واستمر يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سر الإله، وعنصر الأنوار، ومنبع الأسرار، وكعبة النبآء، وقدوة الأبرار والأخيار. إلى غير ذلك من المدح والثناء. ثم استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الله في طلب الهداية والتقى، له ولعترته وأحبائه، ولسائر المسلمين.

واختتم القصيدة بالصلاة والتسليم على خير خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وجميع عباد الله الصالحين:

أجبن سلامي في صلاتي زائراً   لعلاك دون معاشر الزوار

وإلى ضجيعيك الكرام ومن حوى   روض البقيع وسائر الأمصار

وإلى جميع الصالحين وزكنا   يا رب واحشرنا مع الأطهار

(١) - القصيدة موجودة في "شعر الشيخ محمد الناصر..."، ص ٧٤-٧٦

(٢) - أي وسط.

٥. والله والله إن المصطفى المضري...[١]

وهذه القصيدة رائية أيضاً. وعدد أبياتها (٣٥) بيتاً في بحر البسيط. حاول الشاعر أن يرتب أوائل أبيات القصيدة على أن تكون أبياتها تحوي هذه الجمل: "وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب" فيحمل أول كل بيت حرفاً من هذه الجمل بترتيبها. وهو ما يسمى بالتطريز. وهو أسلوب نشأ خلال القرن التاسع الهجري[٢]. ومطلع القصيدة يأتي هكذا:

والله والله إن المصطفى المضري   هو الشفيع من الأسقام والوضر

ما سامني الدهر ضيماً واستعنت به   إلا أتاني الشفا من دون ما ضرر

آه على ما جنت نفسي وما اكتسبت   من المآثم والأوضار والكدر

وهكذا استمر يثني على النبي صلى الله عليه وسلم ويستنجده، ويسأل الله تعالى أن يحيطه بلطفه، ويفرج كربته... إلى أن ختم القصيدة بقوله:

يوم القيامة يا مختار هاك يدي   فوصلنا يجيليها ومفتخري

برحمة منك في الدارين يا سندي   فتلجلسني مقام السيد الخطر[٣]

٦. تشطير "هل لي مسير...[٤]

أما القصيدة التي أمامنا فلم تكن إلا تشطير[٥] لقصيدة الشيخ عثمان

---

[١] - شعر الشيخ محمد الناصر..... ص ٨٧-٨٩

[٢] - الأدب الصوفي السوداني: الدكتور الطاهر محمد علي البشير، ص١٤٧

[٣] - يعني به شيخه الشيخ محمد المجتبى بن خطر الشنقيطي، نزيل مكة المكرمة ودفينها، عليه سحائب الرضوان.

[٤] - شعر الشيخ محمد الناصر كبر... ص ٩٨-٩٠(والقصيدة في بحر الرجز)

[٥] - التشطير: هو أن يعمد الشاعر إلى أبيات لغيره، فيضم إلى كل شطر منها شطراً يزيده عليه عجزاً لصدر، وصدرا لعجز، (ميزان الذهب) السيد أحمد الهاشمي، ص =

بن فودي الدالية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم المشهورة بـ "هل لي مسير" التي نالت إعجاب كثير من الدارسين قديماً وحديثاً في هذه الديار النيجيرية. فقد خمسها الشيخ عبد الله بن فودي، بينما قام الدكتور محمد صالح حسين بدراسة ذلك التخميس دراسة أدبية[1].

يقع تشطير الشيخ في ١٢١ بيتاً. افتتحه بصدر بيت الناظم الأول حسب ما هو معروف في قاعدة التشطير، فقال:

(هل لي مسير نحو طيبة مسرعاً)   أطوي السباسب فدفدا عن فدفد

أنضى القلوص الشذقمية مُدلجاً   (لأزور قبـــر الهاشمـــي محمـــد)

تتبع الشيخ المعاني التي أوردها الشيخ عثمان في داليته، فزاد عليها ووسعها، وحاول في إيجاد انسجام تام بين الأصل وبين التشطير. حتى إن من لم يعرف أن القصيدة مشطرة، يظن أنها قصيدة واحدة، لناظم واحد.

فقد تحدث الشيخ في القصيدة عن تولّهه وشوقه إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كاد أن يطير إليه ويموت في عشقه. وأنه لا يلذّ له العيش دون ملاقاة حبيبه هذا. فلذلك طلب من رفقائه بأن يقوموا ويسوقوا النجائب، فيطووا الفلاة والمهامه قاصدين زين القيامة صلى الله عليه وسلم. وعندما يصلون إليه، يمرغون وجوههم في ترب مسجده الشريف، تطييباً للنفس حين نالت أربها.

١٤٢

[1] - أنظر: (سلسلة دراسات عربية)، العدد الخامس سنة ١٩٨٢/٨١م قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو

وبعد هذا انتقل إلى ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم، فبين أنه لا أحد يستطيع حصرها لكثرتها، فهي كالرمل في الكثرة:

(آياته من ذا يقـــوم بعدّها)   إذ ليس يحويها لسان المنشـــد

إن المعاجز كالنجوم الزهر بل   (كالرمل كثرة معجزات محمد)

ثم شرع في ذكر طائفة من هذه المعجزات، مثل كلام الشجر والضب والظبي له صلى الله عليه وسلم. وتكثير القليل ببركته، إلى غير ذلك مما هو مقرر ومدوّن في كتب السيرة.

وأخيراً خضع وتضرع إلى الله تعالى مقراً بذنوبه، وأنه عاجز وجاهل، تابع للهوى، ضاعت لياليه في الملاهي والدد، إلا أنه طامع في رحمة ربه. فطلب منه سبحانه وتعالى أن ييسر عليه زيارة النبي صلى الله عليه وسلم. وتوسل في ذلك بالخلفاء الراشدين. وأخيرا ختم القصيدة بذكر تاريخ نظمها:

(وبعون رب العالمين ختمتها)   وطرزتها بصلاة أحمـد سيدي

وأنـا الفقير محمـــد شطرتُهـــا   (وجعلت عدتها كسنى أحمد)

(في عام "قش" بعد "فج" فافهما)[1]   كان الختام وذاك أول ما بدي

شطرتها أنا خاتماً في "صسش"[2]   (من هجرة الهادي النبي محمد)

---

[1] - قش، فج: (١١٨٣هـ)

[2] - صسش: (١٣٦٠هـ)

٧. تخميس "المواهب الأحدية..."[١]

وهذه القصيد تخميس[٢] لقصيدة صديقه الشيخ أبي عتيق سَنْكَا الكشناوي الكنوي، التي سماها بـ"المواهب الأحدية في مدح الحضرات المحمدية". أخذها الشيخ الناصر وخمسها. وهي قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها (٦٤) بيتاً في بحر البسيط. افتتحها بقوله:

يا أشرف الخلق يا أعلى الورى غرفاً   يا أكرم الخلق يا أسمى الورى شرفاً
يا أعظم الـــخلق يا أوفاه مغترفاً   يا رحـــمة الله يا من قد رقا فصفا
ونال ما ليس يدريه الذي وصفا

أتى إلى بابك المضطر مرتــجياً   الناصر الكنوي يشدوك مستحياً
يقــول قال عتيق منك مجتديا   أزكى صــلاة وتسليــم عليك أيا
مشكاة مصباح رب العرش يا صدفا

حاول الشيخ في هذه القصيدة –كسابقتها– في إيجاد اندماج وامتزاج بين معاني الأصل والفرع. بحيث وجد تلائم تام بين معاني القصيدة الأصلية، ومعاني التخميس.

وقد اشتملت القصيدة على ذكر (الحقيقة المحمدية) – على المصطلح الصوفي– بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو علة الكون وسر السر. ثم بين أن مادحي النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون إستيفاء حقّ هذا الجانب ما دام أن الله سبحانه وتعالى أثنى عليه بنفسه. فمدحه صلى الله

(١) - شعر الشيخ محمد الناصر، ص ٩٨-١١١

(٢) - التخميس: هو أن يقدم الشاعر على البيت من شعر غيره ثلاثة أشطر، على قافية الشطر الأول، فتصير خمسة أشطر.

عليه وسلم مجال يستوي فيه سحبان أبلغ البلغاء، مع باقل أبلد من عرفته العرب.

سحبان مع باقل في وصفك استويا أثنى لك الله هل يعبأ بما هذيا
مهما تكن بعد فالنرمي كما رميا يا غوثنا كهف كل اللائذين ويا
أصل الخلائق طراً أظرف الظرفا

وبعد ذلك أطلق عنانه في تعداد معجزاته صلى الله عليه وسلم ومزاياه، وبعض من شمائله وأخلاقه. كما تحدث عن الشفاعة العظمى، والإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم، وما حدث له في ذلك من القرب والدنوّ، إلى أن داس بساط العزّ بنعله، وشاهد مولاه بعيني رأسه فكلمه مشافهة، وأعطاه خمسين صلاة و...و...و....

وأخيراً استجار برسول الله صلى الله عليه وسلم مما حلّ بأمته من الوهن، والضعف، والفرقة. ثم طلب الجذبة والقرب من الرسول، وأن يسقيه من كأس محبته. واختتم القصيدة بالصلاة والتسليم على النبي وآله وصحبه، كما طلب الرضى للأولياء الأقطاب.

رضاك ربي على أقطاب كل زمنو كل أتباعهم ممن بدا وكمن
وكل من خصّه رب الأنام بمن وارض عن شيخنا التجاني رب ومن
على طريقته في دهره عكفا

٨. "فتح الوالي في نظم أسماء مولى الموالي"[١]

تقع هذه القصيدة في ستة وثلاثين بيتاً (٦٣)، عدد سني الممدوح صلى

[١] - شعر الشيخ محمد الناصر... ص١١٢-١١٨

الله عليه وسلم. نظمها الشيخ في بحر الرجز. وهي من عتائق قصائده التي قالها قبل حجته الأولى. وقد ذكر المناسبة التي نظمت القصيدة فيها، وبين مضموناتها في مقدمتها التي قدمها بها. فلنترك له المجال يبين لنا ذلك بحروفه:

"... اعلم أن سبب نظم هذه الدالية: إني كنت في المدرسة فجاءنا غلام يقال له "الأمين"، وأخبرنا بأن والدته العفيفة العالمة الشيخة ميمونة، أخت الشيخ سليمان الوالي بن إسماعيل الخطيب، تريد المسير إلى مدينة الرسول، عليه الصلاة والسلام في هذا الشهر. فسنح في خاطري أن أنظم أسماءه صلى الله عليه وسلم التي في "دلائل الخيرات" وأوصيها بأن تحملها معها إلى روضته الكريمة. وتقرأ عليه بين يديه – إن ساعدها على ذلك الحال – هذا النظم المبارك... وقد تمت القافية غالباً بأوصاف من المدحة. وهي غير الأصلية التي في الدلائل... وسميته بـ "فتح الوالي في نظم أسماء مولى الموالي". ونرجو أن يفتح المولى بشرح عليه.

وجمعته في نحو ثلاث ساعات، يوم الثلاثاء (٥ من شهر ربيع الثاني عام ١٣٦١هـ) على صاحبها التحية. آمين

ومطلع هذه القصيدة هو:

ميمون إمّا جئت مبدا الهدى	فسلّمي عني الحمى الأرغدا
وصرّحـــي باسمي ولا تكتني	وأخبري ولتحسنـــي المبتـدا
قـــولي لـــه محمـــد المجتبى	يرجـــوك يا سيدنا أحمـــدا

ومن هنا استمر بذكر أسمائه صلى الله عليه وسلم. إلى أن اختتم القصيدة بالصلاة والتسليم على المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم، ثم

سأل الله سبحانه أن يقبض روحه على السنة الغراء:

واختم على السنـــة آجالنا   بشوقنـا للمصطفى سرمـدا
وأرض عـن الآل وأصحابه   وتابعـــي نهجهــم الأرشــدا
لاسيمـا الجيلي وأحزابـه   وسائر الســادة أهـل اهتـدا
ما قيل يا طيبة أو أنشدت   ميمون إما جئت مبدا الهدى

٩. "يا رسول الله يا سندي"...[١]

قال الشيخ هذه القصيدة لما رأى رؤية منامية. رأى فيها أنه جالس أمام النبي صلى الله عليه وسلم، في زمرة من أصحابه فوق جبل عال. وهو صلى الله عليه وسلم يشرب الشاي، والرياح تحرّك ثيابه. فلما استيقظ خطر بباله معنى بيت لواحد من الشعراء[٢] وهو:

ربما أوفيتُ في عَلَمٍ ترفعنْ ثوبي شَمَالاتُ[٣]

---

[١] - القصيدة موجودة في ديوان سبحات الأنوار، ص١٢-١٧

[٢] - مقابلة جرت بيني وبين الناظم، مسجلة في شريط موجود في حوزتي.

[٣] - هذا البيت استشهد به العلامة ابن هشام في موضعين في "مغنى اللبيب" خلال الحديث عن "ربَّ" وذكر الحافظ السيوطي أنه لجزيمة الأبرش بن مالك بن فهم الأزدي. وذكر أن شارح أبيات "الإيضاح" قال: غلط ابن حزم فنسبه لتأبط شرا. راجع مغنى اللبيب من كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد الشاهد رقم: ٢٠٩، ج١ص ١٣٥، والشاهد رقم: ٥١٧، ج١، ص ٣٠٩.. وانظره في شرح شواهد المغنى للحافظ السيوطي ج١، ص ٣٩٣-٣٩٤ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان وبدون ذكر الطبعة والتاريخ.

أوفيت: أشرفت: العلم: الجبل. الشمالات: رياح الشمال الشديدة، يفتخر الشاعر بأنه يصعد الجبل بنفسه ليستطلع أعداءه ولا يعتمد في ذلك على غيره.

فنظم هذه القصيدة في ثمان وستين بيتاً على بحر ورويّ هذا البيت، وجعل مطلعها:

يا رسول الله يا سندي توجت رأسي الخطيئات

ثم اتبع هذا المطلع بمقدمة غزلية:

هاجك اليوم المهيجات   فانهمت منك الدموعات

ذكّروك الضال فارتفعت   منــك أنـــّات ورنّــات

وصببت الدمع في طلل   سار عنه الأبطحيـــــات

سادة في بيتها شــــرف   مــن مزايــــاه الوجودات

وبعد هذه المقدمة التي بكى فيها منزل أحبته، وفاضت بذكراها عبرته، وهي منازل بطحاء مكة، حيث الأنوار المحمدية، لا منازل حلّت بها هند وأسماء، وبعد هذا الوقوف، تخلص إلى موضوعه فتحدثعن النور المحمدي، وأنه أصل الكيان، وأصل كل موجود، وذكر أن الممدوح كامل، إذ لو لا كمالته لم تكن يوماً كمالات...

ثم انتقل إلى ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم. وبعدها صرف عنان القول إلى الإشادة بالدعوة الإسلامية، ومدح الصحابة رضوان الله عليهم، فهم:

سادة غــر ملاوثــة   أحوذيـــات متينــــات

لم يبيتوا دون ثارهم   إن يكن من غيرهم باتوا

ثم تحول بعد ذلك إلى مدح مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في أسلوب فيه نوع من الصنعة الفنية. وأخيراً توجه نحو الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منه قبول شفاعة هذه القصيدة فيه. فهو حينما خانته الأيام،

ولم تتح له فرصة زيارة النبي – ذلك الحين– ولو مرة في حياته، ازفّ هذه القصيدة إليه صلى الله عليه وسلم لتزوره نيابة عنه:

زفّها صب يزيركها		حين خانته الزيارات

ومع أن بلاده شاسعة عن المدينة، ولكنه يرجو من الرسول أن يجذبه إليه، كما جذب عاصف بن برهيا عرش بلقيس، وأحضره إلى سيدنا سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه، وما ذلك على الله بعزيز استمع إليه وهو يقول:

فلتجاذبني كما جذبت		عرش بلقيس الكرامات

وهكذا استمر يبدِي شوقه وحنينه إلى الرسول، وأنه لا يزال يبكي إلى أن يحالفه الحظ في زيارة المدينة. وأخيراً استغاث باستغاثات ختمها بقوله:

عادتي ما عشت يا أملي		فيك أَبْيَات أَبِيَّات

وإذا ما عاقــني أجــل		فلتطب فيك التحيات

١٠. "فهذه أحدوثة...."[١]

تقع هذه القصيدة في تسعة وأربعين (٤٩) بيتاً، في مجزو بحر الرجز. وموضوعها الرئيسي، هو الحديث عن النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية كما اصطلح عليها الصوفية. وستكون لنا جولة–إن شاء الله– مع هذه الحقيقة، عندما نأتي إلى تحليل قصيدة "الماء المسكوب".

ومطلع هذه القصيدة هو:

فهــذه أحدوثــة		في ذكر خير المرسلين

[١] - ديوان سبحات الأنوار، المصدر السابق، ص ٤٩-٥٢

محمد خير الورى   صـــل عليــه يا أمين

وسلّمــن وتمّمن   عليــه نعمــاك المبين

ومقطعها:

صل إلهي أبدا   علـــى رسول العالمين

وآله وسلمـن   ما دامت الدنيا بدين

وقد تخلل هذا الموضوع الرئيسي بعض الموضوعات الفرعية، كالاستغاثة به صلى الله عليه وسلم، وذكر الشوق والحنين إلى زيارته بالمدينة. استمع إليه في ذلك وهو يقول:

وهـــا أنـــا منغمـس   في بحـــر ذَنْبِيَ كميـــن

كـــن لي فإني صــارخٌ   يـــا غوثــة المصطرخين

أضرَّ بي قبطي الهـــوى   وأنت موســـاي الأمين

لم أستغث بالنار للـر   مضـــا ولكـــن بالحنـون

لو لا الهوى قـد شفّني   ومضّنـــي في الضلعيـــن

لقمت شوقــا نحوكـم   أمشي على الأفق المبين

حتى أرى طيبتك الغـــــــــرا وأحـــــــدو الثقليـــن

وأخيراً تضرع إلى الله تعالى، أن يجيره من شر الزمان والنيران، وأن يمنحه الوصول واقتفاء آثار خير ولد عدنان.

١١. القصيدة المهملة[١]

وهذه القصيدة –كما تبدو للقارئ – ألزم الشاعر فيها نفسه بأن لا يأتي

[١] - المصدر السابق، ص ٥٢-٥٣

فيها بحرف منقوط. وهو ما يعرف لدى النقاد بلزوم ما لا يلزم. وهذا — مما لا شك فيه — يدل على علوِّ كعبه في هذا الميدان، إذ هي براعة قلماً تجد أمثالها لدى أدبائنا ولو في النثر، بلْه الشعر، المعروف بقيوده الخاصة.

ويقال إن هذا اللون من ألوان البديع المستحدثة في العصر العثماني التركي[1]. تقع القصيدة في إحدى عشر (١١) بيتاً في بحر البسيط. ولم يكن فيها شيء سوى المديح، اللهم إلا بعض تمنيات الشاعر التي أوردها في البيت الثالث والثامن والتاسع. افتتح القصيدة بتخصيص أعلى التحية والسلام، لأعلى رسل الله الكرام، وأفضلهم عقلاً وإسلاماً:

أعلى سلام لأعلى الرسل إعلاماً　　　وأكرم الرسل أحلاماً وإسلاما

ثم بعد ذلك واصل في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بصفاته الحميدة ومزاياه الرفيعة، فقال:

محمد أحمد المحمود حامده المملأ　　　الـــروح أســـرارا وأحكامـــاً

أحدو مدائحه عسى أحوط لهـــا　　　لدى إله الورى المعطاء إكراما

ما أرسل الله أعلى سرمــداً أحداً　　　كأحمـــد العلم المعلوم إعلاما

وختم القصيدة بقوله:

حام حماه رعاه الله أكمله　　　وصْل الملاح ولاح الراح إلهاما

[1] - راجع: شيخ عثمان كبر: "بعض الظواهر الفنية في شعر مولانا الدكتور الشيخ محمد الناصر كبر" الطبعة الرابعة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية ليبيا، ١٩٩٧م ص ٥٠، نقلاً عن "مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني" للدكتور بكري شيخ أمين ص ٢٢٢.

١٢. "تَرَكْتَ حبيباً...."

تقع هذه القصيدة في ست (٦) أبيات في بحر الطويل. وقد قالها الشيخ إثر رؤية منامية، رأي فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، يحمله على عاتقه[1]. افتتح الأبيات بقوله يخاطب المحبوب الأعظم:

تركت حبيباً طالما شفّه الهوى وقد طالما أودعته الخفقانا

فالأبيات ليس فيها ثناء ولا إطراء، وإنما فيها العشق والهيام. فلغتها ليست بلغة المادحين المتحذلقين، وإنما هي لغة العاشقين الوُلَّه.

استمع إلى قوله:

تعللني رؤياك قِدْماً ومذ ضرْت وجُـــدت بها ولّيتني الطيرانا

فتهت بها شوقاً وزدت تولّهــا وصحت صياحاً والإله يرانا

وختمها بقوله:

تبدلت لي شيخاً كبيراً ويافعاً صغيراً فأتمم لي أراك عيانا

١٣. "تمسك بأذيال النبي محمد..."

وهذه المقطعة كسابقتها في البحر وعدد الأبيات تقع في ستة أبيات، غير أن الروي والمضمون هما الفاصلان بينهما. فالشيخ هنا يوصي المخاطب ويأمره بالتمسك بالنبي صلى الله عليه وسلم، إذ لا يخيب عبد تمسك به أبدا. فقال في مطلع الأبيات:

تمسك بأذيال النبي محمد فما خاب عبد بالنبي تمسكا

[1] - مقابلة جرت بيني وبين الشيخ في مدرسته "كلية تراث الإسلام" وهي مسجلة في شريط عندي.

إلى أن قال:

هو المشرب الأهنى لمن جاء طالباً   شراباً طهــوراً بالعبير مُدَلَّكـا
لك الأمن إن قَبَّلْتَ يوماً كؤوسها   (وأنهلك المأمون منها وعَلَّكا)

وختمها بقوله:

وها أنا يا مختار جئتك شاكياً   هواي وشيطاني ونفسي وأُفّكا

وأما قوله "وأنهلك المأمون" الخ. فمأخوذ من أبيات كعب بن زهير التي أرسل بها إلى أخيه بُجَيّر يعيْره على إسلامه، حيث قال:

من مبلــغ عيني بجيراً رسالــة   فهل لك فيما قلت بالخيف هل لك
شربت مع المأمون كأساً روية   فأنهلـــك المامـــون منهـــا وعلكـــا[1]

فالشاعر الأول يتهكم في وصف النبي بالمأمون، أما الشيخ فإنه يقصد بهذا الكلام ظاهره وحقيقته التي يشير إليها. فانظر كيف أخذ عجز بيت غيره وضمنه في شعره، على المعنى الذي يريده هو، لا معنى صاحب البيت الأصلي. وهو ما يسمى "بالتضمين" عند علماء البديع.

١٤. "تفريج الغمم في التعلق بأشرف الأمم"[2]

وهذه قصيدة طويلة تقع في مائة وخمسة وخمسين بيتاً (١٥٥) في بحر المديد. اشتهرت بين الناس بـ " يا رسول الله خذ بيدي". وهي من أشهر قصائد الشيخ التي عرف بها، ومن أقدمها أيضاً، مر عليها اليوم (٢٠٠٠م) ما لا يقل عن خمسين سنة تقريباً[3].

---

[1] - المأمون: هو النبي. والشاعر يتهكم، والنهل بالتحريك. الشرب الأول، والعلل: الشرب الثاني.
[2] - سبحات الأنوار، ص ٧٤-٨٥
[3] - وقد استشهد بها البروفيسور غلادنث في حركته ص ١٨٣، أثناء حديثه عن المدائح =

أما مناسبة القصيدة أو السبب الذي من أجله نظمت، فراجع إلى رؤية مفزعة رآها الشيخ. يقول إنه رأى فيما يراه النائم، أن الحريق قد عم الدنيا، فلم يبق مكان في السماء إلا والنار تلتهب فيه. فأخذ يتجول ويتردد، وينادي بأعلى صوته: يا رسول الله خذ بيدي! يا رسول الله خذ بيدي! يا رسول الله خذ بيدي!!! فكانت هذه الرؤية سببا لإنشاء هذه القصيدة. وربما هذا هو ما دفعه إلى أن يجعل مطلعها:

يا رسول الله خذ بيدي وتداركنـــي فأنت أبي

وإلى هذا يشير في داخل القصيدة بقوله:

وإذا النيران تحـــدق بي يا رسول الله فلتجب

وقد عبّر عن هذه الرؤيا، بعد أن مرّ عليها أكثر من أربعين سنة، بأنها إشارة إلى هذه الفتن التي عمّت بالمسلمين في أمور الدين في مشارق الأرض ومغاربها، – نسأل الله السلامة والعافية في ديننا ودنيانا وحسن الخاتمة[1]–.

والقصيدة بجانب ما اشتملت عليه من الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به، فإنها مملوءة بذكر بعض حوادث في حياة قائلها. ولذلك يصعب على الدارس فهم بعض أبياتها إذا لم تكن لديه معرفة بتلك الحوادث. مثال ذلك، قوله:

النبوية لدى علماء نيجيريا في القرن العشرين. وأوردها الدكتور علي أبوبكر بأكملها في ثقافته، ص ٦١٨-٧٠٣

[1] - مقابلة جرت بيني وبين الناظم، مسجلة في شريط مجود في حوزتي.

عام فُرِّجَ عَنكِ غمة الـ	ـــوعد منكم سادة العرب
أنجزوا الموعود مجتمعاً	أترى التفريق أجمل بي
حان هذا العام مودعكم	عن ثمان من سنى الطلب
منيتي الوادي المقدس إذ	عكسه قَطْ ليس يحسن بي
في المقام الأحمدي أرى	جذيات الحق تقذف بي
الصراط المستقيم به	قَلْبِي المجروح ذو طرب
فجلوسي بين أظهركم	ساعة أحلى من الضرب

ففي هذه الأبيات يشير إلى انضمامه إلى مجلس الإفتاء في مجلس أمير كنو عبد الله بايرو. حيث إنه بعد وفاة مربيه الشيخ إبراهيم نظغني، رأى في النوم صحيفة مكتوب عليها: "لا تسفحي فُرِّجَ عَنْكِ غُمَّة". ولما استيقظ كتب تلك العبارة على غلاف كتاب "تسهيل الأماني في شرح عوامل الجرجاني" الذي كان بجانبه. وبعد مضيّ فترة من الزمن، عيّن عضواً في ذلك المجلس. وعندئذ أخذ تلك العبارة وفكّ حروفها على طريق حساب الجمّل، فظهر له أن عدد أرقامها يساوي أرقام السنة الهجرية التي عيّن فيها عضواً في المجلس. ففطن إلى أن ذلك تلميح إلى تعيينه في المجلس في تلك السنة الهجرية. ولذلك استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم. فهو يرى أن مجلس الفتوى بدون مجلس الرسول وبدون الصراط المستقيم أمر لا طائل تحته. فجلوسه بين يدي النبي صلى الله ساعة أحلى له من العسل.

وهذا كمثال واحد فقط. وهناك أشياء أخرى موجودة في القصيدة[1].

[1] - لمزيد من الإيضاح، انظر رسالة الدكتور شيخ عثمان كبر للماجستير، ص ١٦٣-١٧٠.

فالذخيرة اللغوية وحدها لا تكفي لفهم القصيدة فهماً جيداً، بل لا بد أن يتسلّح الدارس بمعرفة العلوم الإسلامية، كما ينبغي أن يكون له إلمام بعلم الفلك والفلسفة. هذا كله بالإضافة إلى الذوق الصوفي. وقديماً قال واحد منهم:

كلامنا نعرفه نحـن ومـن يعرفنـا
وإنما يجهلـه في الناس من يجهلنا

فالقصيدة تبيّن لنا جانباً من ثقافة قائلها. فلنضرب لك مثلاً آخر فيما حيث يتحدث الشاعر عن الرسول صلى الله عليه وسلم:

سيد الكونين أجمع من ذكره مـن أعظم القرب
مجمـع البحرين برزخـه كنزك المخفي أبو العجب
طلسم الأسرار منبعهـا قبضة الأنـوار جَـدُّ أبي
نقطة الأدوار محورهـا مركـز اللاعين والنسـب
رفرف الرحمـن سدرته والْهَيُولَي مـن هباه هب
عنصر الأكوان جوهرها عرض الأكوان في الحقب
هَاءُ هُوِّ الـذات عَنْبَرُهُ نُونـه المخبـوء لِلنُّوَبِ
آؤه السـاري حقيقتـه في ذراري الاسم واللقـب

فالشاعر هنا لا يخاطب العاطفة فحسب، بل إنما يخاطب العقل والعاطفة معاً. وهكذا استمر يسبح في هذا البحر الزاخر، إلى أن وصل إلى نهاية القصيدة. حيث ختمها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وأصحابه وأتباعهم. داعي أن تشمل الصلاة الناظم وأهل طريقته القادرية وآبائه وأشياخه:

وحدك اللهم صل على　　حِمَّطَايَا[1] صاحب اليلب

وعلــى الداعي وفرقتــه　　آل عــبد القادر النُّخــب

وعلـــى آبائـــه الرحمـــا　　وعلى أشــيائخه الرُّقــب

ما شدا المسكين في "كبر"　　"بكنو" يدعوك في تعب

يا رسول الله خذ بيدي　　وتــداركني فأنــت أبــي

هذا، ولا يسع القارئ إلا الرجوع إلى القصيدة ليحقق ما ذكرناه. ولكي يقف على أشياء أخرى لم نذكرها، لان المحل محل عرض لا دراسة، كما أن حقائق هذا البحث تنادينا: "إن ما تطلب أمامك"، فموضع سباحتنا – إن شاء الله – هو الماء المسكوب...

١٥. أيا برق...[2]

تحتوي هذه القصيدة على ستة وثلاثين بيتاً (٣٦) في بحر الطويل، ومطلعها:

أيا برق إما جئت نحو حمي نجد　　فأقري سلامي أنور المتجرد[3]

طلب الشيخ من البرق أن تبلغ سلامه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن تقول له ما حصل لمحبه من كدورة العيش، لأجل بعده عن مدينته عليه

[1] - حِمَّطَايَا: من أسمائه صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية المتقدمة، راجع كتاب الشفا للقاضي عياض.

[2] - سبحات الأنوار، ص ١٢٣-١٢٦

[3] - أنور المتجرد: صفة من الصفات التي جاءت الآثار بوصف صلى الله عليه وسلم بها. ومعناها أن الموضع الذي تمسه الشمس من جسمه، كان أنور من المواضع التي تسترها الثياب، خلاف المعتاد في سائر الناس.

أفضل الصلاة وأتم التسليم:

وقولي له ما طاب عيشي دونه   ولو جـــادت الدنيا علي بما تجدي
وقولي لــه إني غريـــق متيـــم   حليف أسى من شدة الحب والبعد

ثم طفق يصف شوقه وحنينه إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الأيام قد وعدته بذلك، إلا أن هذه المواعيد صارت مواعيد عُرْقُوب، ذلك الغدار الذي لا يفي بالعهد.

تواعــدت الأيام لقيــا محمــد   مواعيد عرقوب[1] ولم تف بالعهد
إلام وحتـــام التلاقي وهل لنا   بزورة مـــأواك المفـــوَّح بالـــورد
وهل تصدق الآمال واليأس كاذب   وهـــل لي قريبـاً زور مرقـد أحمد

وبعد ذلك انتقل إلى مدح الرسول والثناء عليه، بأنه صعد فوق العرش بنعليه الشريفة، وأنه رأى ربه بعيني رأسه يقظة لا مناماً، كما أنه ليس من وسع بشر أن يفي بحق مدح النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما أثنى عليه الله في القرآن.

وأنى لمخلوق بمدحـك بعدمــا   قد اثْنى عليك الذكر بالخُلق المجد
وغاية علم الخلق فيك جميعهم   بأنك إنســان الوجــود المجـــدد
وأنــك خير العالمين جميعهـــم   وفضلك لا يحصى بعدّ ولا حـدّ

[1] - مواعيد عرقوب: هو رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقال له عرقوب: إذا طلعت هذه النخلة فلك طلعها فلما أطلعت أتاه للعدة فقال: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير زهواً. فلما زهت قال: دعها حتى تصير رطباً. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمراً، فلما أتمرت عمد إليها عرقوب في الليل فجذها ولم يعط أخاه شيئاً. فصار مثلاً في الخلف، أهـ (المنجد).

إلى أن قال:

فديتك لو تفدى بأمي وجدتي　　　وبنتي وأولادي وبالأب والجد

قليل فدائي فيك لكنني امرؤ　　　مقلّ وهذا سيدي غاية الجهد

ثم توجه نحو الوشاة الذين يقولون فيه أقاويل فقال:

يظن بي الناس الظنون فقائـل　　　ضللت على ما كنت فيه من الـود

ومن قائل إني ابتدعت وقائل　　　تركت طريق الشوق والذوق والوجد

فقلت لهم كـلا دعـــوني إنني　　　أظـن بخيـر العالميـــن محمــــد

طنونا تُنَاجِيْني بـــأن ضلالتي　　　ضلالة أهــل الحـب في ذات أحمد

ولم أبتدع لكن على وفق سنتي　　　ابتدعت فنون الحب في ذات أحمد

فها أنا ضال في محبة من به　　　هداية كل العالــمين مــــــحمد

وأخيراً عاد إلى وصف شوقه وحنينه إلى زيارة طيبة – طيّب الله نفوسنا بزيارتها-. وقال إنه كلما سمع ذكر اسم النبي اهتزت أركانه، وانصبت مدامعه. فلذلك يرجو من الله أن يكفر خطاياه بمدحه للنبي المصطفى، وأن يسجل مدحه في سجل مدّاحه صلى الله عليه وسلم.

بمدحيه أرجو أن تحــط جرائمي　　　ويرقم في ديوان مدّاحــه حمدي

صلاتي وتسليمي عليه متى شدوا　　　أيا برق إما جئت نحو حمى نجد

١٦. غرّني الحلم...[1]

تقع هذه القصيدة في اثني عشر (١٢) بيتاً في بحر الخفيف. وقد افتتحها الشيخ بالتضرع إلى الله تعالى، وأنه قد غرّه حلم الله وعفوه، فوقع في

[1] - شعر الشيخ محمد الناصر ص ١٢١-١٢٢

المخالفات. إلا أنه مهما ساء حاله فإن انتسابه والْتِصاقه بالحضرة المحمدية مما ينجيه وينفعه، كما نفع كلب أهل الكهف انتسابه إليهم، فأكرمه الله كما أكرمهم. فالشيخ هنا يصف نفسه بأنه كلب قعد أمام كهف النبي صلى الله عليه وسلم:

غرّني الحلم غرّني العفو بل قد   غرّني ما يغرّ كـل العبيـد
أنا كلب لكهف طـه قعيـد   باسط للزراع عند الوصيد

واستمر يستنجد النبي صلى الله عليه وسلم ويستغيث به، وأن النبي يعرف مقصود قصيده مهما كان معقّداً، فلذلك لا يبالي إذا خفي على الغير مقصوده، فالنبي يفهم كلام كل إنسان، إذ هو مرسول إلى كل قبيلة. ولذلك فإن الشاعر لا يكترث بأن يرميه غيره بعدم الفصاحة وعدم ظهور معاني أمداحه. ففصاحة أي بيت عنده أن يكون فيه ذكر اسم الجلالة أو اسم الرسول. فمهما كان ضعف تركيب هذا البيت، فإنه هو منزل ليلاه، ومحل سجوده على مذهب العشق. والوجد. فللنقاد مذهبهم، وللعشاق مشربهم! ألم يقل البارودي:

أسير على نهج يرى الناس غيره   لكل أمرئ فيما يحاول مذهب

فلنترك المجال للشيخ يبين لنا منهجه:

بخّ إن المختار يعرف مقصـو   دقصيدي وما حوى تعقيدي
لا أبـالي إذا تجلّـى لـديـه   وتعمّـى لغيـره مقصـودي
فسواء لديـه كـل لسـان   إذ غـدا مرسلاً لبيض وسود
كل بيت فيه الجلالة أو أحمد   فالبيـت عين بيـت القصيد
هـذه هـذه منـازل ليلة   هـذه هـذه مكان السجـود

وقد قال لي الشيخ إنه يرد في هذه الأبيات على الشيخ أحمد محمد عوض، أحد الأساتذة السودانيين، الذين وفدوا إلى نيجيريا في الأربعينات القرن الماضي للتدريس في مدرسة العلوم العربية بكنو. فهذا الأستاذ قد نظم قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول بعض النّيجيريين محاكاتها. فعاهد الأستاذ نفسه على ألا يقول الشعر مدة بقائه في نيجيريا. وعلل ذلك بأنه رأى كثيراً من علماء نيجيريا مولعين بقرض الشعر، وخاصة الشيخ الناصر، والوزير جنيد سكتو. فهو يخاف من أن ينظم قصيدة، فيأخذها واحد منهما لكي يشطّرها أو يخمسها، فيكدّر عليه صفو فصاحته بعجمته!

ويا ليتنا قد حصلنا على تلك القصيدة، فيجعل النقاد موازنة بينها وبين بعض قصائد الشيخين، للتمييز بين الفضّة والقضّة!

١٧. فؤادي لحب المصطفى طه قد أنَّا...[١]

وهذه مقطعة تقع في خمسة أبيات في بحر الطويل، تحدث فيها الشاعر عن شوقه وغرامه نحو خير المرسلين صلى الله عليه وسلم. وحاول أن يأتي في كل بيت بلفظ "إنّ" مرتين أو ثلاثاً، بشرط أن يحمل هذا اللفظ في كل بيت معنى مغايراً للسابق. ومطلع الأبيات هو:

فؤادي لحب المصطفى طه قد أنَّا[٢] فقلت له يا قلبي للمصطفى إنَّا[٣]

---

[١] - شعر الشيخ محمد الناصر المصدر السابق، ص ١١٩

[٢] - أن: صوت لألم وتأوه.

[٣] - فعل أمر من أنّ

ومقطعها:

ولم يكف أنِّ في هواه متيم أهيم على وجهي إذا قيل لي أنّا[1]

أبيات متفرقات:

وهنا عبارة عن بيتين أربع مرات كلها مستقلة بنفسها. نسردها كما وردت بدون أي تعليق. اللهم إلا أن نقول إنها عبارة عن الذوق والوجد الصوفي تجاه الحضرة المحمدية، يدركها على حقيقتها من كان له مثل هذا الذوق. فلأهل كل فن عبارات واصطْلاحات. وإليك هذه الأبيات:

من لا يعرف من يدريــه فكيف يدري أحمد التنزيه

أعرف حماه تلق كل خير وكل فتح مع دفـــع ضير

***

من يحمد الله يحمد فضل أحمده لولا محمده ما لاحتَ اكْوان

من يشكر الله يشكر فضل أحمده لولا محمده ما جاء إنسان

***

من يعرف الله يعرف أحمد الله من يجهل الله يجهل أحمد الله

والله أحمـــده يدريـــه أحمـــده وربه الحـــق يدري الحق والله

***

هذا النبي هو الذي بهر الورى آياتــه

هذا النبي هو الذي بهر الأنام صفاته

[1] - أنا: أي أن ناء المحبوب أي بَعُد

وإلى هنا وصلت إلى آخر ما وقعت يدي عليه من القصائد التي مدح بها الشيخ الناصر سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم. ولم تبق إلا قصيدة واحدة المعنونة "بالماء المسكوب من سحاب المحبوب على ساحة القلوب" التي سنقوم بدراستها – إن شاء الله – في الفصل التالي.

الفصل الثالث
قصيدة الـماء الـمسكوب دراسة وتحليل

المبحث الأول: عرض أفكار القصيدة:

إن هذه القصيدة من عواتق قصائد الشيخ، وقد مر عليها أكثر من نصف قرن. وهي من بين عشرات قصائد الشيخ التي لم تكن معروفة لدى الكثير، حتى في عقر داره. وكادت أن تلعب بها يد الزمان. وتضيع بين الزحام فأنا – فيما أزعم مع كل تواضع – أول من قدمها للقراء، وذلك في أطروحتي لليسانس. وهذه هي أول مرة تظهر فيها هذه القصيدة على مسرح الدراسة جامعية كانت أو غيرها. تقع القصيدة في مائة وثلاثة وعشرين (١٢٣) بيتاً في بحر البسيط.

١.عنوان القصيدة:

لقد عنون الشيخ قصيدته هذه بـــ "الماء المسكوب من سحاب المحبوب على ساحة القلوب" ولا شك أن هذا العنوان يتسم بالطول الملفت للنظر، إذ تألف من ثلاث فروع وهي على وجه التحديد:

١. الماء المسكوب.
٢. من سحاب المحبوب.
٣. على ساحة القلوب.

هذا، وتنتهي كل جملة بسجع غير متكلف. وهذا النهج في اختيار عناوين المؤلفات النثرية والشعرية، نهج تقليدي لجأ إليه مولانا الشيخ بتطويل أكثر في كتابه الجليل.

فتح الجبار في الدخول على الملك الواحد القهار من باب الذل والانكسار الذي هو مشرب القادرية الكبار.

وإذا رجعنا مرة أخرى إلى جمل عنوان القصيدة فإن "الماء المسكوب" هو رمز لفيوضات الأنوار وتنزلات الرحمات، و "المحبوب" لا شك هو المصطفى صلى الله عليه وسلم "والسحاب" عطاؤه الروحي الذي ترتوي منه قلوب المؤمنين.

أما وصف القلوب بأنها "ساحات"، فأمر يستدعي التوقف والتدقيق، وأول ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن المقصود بالقلب هنا ليس القلب الجسماني المعروف، ولكنه القلب الروحاني الذي به نعرف الله ونتعبده ونخشاه، فهذا القلب الروحاني لطيفة ربانية تتسع وتضيق بحسب أرزاق وأعمال العباد. وهذه اللطيفة إذا خالطتها بشاشة الإيمان تتسع حتى تصير بيتاً للتجليات الإلهية. وفي ذلك يقول الشيخ الناصر أيضاً في بعض قصائده:

القلب بيت تجلى فيه خالقه   فكن على الباب حجّاباً وبوّابا

٢.شرح مضمون القصيدة:

افتتح الشيخ هذه القصيدة بقوله:

ماذا أقول وقولي فيك مقتصر   يا سيدا طاب فيه الفكر والذكر
أثنى عليك إله العرش خالقنا   بأحسن الخُلْق ماذا يذكـر البشر
يكفيكم شرفا مـــالا أسطّره   من المحامد إذْهُ ليــس ينحصـــر

نلاحظ أن القصيدة بدأت بالإستفهام الذي يراد به النفي، لأن المقام مقام حيرة واعتراف بالعجز والتقصير، وإلا فمن يحصى شمائل المصطفى ومكارم الأخلاق التي جاء ليتممها؟ فمهما وصفه الواصفون فإنه فوق ما يتصورون. والفرق بين ثنائنا عليه وبين ثناء الرب، هو الفرق بين الخالق والمخلوق. ولا سبيل لردم هذه الفجوة. فالخالق مطلق والمخلوق محدود.

يرى الشيخ الناصر رحمه الله – وهو محق فيما ذهب إليه – أننا مطالبون بالجمع بين الذكر والفكر في تعاملنا مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فنحن بإزاء سنته الغراء في فهم وتأمل وتفسير وتطبيق ولا يستقيم أمر الدين إلا بالتفكر والتذكر، بالعلم والعمل ون ثم يصف الشيخ الناصر نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه "سيد طاب فيه الفكر والذكر"، أي الاجتهاد والمتابعة معاً. ومعنى آخر هو أن الشيخ يشير في عجز لمطلع هذه القصيدة إلى المتعة الروحية التي يجدها عند نداء اسم الرسول أو عندما يجول خياله في الذات المحمدي وفكره. كما يقول في بائيته:

ربما أبكي إذا ذكرت لفظة تعنيك في الكتب

فكم من عاشق زالت همومه عند سماع ذكر محبوبه! والله در القائل:

أيا حادي القلوب قم ودندن بذكراه فما أحلى شذاه

أما البيت الثاني من القصيدة فإنه يشير إلى سورة القلم، حيث يقول الحق عز وجل مخاطباً حبيبه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم " وإنك لعلى خلق عظيم"[1]. ويرى صاحب البيت بحق أنه لا ثناء فوق ثناء الخالق

---

[1] - سورة القلم:٤

عليه، وأن الخلق مهما أثنوا عليه فهم لن يوفوه حقه وما هو أهل له. ولا يعرف محمداً صلى الله عليه وسلم على حقيقته إلا الله!

يقرر الشاعر في البيت الثالث أن شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلقية ومكارم الأخلاق التي تجسدت في سلوكياته لا تقبل الحصر ولا الاستقصاء، إذ أن معينها ما له من نفاد، ولا انتهاء ولا انقضاء لكمالاته وجلالاته وجمالاته صلى الله عليه وسلم. وقول "مالا أسطره" تعبير عن عجزه؛ بل عجز البشر كافة عن القول الشافي في الرسول الكافي صلى الله عليه وسلم. وهذا يشبه ما جاء في بردة الإمام البوصيري رضي الله عنه:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم[1]

وقول الشاعر السوداني الشيخ قريب الله أبا صالح رحمه الله:

وحاصل الأمر أن المصطفى بشر لكنه في الورى ما مثله بشر[2]

ويلجأ الشاعر في البيت الثالث إلى حذف الواو من ضمير الهوية "هو" فيقول طوعاً للضرورة الشعرية "إذه ليس ينحصر" يعني أن محامده لا تنحصر، إذ هي بحر لا ساحل له.

استمر الشيخ في سرد فضائل المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال:

كم آية أفصحت عن قدر رتبتكم وإن كل الورى من فخرك افتخروا

أنت المعـدّ لكل النائبـات فـلا لها سواكم خصوصا يوم يُحتشر[3]

[1] - البردة للإمام البوصيري،. الطبعة الأولى (مكتبة الصفا- القاهرة ١٩٩٩م) ص١٢

[2] - ديوان رشفات المدام الشيخ قريب الله أبي صالح،. دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٠) ص١٩٦

[3] - وفي نسخة (أ) "نحتشر" بالنون

أنت الإمــام وكــل العالمين أجل   فتابــع لكــمُ يا أيهــا القمــر

أنت السميدع والأملاك رمّتــها[1]   في كفكــم تنتهــي بكــم وتأتمر

وأنت سيــد كل الخلق أجمعهــم   طوبى لمن بحماكــم كان ينتصــر

لقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم أفصحت وبينت عظيم قدر المصطفى وشريف منزلته وحظوة رتبته صلى الله عليه وسلم. فالقرآن مملوء بالثناء عليه صلى الله عليه وسلم وعدّ محاسنه وتعظيم أمره والتنويه قدره. نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[2]. وقوله: "من يطع الرسول فقط أطاع الله"[3] وقوله: "ألم نشرح لك صدرك"[4] إلى آخر السورة. وقوله: "إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً"[5] وقوله ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبينا﴾ إلى قوله ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[6]. وقوله ﴿لقد جاءكم ... إلى آخر السورة﴾ والآيات في هذا الباب أعلى وأعظم من أن نحيط بها ذكراً، وإنما أشرنا إلى هذه كمثال فقط[7].

فالشاعر هنا يريد أن يؤكد ما قد قاله في البيت السابق، بأن الله تعالى نفسه هو الذي بدأ مدح حبيبه صلى الله عليه وسلم في القرآن. لذلك فإن

---

[1] - يقال: أعطاه الشيء برمته أي بجملته. "المنجد"

[2] - سورة الأنبياء: ١٠٧

[3] - سورة النساء: ٨٠

[4] - سورة: الشرح١

[5] - سورة الأحزاب: ٤٥-٤٦

[6] - سورة الفتح: ١-١٠

[7] - وقد عقد القاضي عياض باباً في كتاب "الشفا" تحدث فيه عن ثناء الله تعالى على النبي وإظهاره عظيم قدره لديه، وجعل هذا الباب فاتحة أبواب هذا الكتاب. راجع كتاب الشفا ج١، ص١٣-٥٤. دار الفكر بيروت ١٩٨٨م.

ما يقوله لا يعتبر شيئاً بالنسبة لما قاله خالقه فيه. فمدّاح النبي صلى الله عليه وسلم إنما يقتدون بالخالق في هذا المجال.

إن النبي صلى الله عليه وسلم هو المعدّ لجميع المصائب والأهوال وخصوصاً يوم القيامة، يوم الحشر، في يوم تدنو الشمس إلى جماجم الناس، ويوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. يوم يبلغ الناس فيه من الغم والكرب ما لا يعرف مقدارها. فلا يزالون ينتقلون بين صفوة رسل الله. وكل واحد يعتذر لهم بمثل اعتذار سيدنا آدم إلى أن يحيلهم سيدنا عيسى عليه السلام على الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم، فيقبلهم ويقول "أنا لها أنا لها" ويشفع فيشفعه الله تعالى فيهم. وكان يمكن أن يأتيه الناس أولاً، ولكن الله تعالى ألهمهم الذهاب إلى سادات الرسل أولاً حتى يظهر فضله صلى الله عليه وسلم عليهم. وأنه هو سيد الخلق على الإطلاق، وأحب الرسل إلى الملك الخلاق. وأكد الشاعر بأن هذه السيادة لم تقتصر على الإنس، بل شملت حتى الملائكة، فهم في ذلك اليوم يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه. وهذا الذي ذكره الشاعر لم يأت به من عندياته، وإنما وردت به النصوص الشرعية.

وقد جاء ذلك صريحاً في حديث البخاري ومسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم "أنا سيد الناس يوم القامية"[1] إلى آخر حديث الشفاعة

---

[1] - شواهد الحق في الإستغاثة بسيد الخلق: الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني. الطبعة الرابعة (مطبعة مصطفى الباب الحلبي – مصر ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م) ص ٥٤ هذا، وقد خص الشيخ النبهاني في هذا الكتاب فصلا ذكر فيه أربعين حديثاً في شفاعته صلى =

المذكور فيه التجاء الناس إلى سادات الأنبياء. وحق لصاحب هذا المقام أن يكون سيد الأمم، وطوبى لمن انتصر بحماه من العرب والعجم.

والجذع حنّ لكم والبدر شُق لكم   والفتْح كان لكم والذكر والظفر
والرعب يمشي أمام الجيش ينصركم   وخلفكم مثله يا نعم منتصر
ساء صباح الأولى يقلونكم أبداً[1]   وسيفكم ليس يقتصر ولا يذر[2]

لم يزل الشيخ في ذكر فضائل النبي ومزاياه، وخصائصه ومعجزاته فلذلك أتانا في هذه الأبيات بأمثلة من معجزاته صلى الله عليه وسلم التي تعرب عن عظيم منزلته وعلوّ درجته عند ربه. فذكر لنا حنين الجذع، وانشاق القمر، والفتح، والنصر بالرعب.

أما حنين الجذع فقد جاء في الآثار أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم عليه عند الخطبة فلما صنع له المنبر تركه، فسمع الناس لذلك الجذع صوتا كصوت العشار، حتى ارتج المسجد بخواره، وكثر بكاء الناس لما رأوا به، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت... وكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه[3].

الله عليه وسلم يوم القيامة وما يناسبها من فضائله التي اختص بها – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

[1] - يقلونكم: يبغضونكم.

[2] - في نسخة (ب) "يبقيهم" "مكان" "يقتصر"

[3] - راجع كتاب الشفا: للقاضي عياض ص ٣٠٥

وأما انشاق القمر فقد حدث لما سأله صلى الله عليه وسلم أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشاق القمر. فنزلت ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ وهذه المعجزة ثابتة في الصحيح، ذكرها البخاري وغيره[١].

ويلي انشقاق القمر في ترتيب الشاعر، الفتح، والمراد به الفتح المذكور في قوله تعالى في أول سورة الفتح: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ إلى قوله ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ وهو فتح مكة وغيرها كخيبر والطائف الخ..

وأما النصر بالرعب فهو كما جاء في حديث البخاري ومسلم، أنه صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت مفاتيح الأرض....." الحديث[٢]. فالنبي صلى الله عليه وسلم إذا توجه نحو ناحية غازياً، فإن الله يلقي الرعب في قلوب أولئك الكفار الذين توجه نحوهم. وإذا حلّ ديار هؤلاء الأعداء، فساء سباحهم، إذ أن سيف النبي صلى الله عليه وسلم باتر على أعداء الله تعالى وهو صلى الله عليه وسلم لا يكسل ولا يتوانى في الجهاد.

يا نعم سيدنا يا نعم ملجؤنا   يا سيدا ما لنا كمثله بشر
طبت المكان[٣] فلا مكان يشبه   هما العرش ما الكرسي مالأفلاك ما الدرر؟
جُزْتَ الكيَالَ جزافاً لست متزناً   بل شعرة منكم طالت أولى ذكروا[٤]

---

[١] - نفسه، ص ٢٨٠-٢٨٥

[٢] - مختار الأحاديث النبوية: السيد أحمد الهاشمي (الطبعة الثانية عشر. دار الفكر بيروت) ص ٢٤.

[٣] - وهذا خلاف القياس، إذ التمييز لا يجعل عليه "آل"، وهو على حد قولهم: "وطبت النفس يا قيس عن عمر"

[٤]- في ب: "طالت الأولى"

الله فضلكـــم الله شرفكـــم الله مجدّكـم يا خيـر مـــن غبــــروا

الأصل أصلكمُ والعلم علمكم والفخـر فخركم إذا الـــورى افتخروا

شأوت كـل نبي كان مستبقاً في حلبـة العلـــم حقا لست تحتصر[1]

اختارك الله للعليـــا وغيركـــم ذرات جوهـرة من ظهرك انحدروا[2]

إنه الرسول صلى الله عليه وسلم، نعم السيد ونعم الملاذ، فإن البشرية جمعاء لم تعرف سيدا مثله صلى الله عليه وسلم. كما أن المكان الذي حوى جسده الشريف قد فاق جميع الأمكنة من الفرش إلى العرش، وليس من وسع أحد أن يعرف قدره صلى الله عليه وسلم لا بالكيل ولا بالوزن، لأن شعرة واحدة منه ترجح جميع أهل الفضائل الذين ذكروا إذا وضعوا في الميزان. وهذا الفضل فضل من الله فهو الذي شرفه ومجده، وجعله خير الأولين، فهو أصل الأصول، وجميع العلوم كانت منبثقة من علمه. قال الله تعالى في حقه (وعلمك ما لم تكن تعلم) فالفضل يبدأ لله سبحانه وتعالى كما ذكر القرآن الكريم (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) وأشار إلى أنه أعطى الفضل العظيم له صلى الله عليه وسلم. وهذا المعنى موافق لقول البوصيري:

وإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

إذا افتخر الناس بالحسب أو بالنسب أو شيء آخر، فإن فخره صلى الله عليه وسلم مجسّد في ذاته. لأن عظمته عليه الصلاة والسلام ليست

---

(١) - شأوت: سبقت: الحلبة: الخيل تجمع للسباق.

(٢) - وفي نسخة (ب): (اختارك الله للعليا فصرت لها أهلا وغيرك لا... ولا مدر) بدون وضوح الكلمة المحذوفة في العجز.

مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها، ولا من سمو حسبه ونسبه فقط؛ بل من جلال شخصيته وكمال خلقه وسعة أفقه وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل، اختارته العناية الإلهية من بين الخلق. وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام قال: "إن الله خلق الخلق فجعلني في خير فرقتهم... فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً"[1] فآباؤه هم الذين يتشرفون بخروجه منهم. ولله در القائل:

يا من لآدم بان سابق فضله   وسما به في الحشر إبراهيمه

لقد سبق النبي صلى الله عليه وسلم كل الأنبياء الذين أتوا قبله فلم يدانوه في ميدان العلم والمنزلة والمعرفة والله هو الذي اختاره للعلياء، وغيره بالنسبة له كذرات جوهرة انحدروا من ظهره – الجوهر الفرد – وهي الذرات التي لا تقبل الانقسام لصغرها، وإذا حاولت تقسيمها فإنها تصير إلى الفناء والعدم. فكما أننا انحدرنا من ظهر آدم في "عالم الذّر" عند أخذ الميثاق[2]، فكذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أبو الكل ومنبع المكارم والعلى، وجميعها منحدرة منه.

اختـــــارك الله للأنبـــاء.......فكنـــت مبتدأ ليـــس لــه خبر[3]

[1] - محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل: السيد محمد بن علوي المالكي، الطبعة الرابعة (مطابع الرشيد المدينة المنورة ١٤١١هـ-١٩٩٠) ص ١٤،

[2] - انظر حاشية الإمام الصاوي عند تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف "وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم "الآية المجلد الثاني، ص ١٠٦-١٠٧. (دار الفكر – بيروت ١٩٧٧م) لمزيد من البيان حول هذا العالم وما جرى فيه.

[3] - لم تظهر كتابة هذا البيت في النسخة الأصلية التي نقلت منها القصيدة. والمكتوب هنا منقول من نسخة (ب)

فإنك الأصل في كل العوالم لمتزل تنَزَّل عن أظلاك الأثر[1]

أن العروش وأنت الكرسي يا سندي وأنتم اللوح والأقلام تقتدر

أنت السموات أنت الأرض أجمعها وأنت من نشرك الأنام تعتطر

أنت الإمام الذي عمّ الأنام نعم في كل حال لأنت الناشر العطرُ

يقرر الشاعر في هذه الأبيات بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو أصل كل العوالم. من العرش، والكرسي، واللوح المحفوظ، والقلم الذي يكتب به الأقدار، والسماوات، والأرض، كلها منه صلى الله عليه وسلم. أي أنها خلقت من نوره. في هذا يساير الشاعر ركب إخوته الصوفية الذين لم يزالوا يرددون هذا المعنى في أشعارهم منذ قديم الزمان. واشتهرت القضية عندهم "بالحقيقية المحمدية" أو "النور المحمدي". وقد تحدث عبد الحكيم حسان عن هذا الموضوع، وأطلق عليه اسم "النظرية" وقال: إن الحلاّج هو أول صوفي مسلم قال بها، وعقد لها فصلاً في كتابه (الطواسين)، إلا أنها غير واضحة في شعره[2]. ثم بين منحاها عنده، بأنها نظرية تقول إن نور النبي صلى الله عليه وسلم هو مصدر الخلق جميعاً فعنه صدرت الموجودات، وأن "أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت"، وقد حاول هذا الأستاذ إرجاع هذه النظرية – على حد قوله – إلى أصل مسيحي وبالتالي إلى الفلسفة اليونانية. كما أن الدكتور الطاهر محمد على البشير قد أسهب

---

(1) - وفي "ب": (إذ نورك الأصل في كل العوالم لم/تزل تنزل عن آثارك الأثر)

(2) - التصوف في الشعر العربي: عبد الحكيم حسان، ص ٣٤٦ و٣٧٣ – ٣٧٣. (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٤م)

كثيراً حول هذه النقطة[١] في كتابه "الأدب الصوفي السوداني"، إلا أنني لا أوافقهما على حلاّجية هذه القضية – وإن كنت لا أقول بقدم النور المحمد – فالحديث عن النور المحمدي أمر سبق الحلاج لوروده في الحديث النبوي الشريف.

"روى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال: يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنّي ولا إنسيّ. فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم ومن الثاني اللوح ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين. ومن الثالث الجنة والنار..." الحديث[٢]. فلا سبيل إلى إسناد الأمر إلى الحلاج، أو إلى المسيحية أو الأفلاطونية الحديثة.

قد شقّ من اسمه الرحمـــن خالقنا	لك الأسامي كَأَنْكَ[٣] لم تكن بشر
وقد أتاك قـــراناً يا لـــه عجبـــاً	لأنتـــم بشـــر ما مثلكـــم بشـــر
لله مكته العظمى لقـــد شرفت	بكعبـــة القدر هذا الكعبة النشر

[١] - أنظر الأدب الصوفي السوداني: الدكتور الطاهر محمد على بشير، الطبعة الأولى (دار الفكر/الدار السودانية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م) ص ٢٥٣-٢٦٠.

[٢] - الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية: "الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، (مكتبة الحقيقة استنبول ١٩٨٥م) ص ١٣

[٣] - كأنّك: لغة في كأنّك

إني تعجبت هل هي التي نسكت　　بالسعي والوقف والطواف تفتخر
فإن يكن هو فالأقدار جارية　　والعبد راض بما يقضيه مقتدر
وإن تكن هي لا غرو ولا عجب　　فالرب رب وهذا الثيب منهمر[1]
يا ظبية طبت قدراً فافخري أبداً　　قد طاب نشرك والإفضال مشتهر

لقد بلغ من عظيم منزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه وكرامته له أن شق له اسمه من اسمه تعالى، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وشق له من اسمه ليجلّه　　فذوا العرش محمود وهذا محمد

كما أعاره طائفة من أسمائه. كالرؤوف، والرحيم، والحق، والمبين وغيرها. قال تعالى: (بالمؤمنين رؤوف رحيم)، وقال أيضاً: (حتى جاءهم الحق ورسول مبين)[2].

وإضافة إلى ما سبق، فإن الله سبحانه وتعالى قد أعطى حبيبه صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم الذي أعجز السابقين واللاحقين من الانس والجن وغيرهم. ذلك الكتاب الذي بهرت آياته الثقلين ولا تزال معجزاته باقية على مر الليالي والأيام. وأي عجب أعجب من هذا؟ أيكون من خص بهذه الفضائل والمزايا بشر كسائر البشر؟

فحاصل الأمر أن المصطفى بشر　　لكنه في الورى ما مثله بشر

لله درّ مكة المكرمة حيث شرفها الله تعالى بالعزّ والمجد، وهو وجود النبي صلى الله عليه وسلم فيها، الذي كان كعبة القصّاد والمفوّح شذا عرفه

---

[1] - الثيب: ثاب الماء: اجتمع في الحوض. انهمر: انسكب وسال. "المنجد"

[2] - عدّ القاضي عياض له ثلاثين اسماً من هذا القبيل في كتاب الشفا. وكل هذه الأسماء استخرجها من القرآن الكريم. انظر الجزء الأول ص ٢٣٥-٢٤٣

للعباد. فهو كعبة القدر، لأن من معاني "الكعبة" كل ما ارتفع وعلا. فلذلك كان الشاعر متعجباً ومتحيراً، فلا يدري هل النبي صلى الله عليه وسلم هو الكعبة المتعبّد بالطواف حولها والسعيّ بين الصفا والمروة في رحابها، أم ذلك البيت المربع؟ فالكل ممكن ومقاديره تعالى لا حدود لها، كما ان مواهبه لا تزال منسكبة مدى الأزمان. فليس أمام العبد إلا التسليم بما جرت به المقادير. ثم وصف النبي صلى الله عليه سلم بالظبية، وأنه من حقه أن يفتخر على جميع الأنام، لما ناله من القدر العظيم، والفضل الجسيم، المشتهر بين العالمين. ووصفه بالظبية لجامع الجمال بينهما على الاستعارة المقلوبة. لأن جماله صلى الله عليه وسلم لم يزاحمه فيه أحد.

وبعد هذا، شرع الشيخ في وصف منازل محبوبه صلى الله عليه وسلم، فقال:

أفدى بروحي بقاعاً ذات طالعة ... طوالع السعد فيها الدهر تَزْدهر[١]

حيث الصحابة والأنوار طالعة ... والصاحبات وحيث العلم يزدخر[٢]

حيث النزول وحيث الوحي حيث إذا ... ضاق الخناق ترى الآساد تجتئر[٣]

حيث الجهاد إذا ما شنّ غارته ... تختال بدراً تبوك ما لها أُزُرُ[٤]

حيث التسابيح والأذكار دائمة ... حيث التلاوات والترتيل والذكر

حيث الوقار وحيث الشمل مجتمع ... وحيث كل الأماني حيثما العِبَرُ

(١) - الطالع: الهلال، والطوالع عند أصحاب الفأل: ما يتفائل به من السعد أو النحس بطلوع الكواكب

(٢) - طالعة: ظاهرة: يزدخر: يفيض

(٣) - الخناق: خنقه: شدّ على حلقه حتى يموت. تجتئر: تصيح

(٤) - شن الغارة عليهم: وجهها عليهم من كل جهة. تختال: تتبختر

حيث الرضاء مع الغفران مقترن حيث الهناء وحيث الذنب مغتفر

حيث الأحاديث مرفوع أساندها حيــث الأوامــر بالإخلاص تأتمر

حيث المناكر لم يعرف لهــا أثرٌ وحيث تُنْتَهَزُ الآصــال والبُكَــرُ

حيث الوفود مع الأفراح وافـدة وحيثما حســن الأخلاق مصطبر

حيث العدالة بالتبريز ظاهـــرة وحيثما الزهــد والإيثــار تستفر

حيث الحقائق بالتحقيق طافحة حيثُ الشموس مع الأقمار تستفر[1]

يفدي الشيخ بروحه أماكن لها طالع من طوالع السعد الذي يتفاءل بالخير فيها طول الدهر، وهي أماكن يسكنها صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتظهر فيها الأنوار ويتفجر فيها العلم. إنها أماكن نزول الوحي، وهي منازل تزأر فيها الأسود إذا حمى الوطيس وبلغ السيل الزبى، وهؤلاء الأسود هم الصحابة الذين مهما اشتد الأمر فإنهم لا يتوانون ولا يخجلون، بل تسمع لهم زئيراً كزئير الأسد إظهاراً لشجاعتهم. في تلك الأماكن يُهيأ الجهاد وتشن غارته، وهذه الغارة تتبختر وتميس، سواء حال كونها غزوة بدر التي سجلت النصر الخالد للإسلام والمسلمين، أو غزوة تبوك التي قاسى فيها المسلمون الضنك ووعثاء السفر حتى سميت بجيش العسرة. ففي كل هذه ترى هذه الغارة معتزة ومفتخرة بنفسها، عارية من الإزار. أي إن عزة هذه الغارة كامنة في نفسها وفي بسالة الجنود الذين تكوّنت منهم، وفي ثقتهم بالله لا بالعدد والسلاح، فهي تختال بشرف نفسها لا بالإزار الذي تلبسه. إذا فعزتها ذاتية لا عرضية.

[1] - طافحة: ممتلئة

إن منازل طيبة منازل لا تزال دائماً معمّرة بذكر الله تعالى، بالتسبيح، والتهليل، وقراءة القرآن. يسودها الوقار، وجمع الشمل، والعبرة والهناء، وغفران الذنوب مع رضوان الله؛ بل هناك يُحصل على كل الأماني. كما قال قائلهم:

رحيلا رحيلاً يا عصاة لطيبة فإن الأوزار تُرْمَي عن الظهر

في تلك الديار تروى الأحاديث الشريفة وترفع أسانيدها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وهناك يؤمر بالإخلاص في الأعمال فتُمْتثل هذه الأوامر. فلم تعرف المناكر سبيلها إلى تلك الديار، إذ هناك تنتهز الأوقات جمعيها في طاعة الله، غدوها ورواحها. كما أن في تلك العرصات المقدسة كانت تفد الوفود[1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكانت سنة تسع للهجرة تسمى سنة الوفود. قال ابن إسحاق: "لما فرغ عليه الصلاة والسلام من تبوك وأسلمت ثيف وبايعت ضربت أي سارت إليه وفود العرب من كل وجه فدخلوا في دين الله أفواجاً[2]. ومن بين تلك الوفود، وفد عبد القيس وهي قبيلة كبيرة يسكنون البحرين، ووفد الأشعريين، وأهل اليمن وهم وفد حمير. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقدم عليكم قوم هم أرقّ منكم قلوباً" فقدم الأشعريون فجعلوا يرتجزون:

غدا تلقى الأحبة محمداً وحزبه

[1] - والوفد كما قال النووي: الجماعة المختارة للتقدّم في لقيا العظماء. (الأنوار المحمدية للنبهاني، ص ١٧٨)

[2] - المرجع السابق، ص ١٨٠

وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: "جاء أهل اليمن هم أرقّ أفئدة وأضعف قلوباً. الإيمان يمان، والحكمة يمانية..."[1].

إن من سمات سكان هذه الرِّباع وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حسن الأخلاق، التي منها الصبر، والعدالة المشتهرة بين الناس، والزهد في الدنيا، وناهيك مثالاً في هذا أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يلبس ثوباً مرقّعاً ويقيل في العراء تحت الشجرة، ويزجر زوجته في الخلوة رآها في داره، مع أنه فتح كنوز كسرى، وبيت مال المسلمين تحت أمره ونهيه! وهو قد اقتبس هذا الزهد من الرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك من سماتهم الإيثار على النفس. قال تعالى في وصفهم: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)[2]. وخير مثال في هذا ما حدث يوم اليرموك في قتال المسلمين مع الروم، فإنه بعد أن انجلت تلك المعركة عن ذلك النصر المؤزر للمسلمين كان يتمدّد على أرض اليرموك ثلاثة مجاهدين من الصحابة أثخنتهم الجراح هم: الحارث بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، فدعا الحارث بماء ليشربه فلما قدم له نظر إليه عكرمة فقال: إدفعوه إليه، فلما قربوه منه نظر إليه عياش فقال: ادفعوه إليه، فلما دَنَوْا من عياش وجدوه قد قضى نحبه، فلما عادوا إلى صاحبيه وجدوهما قد لحقا به. رضي الله عنهم أجمعين، وسقاهم من حوض الكوثر شربة لا يظمأون بعدها، وحباهم خضراء الفردوس يرتعون

---

[1] - نفسه ص ١٨٣

[2] - سورة الحشر، الآية ٩

فيها أبدا[1] ويلحقنا بهم بفضله ورحمته وكرمه وبجاه محمد صلى الله عليه وسلم.

إن منازل طابت منازل ممتلئة بعلم الحقيقة، وهناك تظهر شموس الهدى مع أقمارها.

حيث الجمال وحيث الحسن ناصعه حيث الرشاقة والإبلاج والحـور[2]

قد طاب أصلا وفرعاً كان محتـــده عدنـــان مدركـــة إلياســـه مضر

إبليس لو اجتلى مـــن نـــور طلعته لكـــان أول من يعنـــو ويعتفـــر[3]

لولاك ما سجد الأملاك يا سندي ولا أتـــى آدم ولا أتـــى بشـــر

لولاك لم يخلق الجنـــان يا سنـــدي والنـــار لـــولاك مـا كان لهـا أثر

لـــولاك لا نجـــم لا أفلاك دائـــرة يا علـــة الكـــون تستجلي وتستتر

أنت المحيـــط فـــلا شيء يفوتكم أحطت بالكون علما ليس يحتظر

إن العلوم وإن طالت وإن عظمت في جنب علمك شيء ليس يدّكر[4]

توجه الشيخ نحو المحبوب الأعظم صلى الله عليه وسلم في وصفه للمدينة، فأشار إلى بعض صفاته الخلقية كالرشاقة، وبلج الوجه، ودعج العينين... فالمدينة هي مأوى كمال الجمال البشري، والنبي صلى الله عليه

---

[1] - صور من حياة الصحابة. دكتور عبد الرحمن رأفت الباش، ج٢، الطبعة الأولى (وزارة المعارف المملكة العربية السعودية ١٤٠٠/٩٩هـ، ص ٦٨-٧٠

[2] - الناصع: الخالص الصافي. رشق الغلام: كان حسن الغد لطيفه. حورت العين: اشتد بياض بياضها وسواد سوادها، فهي حوراء وصاحبها أحور والجمع حور. البلج: أي إشراق الوجه، أو افتراق الحاجبين.

[3] - يعنو: يخضع ويذل. وفي نسخة ب "يفتغر مكان"

[4] - في نسخة ب: "يذدكر" "مكان يدكر"

وسلم أجمل مخلوق نسجته القدرة الإلهية. ولله در حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث يقول:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خُلقت كما تشاء

ويقول البوصيري:

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

قال القرطبي: "لم يظهر لنا تمام حسنه صلى الله عليه وسلم، لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته صلى الله عليه وسلم"[(١)]

"والإشادة بجمال النبي صلى الله عليه وسلم وحسنه ليست من الفضول، كما يتوهم بعض الناس، فإن فن المديح يوجب هذا اللون من الوصف، وقد عرض الصفدي في شرح لامية العجم إلى هذه المسألة فقال "وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح، وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده[(٢)]"

أضف إلى ذلك أن الآثار هي التي جاءت بوصف جماله صلى الله عليه وسلم، ولذلك مواطن في كتب الحديث، وقد خص القاضي عياض لذلك بابا في الشفا.

وبعد هذا انتقل الشاعر إلى الحديث عن نسبه صلى الله عليه وسلم بأنه أشرف الأنساب وأطهرها، فأصوله طيبة، وفروعه طاهرة مطهرة وطباعه

---

(١) - المدائح النبوية في الأدب العربي، دكتور زكي مبارك، (مصر؛ مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م، ص ٣٦

(٢) - الأنوار المحمدية: الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، ص ١٩٤

حسنة، وآباؤه أفضل الآباء. وقد جاء في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم[1]. ثم ذكر الشاعر أربعة من فرائد سلك هذه السلسلة الجوهرية. وهم: عدنان، ويقال إنه عاش في زمن سيدنا موسى عليه السلام. ومدركة، واسمه عمرو وكنيته أبو هذيل، وقيل سمي بذلك لأن إبله رأت أرنباً ففرت فأدرك عمرو الإبل فلذا سمي مدركة، وإلياس، وهو أول من أهدى البدن إلى الرحاب الحرمية، ويقال إنه كان يسمع من صلب إليايس تلبية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المعروفة في الحج، وكان في العرب مثل لقمان في قومه. ومضر، واسمه عمرو ولقب بمضر لأنه كان يحب اللبن الماضر أي الحامض، وقيل لأنه كان يمضر القلوب الناظرة إليه أي يأخذ بها، وما رآه أحد إلا أحبه لحسنه وجماله، وكان أحسن الناس صوتا[2].

إن إبليس اللعين – عصمنا الله من شره – الذي تكبّر وتجبّر عن السجود لسيدنا آدم عليه السلام، لو نظر إلى نور طلعة النبي البهية لأثر فيه ذلك النور، وكان أول من يخضع ويمرّغ وجهه في التراب، ولكان شأنه شأن صويحبات زليخاء لما رأين سيدنا يوسف عليه السلام. فالنبي صلى الله عليه وسلم:

---

[1] - محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل: السيد الدكتور محمد بن علوي المالكي، ص ١٤

[2] - مدراج الصعود إلى اكتساء البرود: الشيخ محمد نووي البنتني، الطبعة الثالثة: (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م، ص ٧

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخبر

فهو السر في أمر الملائكة بالسجود لآدم لأنه يحمل نوره في ذلك الحين، وأنه صلى الله عليه وسلم سينحدر من صبله، بل إنه هو السر في وجود آدم وذريته، ولولاه لما خلق الله الجنة ولا النجوم ولا الأفلاك. فهو صلى الله عليه وسلم علة هذا الكون، وهو المحيط الذي أحاط علمه بعلوم الكون، وإن جميع علوم المخلوقات مهما عظمت فإنها إذا قيست إلى جنب علمه صلى الله عليه وسلم لم تكن شيئاً يعبأ به. فالشاعر في هذه الأبيات يعيدنا مرة أخرى إلى موضوع "النور المحمدي" أو "الحقيقة المحمدية" التي سبق أن تحدثنا عنها في أوائل شرحنا لأبيات هذه القصيدة[١].

أسرى بكم ليلة الإسراء خالقكم   ما لا يذاع لمخلوق فيستطر

رأى هناك من الآيات يا عجباً   لكي يرى ما يراه قلبه البصر

فَخُصَّ ثَمَّ بأسرار مكتّمة   ليست تحاط بتعداد فتنحصر

رقى على العرش بالنعل الشريفة فاز   دهت لما قد علاها القادم النّضرُ[٢]

من بعدما أمَّ بالأنباء سيدنا   وهو المقدم وهو الدر والغرر[٣]

لم يزل الشيخ في ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، فهو في هذه الأبيات يشير إلى تخصيصه عليه الصلاة والسلام بخصائص الإسراء والمعراج، وما أكرمه الله به في حضرة التقريب بالمكالمة والمشاهدة. فقال إن

---

[١] - خرّج السيد محمد بن علوي المالكي بعض الأحاديث التي تشير إلى هذا المعنى في كتابه: (مفاهيم يجب أن تصحح) ص ٤٦-٤٧

[٢] - ازدهى: طرب وافتخر، النضر: الحسن الناعم.

[٣] - وفي نسخة ب :"وهو الدرر الغرر"

الله تعالى قد أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وفي هذا الإسراء من الفضائل والأسرار ما لا يذاع وينشر لأي مخلوق، فأحرى أن يدوّن ويسجّل في الكتب. وهناك رأى من آيات ربه الكبرى، فرأى بصره ما يراه قلبه، حيث رأى ربه بعيني رأسه. وقد ذكر الإمام السيوطي في تفسير الجلالين عند تفسير قوله تعالى في أول سورة الإسراء "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً" الآية، ذكر أنه روى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت ربي عز وجل"[1]. فهناك دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، في مقام كان فيه جبريل ناء والحبيب مقرّب، فخص بأسرار مكتومة لا تعد ولا تحصى؛ أجل! لابد لهذه الخلوة من سر لا يذاع، ورمز لا يشاع... فأوحى إلى عبده ما أوحى...، أنظر إلى قوله: "..ما أوحى.." ألم يكن في هذا الإبهام ما يشعر بهيبة الموقف وجلالته؟ وأين قول البوصيري: "ومن علومك علم اللوح والقلم" من هذا؟ إنها علوم وأسرار لم يقف عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل! وان من بين التكريم الذي لاقاه الحبيب المصطفى في تلك الليلة، أنه داس العرش بنعله الشريفة، فطرب العرش وافتخر بذلك! في حين أن سيدنا موسى قيل له: "اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى!" وقد حصل كل هذا بعد ما أم النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في الصلاة، في البيت المقدس قبل عروجه إلى السماء. وخصوصية تعوده صلى الله عليه وسلم على العرش أثبتها ابن القيم الجوزية في الجزء الرابع من كتابه بدائع الفوائد[2].

---

[1] - تفسير الجلالين، (دار الفكر – بيروت ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ص ٢٠٠

[2] - انظر: مفاهيم يجب أن تصحح: للسيد ابن علوي المالكي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ – =

وكم أعاجب تروى عند مولده   يقول هذا هـــو الموعـــود والبُشرُ
في سورة الفيل من أخبار أبرهة   ما ليس يجحـــده إلا الأُولى كفروا
وغير ذلك من إرهـاص نبوتــه   مثل التَّدلِّي مع الأضوا كما ذكروا

وبعد أن تحدث الشيخ عن قصة الإسراء والمعراج بشيء من الإيجاز، انتقل إلى الإشارة إلى بعض من إرهاصاته صلى الله عليه وسلم، أي الخوارق التي ظهرت قبل ولادته، فذكر أن هناك أشياء عجيبة رويت بأنها حدثت عند مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ولسان حال هذه الأعاجيب ينطق بقوله إن هذا المولود هو الموعود الذي جاء الأنبياء قبله وبشّروا قومهم بمجيئه بعد ما أخذوا ميثاقاً من الله على الإيمان به ونصره له. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾.

فمن تلك الإرهاصات، خبر أبرهة الأشرم — ملك الحبشة — الذي حاول غزو مكة وهدم الكعبة المشرفة في العام الذي ولد فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم. فردّه الله خاسئاً حسيراً، وأرسل عليه طيراً أبابيل، فأهلكته هو وجنوده بحجارة من سجيل. وهذه الحادثة مذكورة في سورة الفيل، فلا يجحدها إلا الكافرون. ومنها أيضاً تدلى النجوم ليلة ولادته وسطوع نور خرج معه عند ولادته، حتى قيل إنه أضاء قصور الشام، وغير ذلك مما أشار إليه الشاعر وأيدته كتب السير.

١٩٨٥، ص ١١٤

وأنت أوفى الورى رأيا وأكثرهم صبراً ومن مثلكم يا طه يصطبر؟

أوذيت في الله لم تزدد عليه سوى حلم وصبر وحسن العهد مشتهر

تقواك زهدك مع فتوة كرم جود قيام صيام عزلة سهر

فقر وشكر وتسليم رضي ورع شجاعة رحمة ورأفة حذر

تفكر انخفاض ذلة شرف وانكسار تأنٍّ أخذة عِبَرُ

توكل خلة شوق مفاوضة طهارة وقنوع مِقَة خطر[1]

تلاوة إدكار سبعة عدة تولع شغف خبت حجى ذكر[2]

فراسة همة كشف ومعرفة علم شهود رقاب ديمة بشر[3]

وعظ وعيد وتبشير ومزجرة والاعتذار على من جاء يعتذر[4]

توقر جلد تقلل أدب صلابة انكسار ليس ينحصر

فصاحة حكمة هشاشة بشش صدق وفاء صفاء رقة بُصَر[5]

حقيقة دققت شريعة حققت إسلام إيمان إحسان حمى ستر

رسالة نبوة سيادة عممت شفاعة سجدة المحمود يدّخر[6]

وسيلة كوثر حوض لوا رفق قيامه بمقام ماله بشر[7]

منازل ومقامات ومنه له وغير ذلك مشهور ومنتشر

---

[1] - مقة: محبة

[2] - خبت إلى الله: اطمأن إليه وتخشع أمامه

[3] - فرس، فراسة بالعين: ثبت النظر وأدرك الباطن من نظر الظاهر

[4] - في نسخة ب: "والارعتاز" مكان "والاعتذار".

[5] - هش، هشاشة: تبسم وحفّ للمعروف. بش بشاشة: كان طلق الوجه

[6] - في نسخة ب: "عمت" بدل "عممت"

[7] - في نسخة ب: "زفق" مكان "رفق"، والزَّقِقَة: المائلون بعطفهم ورحمتهم إلى الصبيان الصغار.

قد كان سيدنا في كل فاضلة   منها على مرقب يدرك البصر

انتقل الشاعر إلى ذكر طائفة من شمائله صلى الله عليه وسلم، فذكر أنه كان أوفى الورى رأياً، وأكثرهم صبراً، ولم يكن له مثيل في ميدان الصبر، فإنه قد أوذي في الله، ولكن لم يزده ذلك إلا صبراً وحلماً وتحملا، فقد أخرجه قومه من بلده وقاتلوه، ولما أمكنه الله منهم يوم الفتحِ لم يزد على قوله لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء!"وما أمر أهل الطائف بخفي، حينما دعاهم إلى الله، فجعلوا يستهزئون به ويسخرون منه، ورضخوه بالحجارة!، فعمد إلى حائط من كرومهم ولاذ في ظل شجرة وقدماه تسيلان دماً، حينئذ جاءه ملك الجبال واستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين، ولكن نفسه السمحاء تأبى ذلك؛ بل إنه استغفر لهم واعتذر لهم أمام الخالق، فقال: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"! فانظر كيف أضافهم إلى نفسه فقال: "لقومي" شفقة لهم، كما اعتذر لهم بالجهل!

سيّدي يا أبا القاسم! ما أرأفك! وما أحلمك!، ومن مثلك تحملا واصطباراً؟..حقاً، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[1]، وقد صدقت إذ تقول: "أنا رحمة مهداة". ولم يقف حلم الرسول وصبره عند هذا الحد؛ بل إنه أكبر من أن نحيط به ذكراً هنا، إذا فمن مثلكم يا طه يصطبر؟

استمر الشاعر في سرد طائفة من صفاته صلى الله عليه وسلم الحميدة، وخصاله السنية، وشمائله المجيدة، فذكر منها: التقوى، والزهد في الدنيا، فقد

....راودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شمم

---

[1] - سورة الأنبياء: ١٠٧

والكرم والجود، فكان صلى الله عليه وسلم يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ويسخو بجميع ما لديه بدون أن يخشى من ذي العرش إقلالا.

تَعَوَّد بسط الكف حتى لو انه أراد انقباضاً لم تطعه الأنامل

ومن هذه الخصال أيضاً كثرة قيام الليل حتى خدرت رجله مع أنه قد غفر له ما تقدم وما تأخر، ومنها الصيام بالنهار، وإيثار الفقر، حيث إنه خيّر بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً، فاختار أن يكون نبياً عبداً. والتسليم لما يجري به القضاء، والورع، والشجاعة، وهي شجاعة تقاصرت عنها شجاعة الكماة الأبطال، وإن شئت فاسأل حُنيناً عن ذلك تأتيك بالخبر اليقين. ومنها أيضاً الرأفة والرحمة، والتفكر في آيات الله، والتواضع، والتوكل على الله، والشوق إلى الله، والمفاوضة وهي مفاعلة من التفويض، أي تفويض الأمور إلى الله، فتكون المفاعلة من واحد على حد قوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا...﴾ الآية[1]. أو تكن المفاعلة على ظاهرها، فيصير المعنى: حديث النفس مع المحبوب. ومنها أيضاً، الطهارة، والقناعة، والمحبة، وتلاوة القرآن، والتسبيح، والخشوع أمام الخالق، وكمال العقل، ومداومة ذكر الله تعالى، والفراسة، والهمة العالية، وفصاحة اللسان، والصدق، والوفاء، بالعهد، والتحقق في الشريعة والحقيقة. وله الوسيلة، والكوثر، ولواء الحمد، والمقام المحمود. وغير ذلك من المنازل والمقامات التي كان الرسول منها على مرقب لا يدرك بالبصر، وليس من وسع أحد أن يدرك حقيقة مقاماته صلى الله عليه وسلم. وهذا أمر مشهور لا غرابة فيه، فلا يعرف محمداً حقيقة إلا ربه.

---

[1] - سورة البقرة: ٩

من بحره الأنبيا والأوليا ارتشفوا   سيّ الصحابة لا سي الأولى هجروا[1]

من بحره الأنبيا والأوليا ارتشفوا   سي الصحابة لا سي الأولى نصروا

فهو الإمام وكــل الرسل نائبه   كذاك الأملاك نعـم السـادة الغرر[2]

فمن بحر معارف النبي صلى الله عليه وسلم كان الأنبياء والأولياء يستقون معارفهم ويستمدون أنوارهم، وخصوصاً صحابته الذين عاصروه، وأخذوا الإرشاد منه مباشرة واستنشقوا أنفاسه صلى الله عليه وسلم فلقحت منابع إيمانهم وعرفانهم، وسواء في ذلك المهاجرون منهم والأنصار، وخصوصاً أهل بدر منهم، الذين اطلع عليهم الرب في ذلك اليوم وقال لهم افعلوا ما شئتم فلم تضركم بعد اليوم معصية! إنه صلى الله عليه وسلم هو الإمام وسائر الرسل والأملاك نوّاب له، فجميع الرسل قد أخذ الله عليهم ميثاقاً في الإيمان به والانخراط في سلك جماعته إذا ظهر في أزمانهم، إذاً فرسالاتهم تمهيد لمجيئه، وهم من ضمن اتباعه ومصدقوه، صلى الله عليه وسلم.

يا سيد الرسل يا خير الأنام ومـن   إن ضاق خطب فعند بابك الوطر

يا سيد الرسل يا خير الأنام ومـن   مـن استغـاث بـه ينالـه الظفـر

أغث عبيداً غد في كـل هائلـــة   قد حفّـه الكرب والهموم والوضر[3]

وليـس لي أبداً مرجـى فأقصــده   سواك ما خاب من بالحبِّ ينتصر

يا من هو الأصل في كل الوجود ومن   بنشـره هــذه الأكـوان تعتطـــر

---

[1] - رشف الماء ونحوه: مصه بشفتيه.

[2] - الغرر: الحسان البيض.

[3] - الوضر: الوسخ

يا فخــر آدم يا مـن نوره القمـر   ومـن هـو العلـم التأوي له البشر[1]

بعد أن ذكر الشاعر طائفة من شمائله صلى الله عليه وسلم ومزاياه انتقل إلى الاستغاثة به في كشف الملمّات. فندبه بأنه سيد الرسل، وخير الأنام، وأن قضاء الحوائج عند بابه مرجوة حينما تشتد المصائب، وكل من استغاث به فإنه ينال مقصوده، وصدق النبهاني في قوله:

وأنت باب الله أي امرئ   أتاه من غيرك لا يدخل

ولذلك فإن الشاعر يطلب الإغاثة، لأنه قد أحاطت به الكروب والهموم، وليس له ملجأ يقصده سوى باب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو متحقق بأن كل من انتصر بالمحبوب الأعظم صلى الله عليه وسلم لا يخيب رجاؤه أبداً. فالرسول صلى الله عليه وسلم هو أصل هذا الوجود، وبريّا عرفه تتعطر هذه الأكوان، فهو فخر آدم عليه السلام، والعلم الذي يأوي إليه البشر يوم الحشر إذا ضاقت بهم الأسباب. فجدير لمن كان هذا مقامه أن يلاذ به في كشف مصائب الدنيا وشدائدها، لأنها أهون وأيسر من مدلهمّات القيامة.

شق له البدر والشمس له حبست   وكم أتى نابعاً من عشره الغمـر[2]

كـم فجـر الماء تفجيراً بدعـوته   ومسـه هكـذا جانا به الخبر

كم من طعام قليل صـار ذا كثـر   ونبذة أحجمت عن أكلها النفر[3]

وكم أتى خبر الأشجـار عن ثقة   عن الثقات إلى من كلم الشجر

---

[1] - التاوي: أل هنا موصولة

[2] - الغمر: الماء الكثير

[3] - أحجم: كف. والمعنى أن الجماعة الكثيرة عجزت عن استهلاك طعام قليل.

قد حن للمصطفى جذع ومن شغف   انشق شوقاً إلى أن جاءه البُشَرُ

كم سبحت في يد المختار أطعمة   مع الحصى قد أتانا هكذا الأثر

وكـم جماد أتى باللفـظ مبتكـراً   يا منبراً إرعوى من وعظه الفِكَرُ[1]

قد مالت الفيء عن قوم لها سبقوا   وكم له سجدت من عزه الشجر

يعفور رضـبّ وذيب ظبية وكذا   كطائر وضِمَار من لـه الشعر

غُنَيْمَـة جمـل عضبـاً حمامتنـا   حمامتا عنكبـوت فيهم اذْكروا

وفي هذه الأبيات يذكر لنا الشاعر مجموعة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم المشهورة والمتداولة في كتب السيرة، من انشقاق القمر، وحَبْس الشمس له عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من الإسراء حينما أخبر قريشاً بقدوم عيرهم يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم أشرفوا ينظرون وقد ولّى النهار ولم تجئ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس. كما حبست عليه أيضاً في يوم من أيام الخندق. ومن هذه المعجزات أيضاً، نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم وهو كما روي عن أنس رضي الله عنه أنه التمس الناس الوَضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء، فوضع في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤا من عند آخرهم، وهم زهاء ثلاثمائة. وقد تكررت هذه المعجزة، وذلك كتفجير الماء بسبب دعوته، أو مسه للركوة أو المزادة التي فيها الماء فيستقي منه عدد لا يتصور العقل أن يستقوا

[1] - وفي نسخة ب: "يا منبراً ترعوي" بدل "ارعوى"

منه إلا عن طريق المعجزة. وكل هذه الأخبار قد جاءت في كتب الحديث والسيرة[1].

ومن ذلك أيضاً تكثير الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم، مثل ما جاء في حديث سيدنا جابر رضي الله عنه في إطعامه صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق. وقال جبار: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغطّ كما هي، وإن عجيننا ليُخبز، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق في العجين والبرمة وبارك[2]. أما خبر الأشجار وشأنها مع المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإنه مروي عن الثقات، رووا شهادة الشجر له بالرسالة، وامتثالاها لأوامره[3]. ومن هذا القبيل حديث حنين الجذع الذي بكى وتصدع شوقاً إلى النبي، وقد سبق أن ذكرنا الحديث في أوائل شرح أفكار هذه القصيدة.

وكذلك جاءت الآثار بذكر تسبيح الطعام والحصى في يد النبي صلى الله عليه وسلم، كما يروى مثل هذا في سائر الجمادات أنها كلمت النبي صلى الله عليه وسلم بفصاح الألسن العربية، فقد روي عن الإمام علي كرم الله وجهه قال: "كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إلى بعض نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له: السلام عليك يا

[1] - انظر على سبيل المثال، كتاب "الأنوار المحمدية": للسيد يوسف النبهاني والشفا للقاضي عياض، فقد خص كل واحد منهما فصلا مستقلاً لذلك.

[2] - أخرج الشيخان هذا الحديث، أنظر الشفا، تحقيق: "كمال بسيوني"، (دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م)، ج١، ص ٢٢٠

[3] - انظر الشفا، ج١، ت: كمال بسيوني، ص ٢٢٤-٢٢٨

رسول الله"[١]. وكذلك ارعواء المنبر لسماع وعظه عليه السلام، حين قرأ عليه قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ ثم قال: "يمجّد الجبّار نفسه يقول: أنا الجبار أنا الجبار، أنا الكبير المتعال. فرجف المنبر. قال راو الحديث حتى قلنا ليخرّن عنه[٢]. وأيضاً فقد ورد خبر ميل الفيء إليه صلى الله عليه وسلم، وذلك أثناء سفره مع عمه قبل نزول الوحي عليه، إذ سبقه قوم إلى فئ شجرة فجلس هو في النهار فمالت الفئ إليه وتركتهم. كما لم يبق شجر ولا حجر مر عليه في ذلك السفر إلا خرّ ساجداً له[٣].

وبعد أن تحدث الشاعر عن معجزاته صلى الله عليه وسلم في الجمادات انتقل إلى ذكر بعض المعاجز التي حدثت مع الحيوانات، فبدأ بذكر "يعفُور" وهو حمار أصابه صلى الله عليه وسلم بخيبر فسماه يعفوراً، وكان يوجهه إلى ديار أصحابه فيضرب عليهم الباب برأسه ويستدعيهم. ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم تردى في بئر جزعاً وحزناً فمات[٤]. ثم الضب الذي صاده أعرابي وطرحه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وقال إنه لا يؤمن حتى يؤمن هذا الضب، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الضب فتكلم فآمن الأعرابي. وبعد هذا ذكر الشاعر الذئب الذي كلم راعياً بكلام الإنس ودله على النبي صلى الله عليه وسلم فجاء الراعي واعتنق الإسلام. ثم الظبية التي صادها أعرابي فلما رأت النبي نادته: يا رسول الله، فقال ما حاجتك؟

---

(١) - المرجع السابق، ص ٢٣٠

(٢) - الشفا: القاضي عياض بن موسى اليحصبي ص ٣٠٨

(٣) - نفسه، ص ٣٠٩

(٤) - نفسه ص ٣١٥

قالت: صادني هذا الأعرابي ولي خشفان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع... الحديث[1]. وبعدها قصة عباس بن مرداس مع صنمه "ضِمَار"، وهي: أن العباس لما تعجب من كلام ضمار وإنشاده الشعر الذي ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا طائر سقط فقال يا عباس أتعجب من كلام ضمار ولا تعجب من نفسك، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام وأنت جالس، فكان سبب إسلامه[2]. أما شعر ضمار فهو قوله:

أودي ضمار وكان يعبد مُـدة	قبل البَيان مـــن النبـــي محمـــد
وهو الذي ورث النبوة والهدى	بعـــد ابن مريم من قريش مهتـــد
قل للقبائل مـــن سليـــم كلها	أودي ضمار وعاش أهل المسجد

وأما قول الشاعر "غُنَيْمَةٌ" فإشارة إلى قصة رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان في غنم يرعاها لهم فقال يا رسول الله كيف بالغنم؟ قال أحصب وجوهها فإن الله سيؤدّي عنك أمانتك ويردها إلى أهلها، ففعل فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها[3]. وفي قوله "جمل" إشارة أيضاً إلى قصة جمل كان في حائط، وكان يشدّ على كل من دخل عليه، فلما دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم دعاه فوضع مشفره على الأرض وبرك بين يديه فخطمه، وقال: ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس.

---

[1] - نفسه ص ٣١٤

[2] - الشفا: القاضي عياض، ص ٣١١.

[3] - المرجع السابق، ص ٣١٢

وفي رواية إن النبي قد بين لأصحاب هذا الجمل بأنه شكا إليه كثرة العمل وقلة العلف[1]. وأما "العضباء" فهي ناقة للنبي صلى الله عليه وسلم، يقال إن العشب تتبادر إليها في الرعي، كما رُوُيَ أنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت. ويقصد ب "حمامتنا" حمام مكة التي روى ابن وهب أنها أظلت النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتحها، فدعا لها بالبركة[2]. ثم أشار الشاعر إلى معجزة الحمامتين اللتين وقفتا بباب الغار الذي لجأ إليه النبي والصديق حينما تبعهما المشركون وقد خرجا مهاجرين إلى المدينة، فنسجت العنكبوت على باب الغار. فلما أتى الطالبون ورأوا ذلك قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه، ولا أزيلت هذه الخيوط التي نسجتها العنكبوت. وطلب الشاعر منا أن نتدبر ونتعظ بهذه المعجزة. وحقاً إنها آية من الآيات التي تبين لنا تمام قدرة الله على كل شيء؛ فانظر كيف أنه لم يكن هناك أي حائل بين النبي وصاحبه، والموت غيلة إلا تلك الخيوط الواهنة التي نسجتها أضعف المخلوقات!، إنها وقاية الله التي أغنت عن مضاعفة من الدروع والأتراس، جعلت العنكبوت تقهر الجبابرة.

قد عظم الأسد الضاري سفينته   وعَبْقَسِيَّـــة شاة إذْلها الأثـر[3]

وناقة شهدت والعز حين أنـت   في عسكر المصطفى والعطش معتكر

وجعلــه فرســاً تجـــاه قبلتـــه   في بعـــض أسفـــاره والستـة النفر

[1] - نفس المرجع والصفحة

[2] - الشفا للقاضي عياض ج١. ص ٣١٣

[3] - في نسخة "أ": "كذاك قصة شاة" بدل "وعبقسية شاة". والعبقسية": نسبة إلى عبد قيس

نطق الذراع صبيّ شبّ ما نطقا   بُنيَّـــة طرحـــت لله تهتجـــر

بُنَيٌّ عمياء مسجوا فإذ لجـأت   إلـى النبي أزيـل عنهمـا الغير[1]

شهادة الأبوين بعـد موتهمـا   مما أتانـا بـه وصدقـه الخبـر

استمر الشيخ بسرد معاجز المصطفى صلى الله عليه وسلم في ضروب الحيوانات، فذكر قصة "سفينة" مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهه النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ باليمن، فلقي الأسد فعرّفه أنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه كتابه. فَهمهم ونحّى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك[2]. وبعد هذا خبر شاة لقوم من عبد القيس، التي أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذنها بين إصبعيه، ثم خلاّها فصار لها ميسما، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعْدُ. ثم الناقة التي شهدت عند النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبها أنه ما سرقها، وأنها ملكه[3]. والعنز التي أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عسكره، وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء، وهم زهاء ثلاثمائة، فحلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأروى الجند، ثم قال لرافع: "أمْلِكْهَا وما أُرَاكَ" فربطها فوجدها قد انطلقت. وكذلك جعله صلى الله عليه وسلم فرسه تجاه قبلته في بعض أسفاره. وقال له: "لا تبرح -بارك الله فيك- حتى نفرغ من صلاتنا"، فما حرّك عضوا حتى صلّى صلى الله عليه وسلم. ويلي هذا خبر ستة نفر من أصحابه، كما رواه الواقدي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما

---

[1][1] - مسجوا: سجى الميت، مد عليه ثوباً، أي ستره وغطه.

[2] - الشفا، ج١، ص ٣١٤

[3] - المرجع السابق، ص ٣١٥

وجه رسله إلى الملوك، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم[1].

وإذا كان من العجب حديث الناقة والجمل وغيرهما، فأعجب منه كلام الشاة المشوية، فقد روي أن يهودية أهدت للنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر شاة مصْلِيَّة سَمَّتْهَا[2]، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وأكل القوم، فقال: "ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة". وفي رواية جابر "أخبرتني هذه الذّراعُ"[3].

وبعد أن فرغ الشيخ من سرد طائفة من معجزاته صلى الله عليه وسلم في ضروب الحيوانات، انتقل إلى ذكر نوع آخر من هذه المعاجز، وهو كلام الصبيان والمراضع وإحياء الموتى وكلامهم، وشهادتهم له بالنبوة صلى الله عليه وسلم. فمن ذلك ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بصبي قد شبّ لم يتكلم قط؛ فقال: "من أنا؟" فقال: رسول الله. روي عن معرِّض بن معيقب: رأيت من النبي صلى الله عليه وسلم عجباً؛ جئ بصبي يوم ولد.. فذكر مثله. وهو حديث مبارك اليمامة، ويعرف بحديث شَاصُونة: اسم راويه، وفيه: فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "صدقت، بارك الله فيك". ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شبّ، فكان يسمى مبارك اليمامة. وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع[4].

---

[1] - نفس المرجع والصفحة

[2] - مصلية: أي مشوية

[3] - المرجع السابق، ص ٣١٧. والبيهقي في الدلائل (٢٦٢/٤)

[4] - الشفا ج١، ص ٣٢٠. والبيهقي في الدلائل (٥٩/٦)

ومن ذلك أيضاً خبر البُنَيَّة التي طُرحت في واد، فقد جاء عن الحسن أنه أتى رجلٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذكر أنه طرح بنية له في وادي كذا، فانطلق معه إلى الوادي، وناداها باسمها: "يا فلانة، أجيبي بإذن الله " فخرجت وهي تقول: لبيك وسعديك! فقال لها: "إن أبويك قد أسلما؛ فإن أحببت أن أردّك عليهما؟" قالت لا حاجة لي فيهما؛ وجدت الله خيراً منهما[1].

وكذلك خبر بُنَيِّ امرأة عمياءً فإنه روي عن أنس أن شاباً من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، فسجيناه، وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم. قالت: اللهم إن كنت تعلم إنّي هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تُعينني على كل شدة فلا تحملن عليَّ هذه المصيبة. فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا[2]. ومثل هذا حدث لثابت بن قيس بن شماس، وكان قتل في اليمامة، فلما أدخل في قبره سُمِع وهو يقول: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، فَنُظر فإذا هو ميت.وأيضاً لما مات زيد بن خارجة والنساء حوله يصرخن سُمع وهو يقول: أنصتوا؛ أنصتوا! فحسر عن وجهه؛ فقال: محمد رسول الله، النبي الأُمي، وخاتم النبيين؛... ثم عاد ميتاً كما كان[3]. ومما جاء في إحياء الموتى أيضاً، إحياء أبويه صلى الله عليه وسلم بعد موتهما وإيمانهما به تشريفاً له صلى الله عليه وسلم. وعلى ذلك تضاف أفضلية الصحبة إليهما زيادة على أفضلية

[1] - الشفا ج، ص ٣٢٠

[2] - المرجع السابق، ص ٣٢٠. والبيهقي في الدلائل (٦/٥٠)

[3] - الشفاء، ص ٣٢١

الأبّوة. ومستند ذلك ما روى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يحي أبويه فأحياهما له فآمنا به ثم أماتهما. قال القرطبي: "لا تعارض بين حديث الإحياء وحديث النهي عن الاستغفار، فإن إحياءهما متأخر عن الاستغفار لهما بدليل حديث عائشة إن ذلك كان في حجة الوداع. ولذلك جعله ابن شاهين ناسخاً لما ذكر من الأخبار[1].

سيقول السفهاء من الناس: إن هذا الحديث ضعيف... إيْ والله سيقولون ذلك!، لأنه من شِنْشِنَتهم في كل ما خالف هواهم. فلنسبقهم نحن بهذا القول مع إعلامهم بأن المعتمد عند أئمة علماء الحديث، هو جواز العمل بالحديث الضعيف في الفضائل[2]. وهذا الحديث مسلك واحد فقط من المسالك التي استند إليها المحققون في إثبات نجاة والدي المصطفى صلى الله عليه وسلم[3].

[1] - مسالك الحنفا في والدي المصطفى صلى الله عليه وسلم: الإمام عبد الرحمن السيوطي، ص ٢٩

[2] - وهذا ما نص عليه الإمام النووي، والحافظ العراقي، وابن حجر العسقلاني، وزكريا الأنصاري، والسيوطي وغيرهم. انظر: "المنهل اللطيف في أصول الحديث الشريف: للسيد ابن علوي المالكي، ص ٧٣-٧٤

[3] - من يريد أن يروي غلته في ذلك، فليرجع إلى كتاب خاتمة الحفاظ، العلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المسمى بـ "مسالك الحنفا في والدي المصطفى صلى الله عليه وسلم". فقد بسط فيه القول، وذكر أقوال أئمة الإسلام في حديث مسلم، جزاه الله كل خير. وكذلك كتابه "الدرر الكامنة في إيمان السيدة آمنة".

وحتى على تسليم عدم ثبوت الحديث تسليما جدلياً، فإن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم كانا من أهل الفترة، والله تعالى يقول: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً".

إن الذي جرّني إلى هذا التطويل في محل ربما لا يحتاج إلى ذلك، هو ظهور وقحة من الشبان في بلدنا هذا يعقدون محاضرات ويذيعون فيها أن والدي النبي صلى الله عليه وسلم في النار! بدعوى أن ذلك مذكور في حديث رواه مسلم. ولا أدري ما هو الربح الذي يجرُون وراءه في إفشاء ذلك بين العامة والخاصة. ألم يكن هذا العمل ترجمة لما أكنّته ضمائرهم من البغض تجاه رسول الرحمة صلى الله عليه وسلم؟ إلاّ فكيف يشيعون في آبائه ما لو أسندته إلى آبائهم لهاجموك؟ ألا ساء ما يحكمون. فإن تعلّلوا بأن الشهرة مغنم عظيم، فليذكروا أن إبليس سيظلّ أشهر منهم، وإن قضوا الأعمار في خدمة الإفك والضلال!

قد ناول السهم سعدا وهو ليس له	نصل وقال ارم يا سعد الأولى كفروا
قـد ردّ في أُحُـد عينـا لصاحبـه	قتـادة عـن أبيـه انمحـى الأثـر
حديث الأعمى شهير حيث لاذ بـه	مستشفعـاً حينه قـد جاءه البصر
وابـن الملاعـب قـد أبرته حثوتـه	حديـث عين فديك طيب عطـر
ونفثـه نحـر كلثـوم وتفلتـه	لِشَجّـة ابـن أُنيـس ما لها ضرر
وتفـل عينـي علـي يـوم خيبره	ونفـث ضربة سـاق سلمة ذكروا

لم يزل الشاعر يسبح بنا في بحر معاجز المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبعد أن تحدث عن إحياء الموتى. فالآن ينقلنا إلى نوع آخر من تلك المعجزات. وهو إبراء المرضى وذوي العاهات. فبدأ بالإشارة إلى حادثة عين

قتادة في غزوة أحد التي جاءت في حديث سعد بن أبي وقاص الذي قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيُنَاولني السهم لا نصل له، فيقول: "ارم به" وقد رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عن قوسه حتى اندقت، وأصيب يومئذ عين قتادة يعني ابن النعمان – حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكانت أحسن عينيه[١]. كما أنه انمحى أثر سهم في وجه والد قتادة في يوم ذي قرد، وذلك بسبب بصاق النبي على ذلك المحل؛ قال: فما ضرب عليّ ولا قاح[٢].

ومن ذلك أيضاً حديث الأعمى الذي لاذ بالنبي صلى الله عليه وسلم فرد الله إليه بصره في حينه، وهو حديث عثمان بن حنيف الذي رواه النسائي والترمذي؛ قال: إن أعمى قال: يا رسول الله؛ ادع الله أن يكشف لي عن بصري. قال: "فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين؛ ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة؛ يا محمد؛ إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفعه في. قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره[٣].

وكذلك أصاب ابن ملاعب الأسنّة استسقاء، فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيده حثوة من الأرض، فتفل عليها؛ ثم أعطاها رسوله،

---

[١] - الشفا، ص ٣٢٢

[٢] - قوله: (قاح): قاح الجرح إذا حصل فيه المدة التي لا يخالطها دم

[٣] - الشفا، ص ٣٢٢

فأخذها متعجباً؛ يرى أن قد هزئ به؛ فأتاه بها، وهو على شفا[1]، فشربها، فشفاه الله.

ومما يطيب سمعه، وتتعطر المجالس بذكره، حديث عين فديك. ويقال فُرَيْك – الذي روى عن ابنه حبيب بن فديك "إن أباه ابيضّت عيناه؛ فكان لا يبصر بهما شيئاً، فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه، فأبصر، قال: فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وهو ابن ثمانين[2].

وروى أنه صلى الله عليه وسلم بصق في نحر كلثوم بن الحصين لما رُمي يوم أحد، فبرأ. وتفل على شجّة عبد الله بن أنيس فلم تُمَدَّ[3]. وتفل في عيني علي – كرم الله وجهه– يوم خبير، وكان رمداً، فأصبح بارئاً. ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خبير فبرئت. صلى الله عليه وسلم[4].

دعاؤكــم مستجــاب مطلقاً ولذا   خبأت دعوتك العظمى كما سطروا
كم قُلِبَتْ لكم الأعيان كم كُشفت   عنك الغيــوب فمــا أخبرت منتظر
وقاك ربــك مــن إذايــة اللؤما   بعصمة دونها الــدروع والسُّــوَر[5]
علــم المصــالح والتدريــب غايته   علمتنا ها إلى أن تبعث الصُّــور

[1] - قوله: (شفا) بفتح الشين والقصر: يقال أشفى المريض على الموت وما بقي منه إلا شفا أي قليل.
[2] - الشفا، ص ٣٢٣
[3] - قوله: (تمدّ): أمد الجرح صار فيه مدة.
[4] - المرجع السابق، ٣٢٣
[5] - هذا البيت ساقط في نسخة (أ)

ومن عظيم معجزاته وكرامته على ربه، صلى الله عليه وسلم، إجابة دعوته، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: "لكل نبي دعوة مستجابة، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"، أو كما قال. وإجابة دعوة النبي ﷺ أمر متواتر على الجملة، معلوم ضرورة. وهو أكثر من أن يحاط به.

وقد خص القاضي عياض فصلاً لذلك في كتاب الشفا.

وكذلك قلّبت له الأعيان صلى الله عليه وسلم، أي تحوّلت من حال إلى حال آخر، ببركة لمسه أو مباشرته لها. كركوبه حماراً قطوفاً[1] لسعد بن عبادة فردّه هِمْلاجاً[2] لا يساير. ونخسه جمل جابر، وكان قد أعيا، فنشط حتى كان ما يُمْلَكُ زمامه.

وأطلعه الله على الغيوب، فأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بما سيكون، إلى قيام الساعة. كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن حذيفة، قال: "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً؛ فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدّثه؛ حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه؛ ثم إذا رآه عرفه[3].

وقد خرّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه صلى الله عليه وسلم مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس،

---

[1] - قطوفاً: القطوف من الدواب، التي تسيء السير وتبطئ.

[2] - هملاجاً: يقال (دابة هملاج) أي حسنة السير في سرعة وبخترة.

[3] - الشفا، ج١، ص ٣٣٦

واليمن، والشام، والعراق. وظهور الأمن، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله. وأن المدينة ستغزى، وتفتح خيبر على يد علي في غد يومه. وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها. وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر... وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس، وتقارب الزمان، وقبض العلم، وظهور الفتن والهرج... وأن أهل الغرب لا يزالون ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة[1]. إلى ما أخبر به من أشراط الحاقّة، وعرصات القيامة والنار والجنة.

والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمْرُه. وحسب المتأمل ما قد ذكرناه، واختصرنا شرحه وطويناه.

ومن مشهور معجزاته صلى الله عليه وسلم أيضاً: وقاية الله له، وعصمته له من إذاية أعدائه اللؤماء. وهي عصمة تقف دونها الدروع والسور. ألم يقل الله تعالى له: "والله يعصمك من الناس"؟[2] وقال أيضاً: "واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا"[3]، أو لم يقل له: "إنا كفيناك المستهزئين"؟[4] بلى! لقد قال كل ذلك، ووفاه بما وعده، وما خبر سراقة بن مالك حين الهجرة بخفي، بل إن كتب السيرة مملوءة بما هو من هذا القبيل.

كما أنه من باهر معجزاته صلى الله عليه وسلم ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وما خصه به من الإطلاع على جميع مصالح الدنيا

---

[1] - نفسه، ص ٣٣٦-٣٣٧

[2] - سورة المائدة، الآية: ٦٧

[3] - سورة الطور. الآية: ٤٨

[4] - سورة الحجر، الآية: ٩٥

والدين، فأرسى قواعد شريعته على محاسن الأخلاق، ومحامد الآداب، وقاد الأمة قيادة لم ولن يشهد مثلها التاريخ، أبداً الآبدين، ودهر الداهرين. وصار أعجوبة الزمان على مر الليالي والأيام. وهذا أمر أقرّ به حتى الأعداء الملحدون. فكان صلى الله عليه وسلم دائرة المعارف التي استمد منها أصحاب العلوم والفنون أصولاً لعلمهم[1].

وأنــت أكثــر رســل الله معجــزة وليــس في كــل ما سطرتــه نظر
أصحابكم خير أهل الأرض قاطبة وخيرهــم فجرهــم صديقنا عمـر
عثمــان ثم علــي ثمــت الفضلا الستة الكاملون القــادة الدرر[2]
فالتابعــون فمــن للتابعيـن قفـا ثم الأئمة مــن بالجهــد اشتهروا
كذا المربــون أرباب الطرائــق والإ رشاد للحـق من بالإصطلام[3] دروا
كالعارف الجيلي قطب المشائخ بالإ طلاق سيد من بالمصطفى افتخروا
بعــد الصحابــة والأنباء فهــو إذا كالمصطفى فيهم على الذي سطروا
كالمجتــــبى وولــي الله نعمتـــه الغيث والشيخ ما العينين والخضر

إلى هنا وصل الشاعر إلى نهاية ما أورده من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم في هذه القصيدة، لذلك ختم هذه المعاجز بقوله: إن النبي صلى الله عليه وسلم هو أكثر رسل الله معجزة، وأن كل ما قد كتبه في

[1] - راجع كتاب الشفا للوقوف على شواهد وأمثلة في ذلك، ص ٣٥٤-٣٥٥

[2] - في نسخة: ب، (ثمت الكرما) مكان (ثمت الفضلا)

[3] - الاصطلام: هو الوله الغالب على القلب، وهو قريب من الهيمان. أنظر (معجم اصطلاحات الصوفية) لعبد الرزاق الكاشاني. الطبعة الأولى (دار المنار – القاهرة ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م)، ص٥٥

هذه القصيدة شيء قليل لا يستحق النظر إليه، وذلك بالنسبة لكثرة معجزاته صلى الله عليه وسلم ووفرتها.

وكما أن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أكثر وأعظم من معجزات سائر الأنبياء، فكذلك أصحابه صلى الله عليه وسلم هم خير أهل الأرض قاطبة. فقدر العبد، قدر سيده، وقدر الصاحب، قدر من يصحب، ومن انتمى لذوي السعادة يسعد. قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[1].

وخير الصحابة هو أولهم سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه. رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، وأنيسه وخليفته المختص بالصديقية، وأحب الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعده سيدنا عمر بن الخطاب. الفاروق، أمير المؤمنين الذي أعز الله به الإسلام، الملهم الذي جعل الله الحق على لسانه وقلبه. ثم سيدنا عثمان بن عفان، ذو النورين، أول من هاجر إلى الحبشة، الذي تستحي منه الملائكة، والذي جمع القرآن الكريم.

فسيدنا علي بن أبي طالب، أسد الله الغالب، وباب مدينة العلم، أول من أسلم من الصبيان، زوج البتول، ووالد السبطين عليهم سحائب رضوان الكريم المنان.

ويلي هؤلاء في الفضل، باقي العشرة المبشرين بالجنة الستة، السادات اللآلىء وهم:

---

[1] - سورة آل عمران، الآية ١١٠

(١) عبد الرحمن بن عوف، أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أهل الشورى، الذي صلى خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك حيث أدركه وقد صلى بالناس ركعة.

(٢) طلحة بن عبيد الله، أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى، الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، وسماه طلحة الخير وطلحة الجود.

(٣) سعد بن أبي وقاص، أحد الستة أصحاب الشورى، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأول من أراق دما في سبيل الله، فارس الإسلام، وفاتح المدائن.

(٤) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي، أحد العشرة الذين شهد لهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وتوفي وهو عنهم راض.

(٥) أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو عامر بن عبد الله بن الجراح، هاجر الهجرتين، وهو أمين هذه الأمة، كما وصفه صلى الله عليه وسلم بذلك.

(٦) الزبير بن العوام، حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وناصره، الذي فداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبيه وأمه.

هذا، وقد ثبتت البشارة بالجنة لجملة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأصحاب بدر، وأهل الحديبية، وبلال، وعكاشة وغيرهم.

ولكن هؤلاء العشرة جاءت البشارة لهم جميعاً في موطن واحد، من قوله صلى الله عليه وسلم: "عشرة في الجنة: أبوبكر في الجنة، وعمر في الجنة"

وساقهم كلهم. والحديث رواه الترمذي في سننه في مناقب عبد الرحمن بن عوف[1].

استمر الشاعر في ذكر من هم خير هذه الأمة، فذكر التابعين بعد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويأتي بعد التابعين، تابع التابعين. ثم يليهم في الفضل الأئمة الأربعة المجتهدون، وهم:

الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، والإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وهم على هدى من ربهم، تأسست مذاهبهم على العلم والإيمان بلا جهل ولا اتباع هوى.

ويأتي بعد هؤلاء، الشيوخ المربّون، أرباب الطرق الصوفية، الذين عرفوا بتتيمهم وذوبانهم في محبة الذات الإلهية والشخصية المحمدية. ومثّل بواحد منهم، وهو شيخ طريقته الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره. ووصفه الشاعر بأنه هو قطب جميع المشائخ على الإطلاق، وسيد كل من كان النبي صلى الله عليه وسلم هو فخره، ما عدا الصحابة والأنبياء. أي إن جميع الأولياء تحت سيادته ما عدا الصحابة والأنبياء، ومنزلته بين الأولياء، كمنزلة النبي صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء. ثم أشار إلى أن هذا الذي ذكره لم يكن من اختراعه، ولا أتى به من عندياته؛ وإنما هو مسطور في الكتب.

[1] - المنهل اللطيف في أصول الحديث الشريف: السيد محمد بن علوي المالكي، الطبعة الرابعة، (مطابع بحر- جدة، ١٤٠٢-١٩٨٢م)، ص ١٩٠-١٩٢

وبعد هذا أدخل جميع الأولياء – السادات الكرام، والنجوم الدالة على الملك العلاّم – في هذه الطبقية التي سلسلها. ومن هؤلاء الأولياء، الشيخ محمد المجتبى الشنقيطي، نزيل مكة المكرمة ودفينها، الذي مرّ "بكنو" على طريقه إلى مكة، فسلك الشيخ على يديه. ثم شيخ شيخه هذا، الشيخ محمد النعمة الغيث، وشيخه الشيخ المصطفى ماء العينين. والإمام الخضر، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ربي بهم وبمن في نهـج مسلكهـم أرجوك فيض السواري حين تنهمر

وكن لي أيا خالقي كن لي أيا سندي فأنت سؤلي بخير الخلـق أنتظـر

عليه دأبا سـلام الله مـا نشدت ماذا أقـول وقولي فيـك مقتصر

وأخيراً، بعد أن سرد الشيخ طبقات سادات هذه الأمة، من الصديق الأكبر، إلى سائر الأولياء الكرام، ختم القصيدة بالتوسل إلى الله تعالى بهم وبمن على نهجهم، طالباً من المولى سبحانه أن يفيض عليه من سحائب المعرفة والرضوان. وتضرع أمام خالقه وسنده، راجياً أن يكون له في جمع الأحوال، متوجهاً إليه في ذلك بخير الأنام، عليه سلام الله أبدا ما دامت الأيام، ومهما ترنم منشد بأبيات هذا النظّام، مبدياً عجزه وحصره وعيّه عن درك حقيقة ماحي الظلام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه طول الدوام.

هذا، وبعد هذه الجولة مع قصيدة الشيخ في شرح أفكارها القصيدة تبين لنا أن الشاعر حاول أن يتحدّث فيها عن عظيم منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه ومكانته لديه، وما خصه به من المقامات والخصوصيات، وأسرد طائفة من شمائله ومعجزاته صلى الله عليه وسلم. ولابد من الإشارة هنا إلى أن الشاعر قد اعتمد في سرد هذه المعجزات على

كتاب الشفا للقاضي عياض، فأوردها على ترتيبها ونظامها في ذلك الكتاب.

فالقصيدة بصفة عامة تتناول الإشادة بشمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم ومناقبه المودعة في الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين. وما تخللها من غير ذلك مثل ذكر مناقب المدينة وفضائلها، فإنه متصل تمام الاتصال بما ذكرنا، وعلى ذلك فإنه داخل فيه.

المبحث الثاني: خصائص المضمون الفنية:

مطلع القصيدة:

نقصد بمطلع القصيدة، البيت الذي افتتح الشاعر به قصيدته. وقد عني النقاد به قديماً وحديثاً، وجعلوا إجادته ميسماً لرسوخ قدم الشاعر في ميدان القريض. وصفوه بأوصاف عدة منها: حسن المطلع، وحسن الابتداء، وبراعة المطلع، وبراعة الاستهلال. وفي هذا يقول ابن العميد: إن حسن الشعر، المطالع والمقاطع![1] ويعلق الأستاذ علي الجندي على هذا قائلاً: "فأما حسن الابتداء. فهو أول ما يقرع أذن السامع، فينشرح له صدره، وتهتزّ له نفسه، ويشعر له بأريحيّة وبهجة، فيتشوّف لما يأتي بعده، وينساق إلى الإصغاء إليه طواعية واختياراً! ولاسيّما إذا كان الافتتاح مصوراً لجوّ القصيدة، مترجماً عنها، ملخّصاً لمغزاها[2].

سئل بعضهم: من أحذق الشعراء؟ فقال: من أجاد الابتداء والمطلع. ويقول ابن رشيق: "حسن الافتتاح، داعية الانشراح، ومطيّة النجاح"[3] وفي هذا ورد قولهم: البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله[4].

---

[1] - الشعراء وإنشاد الشعر: علي الجندي ص: ١٣٧

[2] - المرجع نفسه والصفحة.

[3] - الشعراء وإنشاد الشعر، ص: ١٤٠

[4] - المرجع نفسه والصفحة

ويقول ابن رشيق أيضاً: ينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدلّ على ما عنده من أول وهلة[1].

ولنضرب مثلاً ببائية أبي تمام التي افتتحها بقوله:

السيف أصدقُ أنباء من الكتب   في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

فلا بد أنك بمجرد سماع هذا المطلع يخطر ببالك أن هذه القصيدة قصيدة حربية، تقرر: أن للسيف الكلمة الأولى في حسم المشكلات، ودحر الأعداء، ونيل الظفر الفاصل، والنصر العزيز!

وقصيدة أبي تمام هذه، قالها في فتح الخليفة المعتصم لعمورية المدينة الرومية، عندما أرجف المنجّمون بأنها لا تفتح إلاّ إذا نضج التين والعنب، فلم يعرْ لهم المعتصم أذنا صاغية، وتقدم لافتتاحها فكان النصر العظيم والفتح المبين!

وتعال إلى قصيدة شاعرنا التي ندرسها فإننا نرى أنه جعل مطلعها:

ماذا أقول وقولي فيك مقتصر   يا سيدا طاب فيه الفكر والذكر

ولا شك أن هذا المطلع يوحي إلينا بما انطوت عليه هذه القصيدة، من مدح سيد الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين – وذكر فضائله ومناقبه، وما خصه الله به من المقامات العالية، والمنزلة الشامخة التي تقف دونها الأوهام، وتكلّ دون وصفها الألسنة. إنه أمام الحضرة المحمدية.. أمام

من لا يفي مدح الفصيح بقدر   هطول المدى حتى ولو حَسَّانه

[1] - نفسه ١٤٠

حقاً إن ضخامة الموقف وجلالته تستدعي إلى مثل هذه الحيرة والدهشة... وهي جديرة بجعل الشاعر أن يفتح القصيدة بهذا النوع من الاستفهام التعجبي.

ماذا أقول وقولي فيك مقتصر...

إننا نستطيع أن نقول – بدون أن يداخلنا أدنى ريب – إن الشاعر قد وفّق إلى حدّ غير قريب في اختيار هذا المطلع. فهو صورة جلية لجوّ هذه القصيدة، وترجمان لها. وهو مع قلة ألفاظه قد حوى جميع الأمداح التي في القصيدة. فإن الأمر كما يقال: "العجز عن دَرْكِ الإدراك إدراك". فالشاعر يعتذر أمام الممدوح بأن كل ما سيقوله لا يفي بحقه، وأنه مقصرٌ في ذلك. لاشك إن هذا من أعظم المدح!

ثم إنه يشير عن طريقة غير مباشرة إلى أن ما يقوم به الآن عمل يشترك فيه القلب أولاً وأومأ إلى هذا "بالفكر"، واللسان ثانياً ورمز إليه "بالذكر" الذي يصدر من اللسان. وأن ما يقوم به ذكرٌ وقد أمر المؤمنون أن يقوموا به قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم!

صدق العاطفة:

عرف الدكتور داود سلوم العاطفة فقال: "هي الإحساس الدافع في قلب الأديب من جراء تفاعل العالم الخارجي مع نفسيته سلباً أو إيجاباً، قبولاً أو رفضاً سروراً أو غضباً، حباً أو كرهاً..."[١] وبناء على هذا فهي مجموعة

[١] - النقد الأدبي: الدكتور داود سلوم، القسم الأول (مطبعة الزهراء ١٩٦٧، بغداد)، ص ٦٣.

المشاعر الإنسانية المتعددة المتلوّنة التي تدفع إلى الحب والكره، والحزن والفرح، والسعادة والشقاء، وغير ذلك، فتلوّن الأمزجة والطباع وتتضح من قلب الأديب مع أدبه فإذا كان التعبير عنها صادقاً مؤثراً، ونقلها أميناً، كانت قادرة على التأثير في القارئ، المرهف الحس تأثيراً مماثلاً...[1]

ولعل أجود تقسيم للعاطفة هو الذي يقوم على تمييز الإحساس العاطفي من حيث قوتها وضعفها ويخضع هذا إلى: صدق البواعث: فالشاعر الذي يبعث عن قلب متألم أو محب أو كاره أو يائس يكون أصدق وأعمق أثراً في نفوسنا من الشاعر المتكلّف لعواطفه، والمنافق والمدعي لما ليس فيه ولذا يقال إن قول الشاعرة التي ترثي أخاها:

أيا شجر الخابور مالَكَ مورقاً   كأنك لم تحزن على ابن طريف

أصدق من مئات القصائد التي كتبها الشعراء يرثون الملوك والأمراء، في سبيل دراهم معدودات[2] لأنهم يفكرون في الدراهم لا في غيرها.

وأعلم بأن المقصود بالصدق هنا، الصدق الفني لا غير. وقد أشار قدامة بن جعفر إلى ذلك في "نقد الشعر" وأكد أن الشاعر مطالب بجودة التعبير عما يشعر به ولا يطالب بصدق هذا الشعور في ذاته، فالصدق الحقيقي الخارجي لا يطالب به الفنان[3].

فالحكم على جودة العاطفة واستمراريتها يكون بمقدار ما يستطيع النص من الاستحواذ على القارئ أو السامع من البداية حتى النهاية.

---

[1] - المرجع السابق، ص ٦٣

[2] - نفسه، ص ٦٨

[3] - نفسه، ص ٧٠

والشاعر المجود هو الذي يحزنك إذا رثى ويذكرك بالحبّ إذا تغزل، ويثير حماستك إذا تكلم بالحماسة، ويحبب إليك الممدوح إذا مدح، ويجعلك تسخر من المهجوّ إذا هجا[1].

نذكر على سبيل المثال في هذا: تائية دعبل الخزاعي في مدح أهل البيت:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

ودالية المعرّي التي افتتن بها أهل الأدب على اختلاف الأعصار والأمصار. والتي يرى العقّاد أنه لم ينظم في لغة العرب أجود منها، ومطلعها:

غيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعتقاد يَنَوْحُ باك ولا ترنُّمُ شادي

لأنها صورة لحياة قائلها، أو لأنها مجتمع فلسفته التي صنعتها تلك الحياة. فلنستمع إلى العقّاد وهو يوازن بين دالية شوقي التي رثى بها الزعيم محمد فريد، والدالية العلائيّة المذكورة: "ولقد طمح شوقي إلى معارضة المعرّى في قصيدة من غرر شعره، لم ينظم مثلها في لغة العرب، ولا نذكر أننا اطلعنا في شعر العرب على خير منها في موضوعها. والمعرّي رجل تيمم هذه الحياة محراباً، واجتواها غابا، وصدف عنها سرابا – لابس منها خفايا أسرارها، واشتف مرارة مقدارها، وتتبع غوابر آثارها، وحواضر أطوارها، فإذا هو نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله "فلا يفوه إطلاقاً إلاّ بما يشعر به ويؤمن به ولذلك كان صادقاً في شعره.

---

[1] - نفسه، ص ٧٠

وأين شوقي من هذا المقام؟ إنه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره، وأعمق ما هبط إلى نفسه من آلامها إعراض أمير أو كبير، وما بمثل هذا ينظم الشاعر في فلسفة الموت والحياة..[1]

وأمثلة هذا الشعر الذي يتسم بصدق العاطفة كثيرة جداً، مثل غزل كثيّر عزّة وجميل بثينة و.... ومئات القصائد الأخرى التي تزخر بها الدواوين والمجاميع..، وطلاّب الأدب على صلة بهذه القصائد.

إذن فلنعد إلى قصيدتنا لنتفقد فيها هذه الناحية من نواحي الدراسة الفنية. ربما لا يجانبني الصواب إن قلت إن هذه القصيدة تتمتع بقسط لا يستهان به في هذا الجانب. فقد استطاع الشاعر فيها أن ينقل إلينا خلجات نفسه وأحاسيسه، وصوّرها لنا أحسن تصوير، وأبدى لنا مشاعره نحو ممدوحه – صلى الله عليه وسلم – في تعبير جيّد.

وكما يقال بالأمثلة تتضح المقاصد، فلنأخذ الأبيات التي افتتح بها الشاعر هذه القصيدة، لكي نبرهن على ما ندّعيه. وهي:

ماذا أقول وقولي فيـك مقتصــر ... يا سيدا طاب فيه الفكر والذكـر

أثنى عليك إله العــرش خالقــنا ... بأحسن الخُلْق ماذا يذكر البشـر؟

يكفيكــم شــرفاً مالا أسطّــره ... مـن المحامــد إذْهُ لــيس ينحصر

كم آية أفصحت عن قدر رتبتكم ... وإن كل الورى من فخرك افتخروا

أنت المعـدّ لكــل النائبات فلا ... لها سواكــم نصوصاً يـوم نحتشر

أنت الإمام وكل العالمين أجل ... فتابــع لكـــم يا أيهـــا القمـر

[1] - التيارات المعاصرة في النقد الأدبي. د. بدوي طبانه، الطبعة الثانية، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية –١٣٩٠هـ ١٩٧٠م، ص ٣٧٠

أنت السميذع والأمــلاك رمّتها   في كفكــم تنتهــي بكــم وتأتمــر
وأنت سيد كــل الخلق أجمعهــم   طوبى لمــن بحماكــم كان ينتصــر

إننا إذا أمعنا النظر في هذه الأبيات، نرى أن الشاعر ينقل لنا المهابة والجلالة التي غمرت قلبه حينما أراد أن يدلي دلوه في الدلاء في المديح النبوي، وينقل إلينا كذلك مشاعره تجاه ذلك الجناب المقدس. فيجعلنا نحن الآخرين تعترينا هذه الدهشة، فنؤمن متيقنين بأن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أعلى من أن يحيط بها إنسان أو أن يفصح عنها، فقدّرها حق قدرها. فماذا يجدي ثناء الخلوقين فيمن تكفّل الخالق – مع عظيم سلطانه وعزّة جبروته – أن يقوم بالثناء عليه بالخُلُق العظيم؟ فأنت إذا تدبرت عظمة الخالق، ثم رأيت إنه يثني على أحد ويصف خلُقه بالعظمة .. خلق عظيم..! لا شك أنه تشعر بما شعر به الشاعر، من أن الممدوح أعلى وأرفع من أن تفي بنت شفة من بني البشر بحقيقة قدره ومنزلته.

كما أننا نجد مطابقة بين أبيات القصيدة وبين مشاعر قائلها وخاصة إذا نظرنا إلى حياته. فهو من العاشقين الذين ذابو في محبة النبي صلى الله عليه وسلم وغرقوا في بحر تعظيمه وإجلاله، حتى إنه يصعب عليه جريان اسم النبي صلى الله عليه وسلم على لسانه، مهابة له صلى الله عليه وسلم. فقد تحضر دروسه ومحاضراته في الحديث والتفسير والسيرة والتصوف وغير ذلك، ولكن قلّماً تسمع جريان إسم "محمد!" على فمه، بل يكتفي بقوله (السيّد صلى الله عليه وسلم". حتى صار هذا ديدناً لمن تأثّر به من تلاميذه ومورديه. وكان حاله في هذا كحال ابن زيدون مع محبوبته ولاّدة وهو يخاطبها:

لسنا نسمّيكِ إجلالاً وتكرمة   فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

وأوقاته كانت معمورة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. ولا أعجب منه حيث إنه لم يترك نفسه حتى ولو كان في السيارة يقوده السائق من المنزل إلى مكتبه في مدرسته (تراث الإسلام) أو إلى أي مكان إلاّ وواحد من الخدّام معه في السيارة يتلو عليه مجموع الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم الذي جمعه جدّه الأكبر، الشيخ ما لم كبر عمر.

زد على ذلك أنه لا ينادي مريديه إلاّ بـ "عشاق النبي" أو "المحمديين".

إننا إذا علمنا هذا، رأينا أن هذه القصيدة وغيرها من نبويّات الشيخ صورة صادقة عن شعوره وشوقه نحو الحضرة المحمدية.

لنعد إلى القصيدة مرة ثانية، ألم يجعل الشاعر فاتحتها:

ماذا أقول وقولي فيك مقتصر   يا سيدا طاب فيه الفكر والذكر؟

إننا نلاحظ شيئاً آخر من صدق عاطفة الشيخ في هذا المطلع، حيث إنه وراء المقدمات الغزلية والبكاء على ديار الأحبة أو وصف الناقة.. إلخ، مع أنه كان من الشعراء التقليديين، ذلك لأن قلبه مفعم بالحب نحو الرسول – عليه أزكى التحية – وليس في قلبه سوى المديح، ولا صلة بينه وبين تلك الديار والأطلال، لذلك لم تجد هذه التمهيدات التقليدية إليه سبيلا في هذا المجال. لأنه يجيش هنا بما أكنّه ضميره، ويعبر عن تجربته لا عن حياة لم يعشها من ذكر الطلول والبكاء عليها، أو وصف الصيد وما إلى ذلك.

ولهذا فإننا نستطيع القول – بدون أن يداخلنا أي خجل – بأن في القصيدة ما يسمى بالصدق الفني. إذ أننا نجد مطابقة تامة بين أبياتها وبين مشاعر قائلها. ولله درّ العقّاد حيث يقول: "وإذ كان الشعر يدل على

الشاعر كما عرفناه في حياته العامة والخاصة، فهذه آية الشاعرية الأولى لأن الشعر تعبير، والشاعر هو الذي يعبر عن النفوس الإنسانية. فإذا كان القائل لا يصف حياته وطبيعته في قوله فهو بالعجز عن وصف حياة الآخرين وطبائعهم أولى، وهو إذن ليس بالشاعر الذي يستحقّ أن يتلقى منه الناس رسالة حياة وصورة ضمير"[١].

[١] - التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ص ٣٦٨، نقلاً عن شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد: ١١٣

المبحث الثالث: خصائص الشكل الفنية

نريد أن نتحدث عن بعض الخصائص الفنية التي احتوت القصيدة عليها من حيث الشكل، وسيتناول حديثنا النقاط التالية:

١.إختيار الألفاظ:

إن الأصل في الكلام هو الإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أنْ يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح من الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس[١].

فمهمة اللغة عند الناس لا تتعدى التعبير عما يدور بخلدهم، ويجول بخواطرهم، وهم يستعينون بها على ذلك. إلا أن قدراتهم تتفاوت في مدى نجاحها في مهمة التعبير عن المعنى الذي يختلج في النفوس من حيث اختيار الألفاظ الملائمة. إذ إن في الألفاظ الخفّة والثقل، وفي الحروف التلاؤم والتنافر، ومن الكلمات ما يكرهه السمع، ويمجه الطبع، ومنها ما هو جميل الوقع على الأذن، حسن الأثر في النفس. أضف إلى ذلك ما امتازت به العربية من كثرة الألفاظ والأساليب، حتى قيل: "إن لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي[٢]. هذا من جانب وقد يعبر – من جانب آخر – عن المعنى الواحد

---

[١] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: د. محمد كريم الكوَّار، ط١، نشر جمعية الدعوة الإسلامية – ليبيا ص ٢٧١ نقلاً عن إعجاز للباقلاني ١١٧.

[٢] - المرجع السابق ص ٢٧٢. نقلا عن الرسالة للإمام الشافعي ٤١.

بألفاظ، بعضها أحسن من بعض أو قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الألفاظ بعضها من بعض.

والإحساس اللغوي عند الأديب هو الذي يجعله يختار اللفظ اختياراً دقيقاً، بحيث يؤدي المعنى على وجه لا لبس فيه ولا اضطراب، وهو لذلك يلحظ الفروق الدقيقة بين الكلمات، ويأخذ من بينها أمسها رحماً بمعناه، وأفصحها في الدلالة عليه، حتى تقوم بواجبها من الإيصال الصادق.

يُذكر أن ابن هرمة سمع أديباً ينشد قوله:

بالله ربك إن دخلت، فقل لها   هذا ابن هرمة قائماً بالباب

فقال له: لم أقل "قائماً"، أكنت أتصدق؟ فقال: "قاعداً"، فقال: أكنت أبول؟ قال: فماذا؟ قال: "واقفاً[١]". ولعلك أدركت ما أراد الشاعر أن يشير إليه من الفرق بين الوقوف والقيام. فالوقوف لا يقتضي الدوام والثبات، أما القيام فيقتضيهما[٢].

فالألفاظ للشعر الجيّد بمثابة الجسد من الروح، والأمر في اختيار الألفاظ هو الذي يميز مقدرة الشاعر الفنان من الشاعر العادي.

ورحم الله الجاحظ حيث قال قولته المشهورة: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء. وفي صحة الطبع وجودة

---

[١] - من بلاغة القرآن: الدكتور أحمد أحمد بدوي، مطبعة نهضة مصر – القاهرة، ص ٨.

[٢] - المرجع نفسه والصفحة، (الهامش)

السبك. فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"[1].
وإن كنت لا أقصد بهذا، الخوض في تلك المعركة الدامية التي دارت بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى من نقّاد العرب القدامى.

وقد سقنا لك – أيها القارئ العزيز – كل ما تقدم ليتضح لك كيف كان المجيدون من الشعراء يحرصون على اختيار ألفاظ قصائدهم، لكي ينقلوا إلينا المعاني الكامنة في نفوسهم. والشيخ محمد الناصر من الذين اهتموا بهذا الجانب في قصيدته هذه وفي سائر قصائده، سواء في اللغة العربية أو الهوسا[2].

ولكي نبرهن على ما ندّعيه نختار بعض الأمثلة من أبيات هذه القصيدة. يقول في البيت الثاني منها:

أثنى عليك إله العرش خالقنا بأحسن الخُلق ماذا يذكر البشر؟

فأنظر كيف اختار لفظة (العرش) في قوله إله العرش، ليوحي إلينا بجلالة الموقف وعظمته، فمن وُسْعه أن يقول إله الناس، ولكنه عدل عن ذلك فاختار لفظ (العرش) لينقل إلينا هيبة المقام ورهبته، حيث إن منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم بلغت من أن يثني عليه ربّ العرش، هذا العرش الذي يقال إنه أعظم المخلوقات، فالسماوات السبع والأرضين السبع لم تكن

---

[1] - النقد الأدبي: د. داود سلوم ص ٤٤، نقلا عن الحيوان ١٣١/٣

[2] - فالذي يحذق لغة الهوسا ينظر مثلا إلى قوله في قصيدة Shiriya ta Rahmanu حيث يتحدث عن التوحيد:

Allahu Kwal ne masamin dukka Halikuna
Matabbacin samuwa subhana subhanu

فاستعمل لفظة (Kwal) التي تدل على الأحدية والفردية، ولم يأت بلفظة (Daya) التي يحتمل أن يأتي بعدها (Biyu) اثنين و (Uku) ثلاثة إلخ

بالنسبة للكرسي إلا كدراهم ألقيت في ترس[1] في حين أن الكرسي إذا قيس بالعرش لم يكن إلا كخاتم أو درهم في فلاة. فإله هذا العرش العظيم المهيب الذي تحار العقول دون إدراك وصفه، هو الذي يثنى على المصطفى الكريم. فما دام أن الإله – مع جلالته ورفعته– هو الخالق!! ولكن مع ذلك يثني على الرسول وهو المخلوق فماذا يستطيع بشر أن يقوله ويفي بحق هذا الجناب الرفيع؟ فالمقام مقام هيبة وجلال لذلك اختار الشيخ (العرش) وأضافه إلى الله سبحانه وتعالى بدلاً من أي مخلوق.

ومثال آخر، هو قول الشيخ في البيت الثالث:

يكفيكم شرفاً مالا أسطّره   من المحامد إذْهُ ليس ينحصر

فلفظة (المحامد) في البيت مشتقة من (الحمد) إختارها الشاعر من بين ألفاظ قريبة منها كالمدح والشكر وغيرهما. وبين كل واحدة منها فروق دقيقة يلاحظها الدارس أو القارئ المتأمل. فمعنى الحمد: الثناء بالفضيلة، وهو أخصّ من المدح، إذ أن المدح يقال فيما يكون بالاختيار وبغيره، كأن يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، وهذا مما ليس للإنسان فيه اختيار، كما يمدح ببذل ماله وعلمه، مما له فيه اختيار. والحمد لله يكون في الثاني دون الأول[2]. أي إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحمد بالجميل الاختياري، وشتان بين من ينفق على طيب نفس واختيار – مثلاً – وبين من يبذل اضطراراً. ثم إن المدح قد يكون قبل الإحسان وبعده، وأما الحمد

---

[1] - تفسير الجلالين ص: ٣٧

[2] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ص: ٢٧٣. نقلاً من "المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني

فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان[1] ولا شك أن إحسان المصطفى صلى الله عليه وسلم قد غمر الخلق أجمعهم، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾[2].

وأما الفرق بين الحمد والشكر، فهو أن: "الحمد ثناء على النعمة الواصلة إليك أو إلى غيرك – من الخلق- والشكر مختص بالإنعام الواصل إليك خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح. والحمد باللسان وحده. فهو إحدى شعب الشكر، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: "الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده". وإنما جعله رأس الشكر، لأن ذكر النعمة باللسان، والثناء على موليها أشيع لها، وأدل على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب، وما في الجوارح من الإحتمال بخلاف عمل اللسان، وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه"[3].

فاختيار الشاعر لفظة (المحامد) إذاً أليق بالمحل، لأنه يريد أن يشعر القارئ بأن خيرات النبي صلى الله عليه وسلم لا تعدّ ولا تحصى، وأنها ليست محصورة في قوم دون آخرين، ولا مختصة بجنس دون جنس، بل عمت جميع الكائنات، لأن الحمد له صلى الله عليه وسلم هو الثناء عليه بسبب كل إحسان صدر منه ووصل إلى غيره، وأما الشكر فهو ثناء بسبب إحسان وصل إلى القائل، ولا شك أن الأول أفضل، فسواء أحسّ الإنسان

---

[1] - المرجع السابق ص: ٢٧٣

[2] - سورة الأنبياء الأية: ١٠٧

[3] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم مرجع سابق ص ٢٧٣

بإفضال المصطفى وإحسانه عليه أو لم يحسّ، فإن إحسانه واصل إلى كل العالمين.

لننظر إلى مثال آخر، وهو قوله:

شأوت كل نبي كأن مستبقاً   في حلبة المجد حقا لست تختصر

فانظر كيف اختار هنا كلمة (شأوت)، فمن وسعه أن يقول (سبقت)، بدون أن يحدث أي تغيير في الوزن. ولكنه عدل عن ذلك فاختار كلمة "شأوت" لأنها تفيد البعد[1]، أي لا يدركونه فأحرى من أن يجاوزونه. بينما تفيد: "سبقت" التقدم، وهذا التقدم قد يكون بعيداً وقد يكون قريباً. فإذا أجريت خيولاً للسباق – مثلاً – وتقدم الواحد على الآخرين ولو بنصف متر، نقول هو السابق أي المجلّى. ولكن الشأو تفيد السبق والبعد معاً. فقوله شأوت كل نبي أي سبقه وتباعد ما بينهما.

وهذه الأمثلة كلها غيض من فيض، وقلّ من كثر بالنسبة لما امتازت به هذه القصيدة – وسائر قصائد الشيخ – من حسن اختيار الألفاظ وتنسيقها على الوجه الذي تؤدي فيه رسالتها المطلوبة التي هي التأثير في نفس القارئ.

٢.الألفاظ الشعرية:

ذكر النقاد عن لغة الشعر بأن هناك ألفاظاً تصلح للشعر وألفاظاً لا تصلح له[2] حتى قال ابن رشيق: "وللشعر ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة لا

---

[1] - المنهجد (شاى)

[2] - الشعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي دار المعارف مصر (بدون تاريخ) ص: ١٥٦-
=

ينبغي للشاعر أن يعدوها، ولا أن يستعمل غيرها"[1]. كما أن قدامة بن جعفر تحدث عن نعت الألفاظ الشعرية[2].

فإذا تتبعنا هذه القصيدة التي معنا نرى أن الشيخ قد سلك الطريق الذي خططه النقاد وحضوا الشعراء على اتباعه. ولذلك لا نجد في القصيدة استعمال ألفاظ مثل "أيضاً" مثل و"فقط" و"البطن" و "الأرضون"، فإنهم عدّوا "الكوب" و "الأرض" على سبيل المثال من ألفاظ الشعر، بخلاف جمعها وهو الأكواب والأرضون[3]، ولذلك نرى أن الشاعر لما احتاج إلى استعمال كلمة "الأرضون" استعملها مفردة، وأتى بكلمة تفيد معنى الجمع فقال:

أنت السماوات أنت الأرض أجمعها وأنت من نشرِك الأنام تعتطر[4]

وأما من ناحية الوضوح أو الغموض في أسلوب الشاعر، أو قل سهولة الألفاظ ووعرتها، فإننا نرى أن الشيخ قد اختار ألفاظاً لغوية سهلة، تميزت

---

١٥٩ و "المثل السائر" لإبن الأثير ٢٦٦/١ للوقوف على ذلك.

[1] - النقد الأدبي: د. سلّوم، مرجع سابق ص ١٦٨

[2] - راجع نقد الشعر: لابي الفرج قدامة بن جعفر الطبعة الأولى؛ القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية. ١٣٩٩ هـ ص: ٧٤-٧٧

[3] - الشعراء وإنشاد الشعر مرجع سابق ص: ١٥٧

[4] - ومثل هذا ما نجد في القرآن، إذ لم ترد فيه لفظة "الأرض" إلا مفردة، فإن ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه. ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة، وهي قوله تعالى: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن" (الطلاق:٢) ولم يقل سبع أرضين لما في هذا من الخلل في اللفظ وعدم التناسق في النظم "المعاني في ضوء أساليب القرآن" الدكتور عبد الفتاح لاشين الطبعة الثالثة ١٩٧٨م دار المعارف – مصر. ص:٦٨

بأجراس ممتعة تدفع المستمع والقارئ ليسير مع الركب بدون وعي وإدراك منه، تلبية لرغبة الشاعر ونزولاً عند إرادته. فخير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن، إقرأ هذه الأبيات – على سبيل المثال:

وأنت سيد كل الخلق أجمعهم   طوبى لمن بحماكم كان ينتصر

والجذع حنّ لكم والبدر شق لكم   والفتح كان لكم والذكر والظفر

والرعب يمشي أمام الجيش ينصركم   وخلفكم مثله يا نعم منتصر

فأنت إذا تتبعت جميع الألفاظ التي احتوت عليها هذه الأبيات رأيتها كلها ألفاظاً سهلة بينة في معناها، ومتداولة على ألسنة العامة والخاصة. فليست فيها كلمة تحتاج إلى الشرح لمن له أدنى منزلة في تذوق الأدب العربي. وقل هذا في معظم كلمات القصيدة بأجمعها، كما أن هذه الكلمات كلها أو جلّها جارية على القياس الصرفي الصحيح. وبذلك يكون قد أتى بالسهل الممتنع، أي الذي يطمعك حين تراه، ثم إذا حاولت مماثلته راغ[1] كما يروغ الثعلب.

لقد كان النقاد والأدباء ينادون إلى الأخذ بأذيال الأسلوب السهل الممتنع والنسج على منواله. يقول ضياء الدين ابن الأثير: "وقد رأيت جماعة من مدّعي هذه الصناعة يعتقدون أن الكلام الفصيح هو الذي يعزّ فهمه، ويبعد متناوله، وإذا رأوا كلاماً وحشياً غامض الألفاظ يعجبون به، ويصفونه بالفصاحة، وهو بالضدّ من ذلك، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان، لا الغموض والخفاء"[2].

[1] - راغ الصيد: ذهب هنا وهنا، أي ذهب يمنة ويسرة في سرعة وخديعة.

[2] - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير تحقيق أحمد الحوفي =

وما دام أن معاني قصيدتنا تدور حول المدح، فقد اجتنب الشاعر حوشي الألفاظ التي تمجها الأسماع، وتنفر منها النفوس، حسبما طالب النقاد. وفي هذا يقول الدكتور داود سلوم: "أما إذا كان المعنى في الغزل مثلاً فيجب أن تتصف الألفاظ بالدقة والسهولة واللين والجمال في الجرس والإيحاء، وهكذا قل عن لغة المدح.."[1] وهذا ما دفع الشيخ إلى أن يدقق النظر ويختار الكلمات السهلة اللينة الجميلة ذات الإيحاءات الفنية الممتعة. انظر على سبيل المثال إلى هذه الأبيات التي اختار فيها الشاعر ألفاظاً عذبة تطابق المعنى، فبيّن لنا أن الممدوح هو الذخر عند نزول الهول العظيم يوم الحشر، والإمام الذي يؤم جميع العالمين، حتى الأملاك أجمعهم، فكلهم تحت أمره ونهيه:

أنت المعدّ لكل النائبات فـلا ... لها سواكم خصوصاً يوم نحتشر
أنت الإمام وكل العالمين أجل ... فتابـع لكـم يـا أيهـا القمـر
أنت السميذع والأملاك رمّتها ... في كفكـم تنتهـي بكم وتأتمر
وأنت سيد كل الخلق أجمعهم ... طوبى لمـن بحماكم كان ينتصر

لاحظ استعماله "أنت" وتكراره لها تذكيراً للممدوح وإشعاره بتعدد فضائله ومزاياه، وإنه وحده الحائز لجميع هذه الفضائل والعلى. وخاطبه لأنه إن لم يكن بين يديه عياناً فإنه يراه ببصيرته. ولاحظ الصورة في "أنت الإمام" و "فتابع لكم"، وتأمل الأسلوب كذلك في "تنتهي بكم وتأتمر"

وبدوي طبانة مكتبة نهضة مصر ومطبعتها. القاهرة الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م، ج١، ص ٢٤٠.

[1] - النقد الأدبي: ٤٨

حيث أكدّ سيادته صلى الله عليه وسلم للأملاك، حتى إنه هو الآمر والناهي لها.

قد استعمل الشيخ لغة عربية فصيحة، قلّ وجود الأخطاء فيها جداً، اللهم إلا ما دخل في باب الضرورات الشعرية، وهو باب معروف عند أهل اللغة يبيح للشاعر بعض استعمالات خاصة لا تباح للناثر[1]. ومن ذلك قول الشيخ في البيت الثاني:

أثنى عليك إله العرش خالقنا   بأحسن الخلق ماذا يذكر البشر

فكلمة "الخلُق" بضم اللام، ولكن الشاعر قام بتسكينها هكذا "الخُلْق" مراعاة للوزن والموسيقى. ويلجأ الشاعر -كذلك- في البيت الثالث إلى حذف الواو من ضمير الهويّة "هو" فيقول طوعاً للضرورة الشعرية: "إذْهُ ليس ينحصر" يعني إذ هو.

ومثال آخر هو قوله:

طبت المكان فلا مكان يشبههما   العرش ما الكرسي ما الأفلاك ما الدرر

فقوله "طبت المكان" خلاف القياس، إذ التمييز لا يدخل عليه "ال" عند البصريين، وهو على حد قول ابن رشيد بن شهاب اليشكري وهو يخاطب قيس بن مسعود:

رأيتك لما أن عرفت وجوهنا   صددت وطبت النفس يا قيس عن عمرو[2]

---

[1] - راجع شرح كتاب "أهدى سبيل إلى علمي الخليل الأستاذ محمود مصطفى ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص: ٢١٠-٢١٦

[2] - كان صديقاً حميماً لقيس، وكان قوم الشاعر قد قتلوه. فالشاعر يندد بقيس؛ لأنه فرّعن صديقه لما رأى وقع أسيافهم. ورضي من الغنيمة بالإياب.

فقوله "طبت النفس" حيث أدخل الألف واللام على التمييز – الذي يجب له التنكير – ضرورة. وهذا على مذهب البصريين، إذ أن الكوفيين لا يوجبون تنكير التمييز، بل يجوز عندهم أن يكون معرفة وأن يكون نكرة. وعلى ذلك لا تكون "أل" في هذا الشاهد زائدة، بل تكون معرفة[1].

٣. الظواهر البلاغية:

التصوير الفني بالتشبيه:

"الفتنة بالتشبيه فتنة قديمة"[2]. وعرفه الهاشمي بأنه: "عقد مماثلة بين أمرين، أو أكثر. قُصِدَ اشتراكهما في صفة، أو أكثر، بأداة، لغرض يقصده المتكلم"[3] وبه يوضح الفنان شعوره نحو المتلقي ويصور ويقرب حتى يصبح واضحاً وضوحاً وجدانياً، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به. فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية، ذلك أنك تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل، فإذا قلت إنه كالحمار يحمل أسفاراً، فقد وصفت لنا شعورك نحوه ودللت

[1] - عدّة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت لبنان، الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ج١، ص ١٢٨.

[2] - الشعر الشنقيطي: الدكتور أحمد ولد الحسن، الطبعة الأولى ١٩٩٥ طبع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا. ص:١٧٨ نقلا عن "الصورة الأدبية لمصطفى ناصف ص ٤٦

[3] - جواهر البلاغة: السيد أحمد الهاشمي.، الطبعة الثانية عشر ١٣٩٨-١٩٧٨م. دار الفكر بيروت، ص: ٢٣٦

على احتقارك له وسخريتك منه[١]. فيكون وسيلة الإبراز ما في الأعماق النفسية من الشعور الإنساني نحو الطبيعة والمعاني المجردة.

فالتشبيه فن من فنون البلاغة، له مكانته الرفيعة من بين الأساليب البيانية، يبرز الصور الغامضة، ويجعلها ملموسة محسوسة.. فهو أصل للاستعارة لإبتنائها عليه، ولذا كان ميدان التسابق بين الأدباء والشعراء منذ العصر الجاهلي[٢]. ويقول المبرّد: "التشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال القائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد"[٣] ولكن التشبيه لم يصبح هدفاً فنياً يعمد الشعراء إلى النزوع إليه والافتنان فيه إلا على يد بشّار ومسلم ثم ابن الرومي وابن المعتز وأبي تمام فالبحتري. ولكل من هؤلاء تشبيهات جميلة بارعة حفلت بها دواوينهم وازدحمت بها كتب العلماء دراسة وتحليلاً وتعليقاً كما أشار إلى ذلك مصطفى محمد الشكعة[٤].

والغرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير، ذلك أن المتفنن يدرك ما بين الأشياء من صلات، يمكن أن يستعين بها في توضيح شعوره، ويستطيع بذلك أن ينقل هذا الشعور إلى السامع أو القارئ[٥].

إن التشبيه إذا جاء في أعقاب المعاني أفادها كمالاً، وكساها حلة وجمالاً كما قال الزركشي[١]. وقد أفاد منه العرب في كلامهم حتى صار عندهم

---

[١] - من بلاغة القرآن: الدكتور أحمد أحمد بدوي، ص: ١٩٠

[٢] - ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية: الدكتور محمد رمضان الجربي، الطبعة الأولى ١٩٨٤م. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس – ليبيا.

[٣] - المرجع السابق ص: ١٣٩

[٤] -فنون الشعر الحمداني: مصطفى محمد الشكعة. ص ٤٩٧، مطبعة المعرفة.

[٥] - من بلاغة القرآن: الدكتور أحمد أحمد بدوي مرجع سابق، ص: ١٩٠

طريقة معروفة، يسلكها الأدباء القدماء والمحدثون، كما قال العسكري، فالعرب كثيراً ما يشبهون الجواد بالبحر والمطر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس والقمر، وصار ناس رموزاً في التشبيه لشهرتهم بخصال، كالسموأل[٢] في الوفاء، وحاتم[٣] في السخاء، وبأقل[٤] في العيّ، وهبنّقه[٥] في الحمق[٦].

لنعد إلى رائية شاعرنا لكي نلمس هذه الظاهرة التي تسمى بالتشبيه. إن أول ما نصادف من ذلك هو قوله في البيت السابع من القصيدة:

أنت السميذع والأملاك رمتها   في كفكم تنتهي بكم وتأتمر

---

[١] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن، مرجع سابق ص: ٣٩٠ نقلاً عن البرهان للزركشي ٣/٤١٤

[٢] - السمؤال: (بن عاديا) (ت حوالي ٥٦٠) شاعر جاهلي يهودي صاحب الحصن المعروف بالأبلق. يضرب به المثل في الوفاء، لأنه قتل ابنه على التفريط بأمانة أودعها عنده امرؤ القيس لما سار الى الشام يريد القيصر. له قصيدة شهيرة مطلعها

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل

[٣] - حاتم الطائي: (ت:٦٠٥) شاعر جاهلي اشتهر بشجاعته وسخائه وكرمه. ضرب به المثل: "أجود من حاتم" له ديوان.

[٤] - باقل الإيادي: جاهلي ضرب به المثل في العيّ والبلاهة. اشترى غزالاً مرة بأحد عشر درهماً، فسئل عن ثمنه فمدّ أصابع كفيه يريد عشرة وأخرج لسانه ليكملها أحد عشر، ففر الغزال

[٥] - هبنقة: لقب أبي الودعات يريد بن ثروان القيسي، يضرب به المثل في الحمق، قيل إن له قلادة يضعها في عنقه ليميز نفسه بها من غيره. فكلما مشى نظر إلى القلادة ليتأكد أنه هو وذات يوم سرق واحد هذه القلادة، فلما رآه هبنقه قال له: يا فتى صرت أنا، فمن أنا؟

[٦] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن، مرجع سابق ص: ٣٩٠ نقلاً عن "كتاب الصناعتين" ص: ٢٤٩

شبه الممدوح بالأسد لجامع الشجاعة والسيادة بينهما والسيطرة التامة على الغير، فكما أن الأسد يسيطر على جميع الحيوانات ويسودهم فكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يسيطر على جميع الناس، بل إن سيطرته جاوزت الإنس فشملت الملائكة، حيث أنها تنتهي بنهيه وتأتمر بأمره. وانظر إلى استعماله كلمة "في كفكم" ليؤكد مدى ما للرسول من الرفعة والسيطرة على الأملاك، فهي تحت طواعية يده كأنه يقلبها ويحركها كما شاء. ولما كانت الصفة قوية في المشبه حذف أداة الشبه ووجه الشبه، وذلك لتحقق الصفة في المشبه، فلم يقل أنت كالسميذع في الشجاعة والسلطة أو السيطرة، بل قال أنت السميذع. وهذا ما يسمونه بالتشبيه البليغ.

وكذلك نجد مثل هذا التشبيه عند قوله:

جزت الكيال جزافاً لست متزناً بل شعرة منكم طالت أولى ذكروا

وصف درجة الممدوح ومنزلته بأنها لا يمكن أن تقاس بكيل ولا ميزان، فهي كالشيء الجزاف الذي لا يُعرف عدده ولا مقداره، بل إن أدنى ما يمكن أن تقيس به منزلته صلى الله عليه وسلم، هو أن شعرة واحدة منه تفوق جميع أهل الفضائل والعلى. فعدل الشاعر هنا أيضاً عن القول بأن الممدوح كالشيء الجزاف في عدم معرفة حقيقة مقداره. وادعى أنه هو الجزاف بعينه على سبيل التشبيه البليغ[1].

[1] - التشبيه البليغ ما حذفت منه الأداة ووجه الشبه

وقد يكون من باب التشبيه الضمني، وذلك بالنظر إلى الجملة التي في عجز البيت.

ونجده في بيت آخر، يشبه سائر الخلق بالذرات بالنسبة لمقامه صلى الله عليه وسلم، أي تلك الجواهر التي لا تقبل الانقسام لصغرها، بحيث إذا أردت تقسيمها تعود إلى العدم، فقال:

اختارك الله للعليا وغيركم   ذرات جوهرة من ظهرك انحدروا

ومثال آخر قوله:

أنت المحيط فلا شيء يفوتكم   أحطت بالكون علماً ليس يحتظر

ففي قوله "أنت المحيط" تشبيه بليغ أيضاً، حيث شبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبحر المحيط، وحذف الأداة ووجه الشبه. فكما أن البحر المحيط قد أحاط بجميع المعمورة، وعمّ عطاؤه الشرق والغرب، فكذلك علمه صلى الله عليه وسلم لا يحدّ ولا يعدّ، وعطاؤه لا ينفد ولا يقيّد، فهو محيط المحيط الذي لا ساحل له – صلى الله عليه وسلم –.

ومثال آخر أيضاً، قوله:

من بعد ما أمَّ بالأنباء سيدنا   وهو المقدم وهو الدّر والغرر

فقوله: وهو الدّر والغرر تشبيه بليغ أيضاً.

والشيء الملحوظ أن جميع تشبيهات هذه القصيدة تكاد تكون من نوع التشبيه البليغ. وربما ان المقام هو الذي ألزم الشاعر ذلك، لأنه يتحدث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم فصغر في عينه كل شيء يشبهه به تشبيهاً يذكر فيه جميع أركان التشبيه من المشبه والمشبه به ووجه الشبه والأداة. فلاذ بالتشبيه البليغ، لأن الصورة فيه تكون أقوى. كما أننا نلاحظ أن الشاعر

حاول أن يجعل وجه الشبه أقوى في المشبه دون المشبه به في هذه التشبيهات التي صاغها. فشجاعة الأسد وسيادته على الحيوانات لا تقاس بشجاعة وسيادة من كانت الملائكة في قبضة يده تنتهي بنهيه وتأتمر بأمره. وكذلك تشبيهه صلى الله عليه وسلم بالجزاف في عدم معرفة حقيقة مقداره، فإنه من الممكن معرفة مقدار الجزاف إذا كيل أو وزن مهما كانت كثرته ولكن النبي صلى الله عليه وسلم جاوز الكيال، بل إن شعرة منه تفوق جميع من يذكر من أهل الفضائل- كما قال الشاعر- ونفس هذا ما تقوله في تشبيهه له بالمحيط.

وربما لا يجانبني الصواب إذا قلت إن الشاعر قد وفّق في استعماله "التشبيه البليغ" في هذا المقام لأنه أبلغ عند البلاغيين إذ وضع في مقامه. كما يقول السيد أحمد الهاشمي عند الحديث عن بلاغة التشبيه: "... فأقل التشبيهات مرتبة في البلاغة ما ذكرت أركانه جميعها، لأن بلاغة التشبيه مبنية على ادعاء أن المشبه عين المشبه به. ووجود الأداة ووجه الشبه معا يحولان دون هذا الادعاء، فإذا حذفت الأداة وحدها، أو وجه الشبه وحده، ارتفعت درجة التشبيه في البلاغة قليلاً، لأن حذف أحد هذين يقوّي ادعاء اتحاد المشبه والمشبه به بعض التقوية. أما أبلغ أنواع التشبيه "فالتشبيه البليغ" لأنه مبنّي على ادعاء أن المشبه والمشبه به شيء واحد"[١].

---
[١] - جواهر البلاغة: السيد أحمد الهاشمي ص: ٢٨٨

الاستعارة:

الاستعارة هي: استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة (المشابهة) بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع (قرينة) صارفه عن إرادة المعنى الأصلي. (والاستعارة) ليست –أصلاً– إلا (تشبيهاً) مختصراً حذف منه أحد طرفي التشبيه فصارت أبلغ منه إذا وضعت في المقام المناسب كقولك: رأيت أسداً في المدرسة، فأصل هذه الاستعارة "رأيت رجلاً شجاعاً كالأسد في المدرسة" فحذفت المشبه لفظ "رجلاً" وحذفت الأداة الكاف، وحذفت وجه التشبيه "الشجاعة" وألحقته بقرينة "المدرسة" لتدل على أنك تريد بالأسد شجاعاً[1] وترتبط الاستعارة بالتشبيه من حيث قدرتها على التصوير، والتقديم الحسي في الصورة المعنوية، وفوق ذلك فإن الاستعارة أبلغ من التشبيه، لأنها مجاز، وهو حقيقة، والمجاز أبلغ. وأنها تحمل في طياتها جمالاً فنياً يختفي وراءه الادعاء التام.

ومدار هذا الأمر على الإحساس بالشيء، فإن الحس بالشيء ورؤيته في التشبيه غير الحس به ورؤيته في الاستعارة، وكأن هناك سلماً تتعاقب درجاته، ويرتقي فيه الخيال درجة درجة. يبدأ مع البدء بالإحساس بالمشابهة بين شيئين، وتنتهي عند توهج الإحساس بصيرورتهما شيئاً واحداً[2].

[1] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ص: ٤٠٥ نقلا عن التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى ص: ١٧٦

[2] - من بلاغة القرآن ص: ٢١٧

فالاستعارة أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه، وتصور المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محساً[١].

لقد عرف استعمال الاستعارة في الشعر العربي منذ عصوره المتقدمة، ثم ظهرت الاستعارات بكثرة عند مسلم وأبي نواس وأبي تمام وابن الرومي وابن المعتز وغيرهم حتى عدّها أبو الحسن الجرجاني "أحد أعمّدة الكلام وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبها يتوصل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر. وكان الشعراء يجرون على نهج منها قريب الاقتصاد حتى استرسل أبو تمام ومال إلى الرخصة فأخرجه إلى التعدي، وتبعه أكثر المحدثين بعده فوقفوا عند حدّ من مراتب الإحسان والإساءة والتقصير والإصابة[٢].

وأول ما يقرع آذاننا في هذه القصيدة من هذه الناحية، هو عنوانها. فقد ذكرنا أنه يتكوّن من هذه الجمل:

- الماء المسكوب
- من سحاب المحبوب
- على ساحة القلوب

حيث شبه علم الممدوح ومعرفته الإلهية بالمطر الغزير الذي يسكب[٣] من السحاب، والشبه بين العلم والمطر، هو أن العلم الإلهي يبلّ القلوب

---

[١] - فنون الشعر الحمداني ص: ٤٩٤. نقلا عن "الوساطة بين المتنبئ وخصومه" لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ص: ٣١٩-٣٢٠

[٣] - السكب: الهطلان الدائم

القاسية، كما يبلّ المطر الأرض اليابسة، ثم شبه القلوب بالأرض[1] إلا أنه لم يذكرها بل رمز إليها بالساحة. ووصف القلب بالساحة يشير إلى أن الشاعر لا يقصد بالقلب هنا تلك البضعة الجسمانية، بل يريد به تلك اللطيفة الإيمانية التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. والتي قد تضيق وقد تتسع على حسب نصيب صاحبها من الإيمان. فلابد أنها إذا اتسعت تكون ساحة فضفاضة بحيث تسع الخالق بأن يتجلى فيها، مع أنه ما وسعته أرضه ولا سماؤه.

ووصف العلوم بالماء، والقلوب بالأرض شيء نجده في غير هذا الموضع من قصائد الشيخ محمد الناصر. اقرأ قوله مثلاً في رائيته التي نظمها على شكل اللعبة الهندسية "أَدَبَيَّ"[2] التي نظمها في مدح الشيخ محمد المجتبى بن خطر الشنقيطي:

رطا ماؤه أرض القلوب فأعشبت   فما ثَمّ إلا رائق الزهر ناضر

رضا ناصر أن تمطر الودق أرضه   لتخضرّ والأنوار فيها تناثر

ولعل الشيخ اقتبس هذا المعنى من الحديث النبوي الذي أخرجه الإمام البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء

---

[1] - ومن أدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه – ما جاء على هذا النمط، حيث يقول "اللهم إن أرض قلوبنا مجدبة يابسة عابسة فاسقها من سحائب أمطار الولاية بالإلهام، لتصبح مخضرة بجميع رياحين القبول والإيمان" مجموع أحزاب الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه. ص:٢٠-٢١

[2] - انظرها في: "بعض الظواهر الفنية في شعر مولانا الدكتور محمد الناصر كبر"، للدكتور شيخ عثمان كبر، ص:٦٢. وهناك البيان الشافي عن تلك اللعبة الهندسية

فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءاً ولا تنبت كلاً، فذلك مَثلُ من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم.."[1]

وما علينا إلا أن نقف على بعض أبيات هذه القصيدة لنبين كيف استعمل الشاعر هذا الفن من فنون البيان العربي المسمى بالاستعارة فلنأخذ على سبيل المثال قول الشاعر:

أنت الإمام وكل العالمين أجل   فتابع لكم يا أيها القمر

فقوله: يا أيها القمر استعارة، حيث شبه الممدوح بالقمر، وحذف لفظه، وادعى أنه عين المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية[2].

ومثال آخر قوله:

والرعب يمشي أمام الجيش ينصركم   وخلفكم مثله يا نعم منتصر

انظر كيف صور الرعب والخوف الذي يعتري قلوب الكفار حينما يتوجه النبي صلى الله عليه وسلم نحوهم. هذا الخوف الذي يكسر عزيمتهم ويصيرهم أجساداً بلا أرواح، شبه الشاعر هذه الرهبة التي تغشى قلوب الكفار ببطل من الأبطال يمشي في مقدمة الجيش ليؤبّد الطريق أمام جنود المسلمين، إلا أن الشاعر حذف لفظ "البطل" ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو المشي على طريق الاستعارة المكنية[3].

[1] - صحيح البخاري. دار الفكر- بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ج١ ص: ٢٨.

[2] - الإستعارة التصريحية هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به.

[3] - الاستعارة المكنية هي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيءٍ من لوازمه

وتقدم الشيخ في موضع آخر فشبه ممدوحه بالكعبة، وحذف لفظ الممدوح وادعى أنه هو عين المشبه به. فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الكعبة في نظره، فكما أن الكعبة يقصدها الناس من كل فجّ عميق ليشهدوا منافع لهم، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم كعبة يتوجه شطرها الناس من كل صقع من أصقاع الأرض، يتوجهون نحوها بالصلاة والتسليم عليه، وبالتوسل والاستشفاع به، بل بإتيانهم إليه رجالاً وعلى كل ضامر، أو على متن باخرة البحر أو سيارة أو طائرة تخوض عنان السماء. إلاّ أن وجود النبي صلى الله عليه وسلم في مكة يجعل الشاعر في حيرة ودهشة، فلا يدري هل النبي صلى الله عليه وسلم هو الكعبة أم ذلك البيت العتيق الذي يفتخر بطواف الناس والسعي حوله. فلنقرأ الأبيات لتظهر لنا الصورة جلية:

لله مكّته العظمى لقد شرفت بكعبة القدر هذا الكعبة النشر

إني تعجبت هل هي التي نسكت بالسعي والوقوف والطواف تفتخر؟

فإن يكن هو فالأقــدار جاريــة والعبد راض بما يقضيــه مقتــدر

وإن تكن هي لا غرو ولا عجب فالرب ربّ وهذا الثيب منهمــر

ومن الاستعارة أيضاً قوله:

يا ظبية طبت قدراً فافخري أبداً قد طاب نشرك والإفضال مشتهر

ففي وصف الممدوح بالظبية استعارة تصريحية، حيث حذف المشبه وادعى أنه عين المشبه به لجامع الجمال بينهما، وهذا وصف خَلْقي. ثم انظر إلى مثال آخر، حيث يتحدث الشاعر عن ديار الممدوح ومن فيها من الأصحاب:

حيث النزول وحيث الوحي حيث إذا   ضاق الخناق ترى الآساد تجتئر

فمنازل الممدوح وهي منازل نزول جبريل عليه السلام، ينزل فيها بالوحي وهي منازل يسكنها الصحابة وهؤلاء الصحابة في بسالتهم وشجاعتهم يشبهون الأسود التي تسمع اجتئارها حينما تشتدّ الأمور. فلا يفرون إذا حمي الوطيس وتزحزح الكُماة، بل يصمدون أمام نار الوغي صائحين بالتكبير والتهليل.

ففي قوله "ضاق الخناق" استعارة تصريحية تبعية لكون اللفظ المستعار فعلا. شبه شدة الأمور وبلوغها الذروة بتضييق الخنق والشنق، لجامع وجود المشقة في كل. وكذلك قوله "ترى الآساد تجتئر" استعارة تصريحية مرشّحة[١]، حيث شبه الأبطال بالآساد، وحذف لفظ الأبطال، ثم قرن المستعار منه "أي المشبه به" الذي هو لفظ "الآساد" بما يلائمه وهو "تجتئر"، وهذا ما يسمى ترشيحاً. والترشيح – كما يقول السيد أحمد الهاشمي – "أبلغ من غيره، لاشتماله على تحقيق المبالغة بتناسي التشبيه، وادعاء أن المستعار له (المشبه) هو نفس المستعار منه لا شيء شبيه به. وكأن الاستعارة غير موجودة أصلاً.."[٢]

لعلك أدركت معني – أيها القارئ العزيز – جمال الصورة في هاتين الاستعارتين في هذا البيت، فتصور كيف وصف اشتداد الأمور بحالة رجل مشنوق يضاق عليه الخناق، هذه الحالة التي يصعب بها حتى التنفس، فقلما يبلغ الإنسان من الجهد مثل ما يبلغ في تلك الحالة. وانظر كذلك إلى

[١] - الاستعارة المرشحة ما ذكر معها ملائم المشبه به

[٢] - جواهر البلاغة ص:٢٣١

وصف البطولة بحالة الليث الباسل حين يجتئر، هذا الجؤار الذي تتفرق دونه سائر السباع والحيوانات خوفاً من ذلك الأسد. فكانت هذه هي حالة الصحابة في ميدان المعركة حين يرفعون أصواتهم فَيَفْرَنْقع الكفار عنهم.

اقرأ مثالاً آخر أيضاً، حيث يقول:

من بحره الأنبيا والأوليا ارتشفوا　　　سيّ الصحابة لا سيّ الأولى هجروا

فوصف العلوم والمعارف والأنوار الإلهية التي ينور الله بها قلوب أنبيائه وأوليائه لاسيما الصحابة رضوان الله عليهم بالبحر، والمشرف على البحر هو النبي صلى الله عليه وسلم. ثم شبه ما يصل إليهم من هذه المعارف بالرشف. وفي ذلك إشارة إلى عظمة شأن النبي صلى الله عليه وسلم وتمكّنه من المعارف الربانية، بحيث أن جميع معارف الأنبياء وكبار الصالحين – مع وفرتها وكمالها – بالنسبة إلى معارفه صلى الله عليه وسلم لا تجاوز الرشفات من البحر. و –لعله – لذلك لم يستعمل كلمة "اغترفوا" أو "استفاضوا"، للدلالة على تقليل ما عندهم إذا قيس بما عنده صلى الله عليه وسلم. والاستعارة هنا تصريحية تبعية.

التفويف:

قال العلوي: إن التفويف في مصطلح علماء البيان هو ما يدل على معنى آخر بقرينة أخرى. وهو ضربان[1]:

[1] - معجم البلاغة العربية: الدكتور بدوي طبانه، الطبعة الثالثة ، دار المنار – جدة، ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م ص ٥١٤

الضرب الأولى منهما راجع إلى المعنى[1]. (وهو الذي يعنينا) وضابطه أن تصف الممدوح بما يدل على مدحه من صفات المكارم وسمات المحامد، ثم تورد صفات دالّة على ذمّه، ولكن اقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحاً، فالتفويف داخل في هذه الجهة[2].

مثاله قول جرير:

خلائق بعضهم فيها كبعض ... يؤم كبيرهم فيها الصغير

عــن النكـــراء كلهـــم غبيّ ... وبالمعـروف كلهم بصيرُ

فقوله: "يؤم كبيرهم فيها الصغير" ذمّ، لأنه لا خير في الكبير إذا كان مقتدياً بالصغير. وإنما المدح في عكسه، لكنه لما اقترن بقوله: "خلائق بعضهم فيها كبعض" أفهم أن الصغير والكبير فيهم سواء في فعل المعروف والإحسان.

وهكذا قوله:

عن النكراء كلهم غبيّ ... وبالمعروف كلهم بصيرُ

فإن الغباوة صفة ذمّ، خلا أنه لما اقترن بها قوله "وبالمعروف كلهم بصير" كان دليلاً على المدح.

---

[1] - والضرب الثاني: أن يكون راجعاً إلى الألفاظ. وهو أن تأتي بجمل مقطعة، وهذا كقول من قال يصف السحاب

تسربل وشيا من حرير تطرزت ... مطارفها لمعا من البرق كالتبر

فوشي بلا رقم، ونفسٌ بلا يد ... ودمع بلا عين، وضحك بلا ثغر

وكقول ابن الفارض رضي الله عنه في وصف الخمرة الإلهية:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ... ونور ولا نار وروح ولا جسم

[2] - معجم البلاغة العربية، المرجع السابق. ص ٥١٤

فمن هذا الضرب قول شاعرنا في هذه القصيدة:

لولاك لم يخلق الجنان يا سندي والنار لولاك ما كان لها أثر

فوصف الممدوح في عجز البيت بكونه سبباً لوجود النار، عكس المدح، ولكن لّما اقترن بقوله: "لولاك لم يخلق الجنان" كان فيه نهاية المدح. فالجنة مع ما فيها من النعيم الخالد والسعادة الأبدية، خلقت لتكون مأوى له ولأحبابه ومن على نهجهم من الأمم السالفة، كما أن النار – مع ما اشتملت عليه من العذاب المهين، والشقاء السرمدي – خلقت لتعذيب أعدائه وعاصيه، ومن على شاكلتهم من كفار الأمم الغابرة.

أساليب إنشائية:

الأساليب الإنشائية الطلبية أكثر استعمالاً في الشعر من الجمل الخبرية لأن الجمل الطلبية لا يحتاج الشاعر فيها إلى الإدلاء بالحجة والبرهان. فالجملة الخبرية تحتاج إلى تصديق أو تكذيب، وهذا أقرب إلى روح النثر منه إلى الشعر[١]. وإن كان هذا لا يعني أن الشعر تقتصر أساليبه على الأساليب الطلبية، أو أنه لا تتعداها إلى الأساليب الخبرية.

ومن أمثلة هذه الاستعمالات الطلبية قول جميل بثينة:

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلي؟

وقول شمس الدين الكوفي:

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلي ولا جيرانها جيراني

[١] - النقد الأدبي: الدكتور داود سلوم. مرجع سابق، ص ٤٩

فلنعد إلى شاعرنا فإننا نراه قد جعل فاتحة قصيدته في مثل هذا الأسلوب الطلبي، حيث بدأها بالاستفهام بمعنى النفي وينطوي تحته التعجب:

ماذا أقول وقولي فيك مقتصريا   سيدا طاب فيه الفكر والذكر

وأما استخدام النداء فنجده – مثلا- في قول المتنبي في سيف الدولة:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وأما صاحب رائيتنا فيقول:

يا سيد الرسل يا خير الأنام ومن   إن ضاق خطب فعند بابك الوطر

يا سيد الرسل يا خير الأنام ومن   مـــن استغـــاث بـه ينالـــه الظفـــر

وهذا النداء نداء يقصد به إقبال المدعّو. ويعتقد قرب المنادَى وهو حاضر معه في ذهنه لا يغيب عن باله وأنه استعمل الأداة "يا" التي لنداء البعيد، ليشير إلى علوّ مرتبة المنادَى وارتفاع شأنه. ويوحي هذا النداء بالتلذذ بنداء المحبوب ولذلك كرره الشاعر مرات.

ويقول في موضع آخر من القصيدة:

يا من هو الأصل في كل الوجود ومن   بنشره هذه الأكوان تعتطر

يا فخر آدم يا من نوره القمر ومن   هو العلم التاوي لـه البشر[1]

ونصادف الدعاء عند قوله:

أغث عبيداً غدا في كل هائلة   قد حفّه الكرب والهموم والوضر

وقوله:

ربي بهم وبمـــن في نهج مسلكهـــم   أرجوك فيض السواري حين تنهمر

[1] - التأوي: أل هنا موصولة

وكن لي أيا خالقي كن لي أيا سندي فأنت سؤلي بخير الخلق أنتظر

من محسنات علم البديع:

ليس البديع في يد الفنان حلية أو زينة يستغنى الكلام عنها، ولا زخرفة يأتي دورها، بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه، ولا يجئ مكانه في المرتبة الثالثة بعد استيفاء علمي المعاني والبيان حقهما، فإن الإنتاج الأدبي يبرز إلى الوجود في نظمه الخاص، وبه الصور البيانية، والمحسنات البديعية، دفعة واحدة[1].

فنون البديع كثيرة جداً، منها الجناس، والطباق، والمقابلة، والاقتباس، وحسن التقسيم، ومراعاة النظير. إلى غير ذلك من الفنون المتعددة التي سنضرب الأمثلة لبعضها بما جاء في هذه القصيدة -إن شاء الله تعالى- وقد قسمها العلماء إلى قسمين: المحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية.

أما من حيث دراسة الألوان البديعية، فإن كل لون منها مستقل عن صاحبه. فدراسة الجناس غير مرتبطة بدراسة الطباق، ودراسة المشاكلة غير مرتبطة بدراسة السجع، فليس فن منها مبنياً على فن، وليس فن منها قسيماً لفن، وذلك بخلاف ألوان البيان التي تجدها متشابكة، فالاستعارة مبنية على التشبيه، والتمثيل قسم من التشبيه، والمجاز منه مجاز في الكلمة ومنه مجاز في الحكم، والمجاز في الكلمة ينقسم إلى مجاز مرسل واستعارة، والكناية أخت المجاز... وغير ذلك من الروابط بين هذه الفنون التي يتفرّع

---

[1] - من بلاغة القرآن، مرجع سابق ص: ١٨١

بعضها عن بعض، ويستلزم بعضها بعضاً. لذلك كانت مباحث البيان كأنها مبحث واحد، وكانت مباحث البديع كأنها مباحث متفرقة[1].

وهذه المحسنات البديعية إذا قصدت لِذَاتها، فإنها كثيراً ما تكون مفسدة للقول، ومقبرة للمعاني. ولست أريد الحديث الآن عن جناية البديع على الأدب العربي عندما يراد لذاته، وأنا بصدد هذا التقديم الوجيز لبدائع هذه القصيدة. وحسبنا أن الشيخ الناصر قد استعمل هذه المحسنات البديعية في هذه القصيدة وأحسن استعمالها، بدون أي تكلف أو تصنّع يذهب برونق المعنى. وأوردها كوسيلة إلى توضيح المعاني، فبدت صناعته الفنية جميلة فاتنة تأخذ باللب، وتملك على النفس إعجابها. مما يشهد له بقوة الخلق وبراعة الافتنان. وإليك طائفة من هذه المحسنات التي جاءت في هذه القصيدة.

أ. الجناس:

هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى. وهو على أقسام مذكورة في كتب البلاغة[2].

نجد الشاعر يسوق جناساً غير تام في أماكن متفرقة من هذه القصيدة، وقد وردت الألفاظ التي بها هذا المحسن البديعي في مكانها، يتطلبها المعنى، وقد لا يغني غيرها عنها. فانظر على سبيل المثال إلى قوله في مطلع القصيدة:

[1] - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: الدكتور محمد محمد أبو موسى، ط٢، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ص ٢٢٨-٢٢٩

[2] - راجع جواهر البلاغة: ص: ٣٩٦

ماذا أقول وقولي فيك مقتصر يا سيدا طاب فيه الفكر والذكر

فالجناس في قوله: الفكر والذكر. والعلاقة بين الفكر والذكر تكاد تكون علاقة تلازم. فالذي يفكر في شيء لابد أن يكون هذا الشيء الذي يجول بفكره موضوع حديثه مهما فتح فاه. فأنت ذا ترى أن كلمة الفكر مستقرة في مكانها، وأن أداء المعنى كاملاً يطلب إيراد كلمة الذكر، حتى إذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظي.

وقل مثل ذلك في قوله:

فصاحة حكمة هشاشة بشش صدق وفاءً صفاء رقة بصَرُ

فالجناس هنا في "وفاء" و "صفاً". فإنّ شدة التشابه بين الكلمتين وفاء وصفاء يوحي بالقرابة بينهما، مما يجعل إحداهما ملازمة للأخرى. فالوفاء إتمام العهد والمحافظة عليه. والصفاء النقاء وإخلاص المودة، فالصلة بينهما قوية، فكان الوفاء يأتي نتيجة لإخلاص المودة.

ب. الطباق:

هو "المطابقة" ويسمى أيضاً "التطبيق" و "التضاد" و "التكافؤ". وهو الجمع بين متضادين أو متقابلين في الجملة سواء كان التقابل حقيقياً أم اعتبارياً أم بالإيجاب والسلب[1]. وله أقسام مذكورة في كتب البلاغة، مثاله: قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد: ١٦].

فمن أمثلة الطباق في هذه القصيدة قول الشيخ:

---

[1] - معجم البلاغة العربية، مرجع سابق، ص: ٣٦٣

أنت السميذع والأملاك رمتها   في كفكم تنتهي بكم و تأتمر

وقوله:

حيث المناكر لم يعرف لها أثر   وحيث تنتهز الآصال و البكَرُ

وقوله:

كم من طعام قليل صار ذا كثر   ونبذة أحجمت عن أكلها النفر

فأنت ترى الطباق بين الكلمات التي وضعنا الخطّ تحتها في الأبيات المذكورة.

ونلاحظ أن كل ما ورد من طباق هنا، جاء ليؤدي المعنى خير أداء، ولم يأت به الشاعر كمجرد حلى لا علاقة له بالمعنى. بل إن كل كلمة مستقرة في مكانها تمام الاستقرار. فالسيطرة مثلاً لا تكتمل بالنهي دون الأمر، كما أن انتهاز الفرص في العشي والأبكار يكون أشمل لجميع الأوقات من حصرها مثلاً بالآصال فقط أو العكس. كما أن المعنى لا يتم عند الإخبار من تحوّل الطعام القليل إلا بعد ذكر ما تحوّل إليه من الكثرة.

ومن ذلك ترى أن ما ورد في هذه الأبيات من طباق لم يجئ اعتسافاً، وإنما جاء المعنى مصوراً في هذه الألفاظ، التي أدت المعنى خير أداء وأوفاه، وكان منها هذا الطباق.

ج. الاقتباس:

الاقتباس هو تضمين النثر أو الشعر شيئاً من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنه منهما. ويجوز أن يغيّر في الأثر المقتبس

قليلاً[1]. والأصل في الاقتباس هو إعجاب الشاعر بالنص الذي يريد أن يقتبسه وأنه محتاج إليه لأداء معنى لإنتاجه فيضمنه أبيات قصيدته. ومصدر إعجاب الشاعر بما يريد تضمينه أن يكون قد أعجب بالنص الذي صادف هوى في نفسه أو تمشى مع هدف قصيدته وحينئذ يسارع إلى اقتناصه وتزيين قصيدته به[2].

وهذا الشيخ الناصر يقتبس طرفاً من الحديث النبوي الشريف يتفق مع غرضه في عدّ معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وخصائصه فيقول:

والرعب يمشي أمام الجيش ينصركم   وخلفكم مثله يا نعم منتصر

فالمصراع الأول من هذا البيت مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر.."[3].

ومثال آخر للاقتباس في هذه القصيدة قوله:

منازل ومقامات ومنه له   وغير ذلك مشهور ومنتشر

قد كان سيدنا في كل فاضلة   منها على مرقب لا يدرك الْبَصَرُ

فالمصراع الأخير من البيت الثاني مقتبس من الآية الكريمة: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[4]

---

[1] - البلاغة الواضحة: على الجارم ومصطفى أمين، ص:٢٧٠

[2] - فنون الشعر الحمداني، ص: ٥١٩

[3] - رواه البخاري ومسلم "مختار الأحاديث والحكم المحمدية". السيد أحمد الهاشمي، ص: ٢٤

[4] - سورة الأنعام: ١٠٣

د. التلميح:

وعدوا من ألوان التلميح البديع ، وهو الإشارة إلى قصة معلومة، أو شعر مشهور أو مثل سائر، من غير ذكره[١]. ومثاله في هذه القصيدة قوله:

اختارك الله للعليا وغيركم   ذارّت جوهرة من ظهرك انحدروا

أشار بعجز هذا البيت إلى قصة أخذ الميثاق في عالم الذر، حينما أخرج الله بني آدم بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلاً بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر، وذلك "بنعمان العراك" يوم عرفة[٢].

هـ. مراعاة النظير:

ويعدون كذلك من أنواع البديع مراعاة النظير، ويعنون بها الجمع بين أمرين، أو أمور متناسبة، لا على جهة التضاد، مثل قوله تعالى: ﴿وهو السميع البصير﴾. فذكر السمع مناسب لذكر البصر. وكقول الوأواء الدمشقي في ذكر الخمر:

وكأنها وكأن حامل كأسها   إذ قام يجلوها على الندماء

شمس الضحى رقصت فنقّط   وجهها بدر الدجى بكواكب الجوزاء

فالشمس والبدر وكواكب الجوزاء كلها نظراء.

وقد عمد الشيخ الناصر إلى مراعاة النظير في اختيار ألفاظ بعض أبيات هذه القصيدة فنجده يقول في موضع منها – مثلاً –:

---

[١] - جواهر البلاغة، ص: ٤١٨

[٢] - انظر الصاوي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٢. ج: ٢ ص: ١٠٦-١٠٨

حيث الأحاديث مرفوع أساندها   حيث الأوامر بالإخلاص تأتمر

فهناك مراعاة للنظر بين الحديث والسند.

ويقول أيضاً:

حيث العدالـــة بالتبريز ظاهــرة   وحيثما الزهــد والإيثار مشتهــر

حيث الحقائق بالتحقيق طافحة   حيث الشموس مع الأقمار تستفر

حيث الجمال وحيث الحسن ناصعه   حيث الرشاقــة والإبلاج والحور

قد طاب أصلاً وفرعاً كان محتده   عدنان مـــــــدركة إلياسه مضر

فهناك مراعاة للنظير بين الزهد والإيثار، وكذلك بين الشموس والأقمار. والجمال والنصاعة والرشاقة والإبلاج والحور كلها نظراء. وكذلك الأمر في الأصل والفرع والمحتد.

و. المبالغة:

نصادف في هذه القصيدة ما قد نستطيع أن نسميه مبالغة. وهي في عرف البلاغيين: أن يدعي المتكلم لوصف، بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستبعداً أو مستحيلاً[1]. وهي على ثلاثة أنواع مذكورة في كتب البلاغة.

مثالها قول الشيخ في إحدى قصائده في الرثاء:[2]

نوائب لو صبّت على الشمس أظلمت   ولو صادفت عرباً لأضحوا بها عجما

تحيّر أربـــاب العقـــول إذا دهـــت   وتكسف من تبريحها القمر التما

---

[1] - جواهر البلاغة، مرجع سابق ص: ٣٨٠

[2] - بعض الظواهر الفنية في شعر مولانا الدكتور محمد الناصر، مرجع سابق، ص: ٤٦-٤٧

فانظر كيف أن النوائب التي ألمت به لو أنها صبت على الشمس لتحوّلت من حالة الضياء إلى الظلمة. وكذلك أنها إذا صادفت العرب فإنها تحولهم من العروبة إلى العجمة، ولانكسف القمر من عظم هولها وشدتها. ولا شك أن كل واحدٍ من هذه الأشياء فيه مبالغة بلغت حداً مستبعداً أو مستحيلاً عقلاً وعادةً، وهو محمود فنياً.

أما المبالغة التي نلمسها في هذه القصيدة التي ما زلنا نتجول في أرجائها، فهي قوله:

إبليس لو اجتلى من نور طلعته لكان أول من يعنو ويعتفر

فانظر كيف استغرق الشاعر في رؤية الكمال المحمدي، حتى إنه يشعر بأنه لّما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لسيدنا آدم عليه السلام، فسجدوا إلا إبليس اللعين أبى واستكبر وقال: أنا خير منه، خلقتني من نارٍ وخلقته من طين. فالشاعر يعتقد أنه لو اطلع إلى نور محيا المصطفى صلى الله عليه وسلم لبهره هذا الجمال والجلال، ولما داخله هذا الكبر والعجب، بحيث يكون أول من يخضع ويذلّ، بل ويمرّغ وجهه ويدّسه في التراب من شدة هيبته صلى الله عليه وسلم. ولابد أننا نشمّ نوعاً من المبالغة في هذا الأسلوب. فإبليس محكوم عليه بالشقاء الأزلي السرمدي، فلا سبيل له إلى امتثال هذا الأمر الإلهي الذي قد يوجب له الرضوان.

هذا، وربما لا يوافقني في هذا من يتذوق البيت بذوق صوفي. فلا يرى أن فيما يقوله الشيخ نوعاً من المبالغة، إذ ليس فيه شيء مستبعد أو مستحيل. والله أعلم.

ز. **التورية:**

ومما يلاقينا أيضاً في هذه القصيدة، هذا النوع من المحسنات البديعية المسمى بالتورية، وهي: أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، قريب غير مراد، وبعيد خفيّ وهو المراد.

ونجد هذه الظاهرة عند قول الشيخ في أواخر القصيدة متوسلاً ببعض شيوخه:

كالمجتبـــى وولي الله نعمتــه   الغيث والشيخ ما العينين والخضر
ربي بهم وبمن في نهج مسلكهم   أرجوك فيض السواري حين تنهمر

فكلمة "الغيث" هنا لها معنيان، أحدهما المطر، وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن، لأن الشاعر في محل مدح فيتبادر إلى الذهن أنه يمدح الشيخ "محمد النعمة" بوصفه بالغيث الذي هو المطر. والثاني أن الغيث لقب لهذا الشيخ، بل كثيراً ما يدعي بالغيث فقط بدون ذكر "النعمة". إلا أن القارئ الذي لا معرفة له بهذا الشيخ يظن أن الغيث مدح له. ولكن "الغيث" هنا علم له لا نعت. وهذا المعنى الثاني بعيد خفيّ وهو المراد من الشاعر.

والتورية – كما يقول الإمام السيوطي – فن عظيم، وهي والاستخدام أفضل أنواع البديع. وتسمى أيضاً بالإيهام[1].

[1] - بعض الظواهر الفنية، المرجع السابق، ص: ٣٨ نقلاً عن شرح عقود الجمان، ص: ١١٢

٣. الجانب الموسيقي

الشعر فن من الفنون الجميلة، مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت. وهو في أغلب أحواله يخاطب العاطفة، ويستثير المشاعر والوجدان، وهو جميل في تخير ألفاظه، جميل في تركب كلماته، جميل في توالي مقاطعه، وانسجامها بحيث تتردد ويتكرر بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغماً منتظماً. فالشعر صورة جميلة من صور الكلام[١].

وللشعر نواح عدة للجمال، أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع وتردد بعضها بعد قدرُ معين منها، وكل هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر[٢]. فموسيقى الشعر إذا أمران: النغم المنتظم، وهو التفعيلات. وجرس الألفاظ[٣]. والموسيقى أبرز صفات الشعر، فلا يوجد شعر بدون موسيقى، وهي فيه تقوم مقام الألوان في الصورة، فكما أنه لا توجد صورة بدون ألوان، كذلك لا يوجد شعر بدون موسيقى وأوزان وأنغام[٤].

والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباها عجيباً، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع من مقاطع لتتكون منها

---

[١] - موسيقى الشعر: الدكتور إبراهيم أنيس، الطبعة الرابعة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢ ص: ٧.

[٢] - المرجع السابق، ص:٨-٩

[٣] - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: الدكتور عبد الله الطيب المجذوب ج١. الطبعة الأولىمطبعة مصطفى الباني الحلبي – بمصر، ١٣٧٤هـ ، ص: ٧٤

[٤] - في النقد الأدبي: الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، (بدون تاريخ). ص: ٩٧.

جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس أخرى، والتي تنتهي بعد عدد معين من المقاطع بأصوات بعينها نسميها القافية[١].

وكل هذا مما يثير الانتباه أو يبعث على الإعجاب والاهتمام. فإذا سيطر النغم الشعري على السامع وجدنا له انفعالاً في صورة الحزن حيناً، والبهجة حينا آخر، والحماس أحياناً. وصحب هذا الانفعال النفسي هزات جسمانية معبرة ومنتظمة نلحظها في المنشد وسامعيه معاً[٢].

وموسيقى الشعر على حدّ قول الدكتور شوقي ضيف، على نوعين: الظاهرة، وهي ما تضبطها قواعد عملي العروض والقوافي. والخفية، وهي تنبع من اختيار الشاعر لكلماته، وما بينها من تلائم في الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة، تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام[٣].

واستمر الدكتور شوقي قائلاً: وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء، ولعل شاعر عربياً لم يستوف منها ما استوفاه البحتري، ولذلك كان القدماء يقولون إن بشعره صنعة خفية، فشعره أصوات جميلة وغناء مطرب، وقلّماً وجدنا عنده تجديداً في المعاني ولكن دائماً نجد عنده الأصوات المعجبة، والألفاظ الجميلة، فهو بلبل الشعر العربي يصدح دائماً بأنغامه[٤].

---

[١] - موسيقى الشعر، ص:١٣

[٢] - نفسه ص: ١٤

[٣] - في النقد الأدبي، مرجع سابق، ص:٩٧

[٤]- المرجع السابق والصفحة

وما كان لنا أن نخوض في غمار التفصيلات عن الموسيقى في الشعر العربي في مثل هذا التقديم الوجيز للجانب الموسيقي في هذه القصيدة التي نحن بصددها. بل يكفينا أن نقف عند هذا الحدّ، ومن يريدها فليراجعها في مظانّها، مثل كتاب الدكتور إبراهيم أنيس "موسيقى الشعر".

إذا فلنعد إلى هذه القصيدة لنقف على بعض ظواهرها الموسيقية.

بحر القصيدة:

لقد نظم الشيخ هذه القصيدة على أحد البحور الخليلية، وهو "البحر البسيط" ومقياس وزن هذا البحر عند العروضيين كما يلي: -

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

غير أن التفعلية الأخيرة "**فاعلن**" لا ترد في الشعر العربي على هذه الصورة، وإنما نراها في الشطر الأول "**فَعِلُن**" دائماً إلا إذا كان البيت مصرعاً، فحينئذ يتبع الشطر الأول في نهايته ما تكون عليه نهاية الشطر الثاني.

أما الشطر الثاني فتتخذ التفعلية الأخيرة (**فاعلن**) إحدى الصورتين: **فَعِلُنفَعْلُنْ**

والتفاعيل التي في حشو البيت من "**مستفعلن، فاعلن**" لا تلتزم هذه الصورة في أبيات القصيدة الواحدة، بل نرى "**مستفعلن**" في بعض الأحيان تصير "**مُتفعلن**" كما نرى "**فاعلن**" تصير في بعض الأحيان "**فَعِلن**".

وعلى هذا فالبحر البسيط يمكن أن تقسم قصائده إلى نوعين:

١. قصائد تنتهي كل أبياتها بوزن "**فعِلُن**" مثال ذلك قول النابغة في داليته:

يا دار مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فَالسنَّدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عليها سالفُ الأمَد

٢. قصائد تنتهي كل أبياتها بوزن "**فَعْلُن**"[١] كما في رائية النابغة أيضاً:

عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَة الدَّارِمَاذَا تُحَيُّونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

وقصيدتنا تقع في النوع الأول من نوعي هذا البحر:

ماذا أفو /ل وقو/ لي فيك مق / تصرن

مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن

يا سييدن/ طاب في/ هل فكروذ/ ذكرو

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

أثنا عليـ/ك إلا/ هل عرش خا/ لقنا

مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن

بأحسنل/ خلق ما/ ذايذكرل/بشرو

متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

فجميع أشطر أبيات هذه القصيدة من ألفها إلى يائها قد انتهت بالوزن "**فعلن**" إلا في أربعة مواضع، وهي قوله:

حقيقة دققت شريعة حقّقت إسلام إيمان إحسان حمى ستر

ففي الشطر الأول من هذا البيت نجد أنه انتهى بالوزن "**فاعلن**" بينما نجد في نهاية الشطر الثاني "**فعْلن**" بسكون العين. ثم بعد ذلك قوله في بيت آخر:

وسيلة كوثر حوض لوا رفق قيامه بمقام ماله بشر

---

[١] - جميع هذا الكلام مأخوذ من كتاب "موسيقى الشعر" ص: ٧١ (بتصرف)

فآخر الشطر الأول هنا أيضاً قد انتهى بالوزن "فعْلن" بسكون العين. ثم أخيراً قوله:

شق له البدر والشمس له حبست   وكم أتى نابعاً من عشره الغمر

حيث نجد في آخر الشطر الثاني نفس ما قد سبق.

أما في الحشو فنجد تارة "**فعلن**" وتارة "**فاعلن**" وكلتا الصورتين حسن تستريح إليه الأذن وتطمئن إليه. كما أشار إلى ذلك الدكتور إبراهيم أنيس[1].

أما المقياس "**مستفعلن**" فإننا نرى أنه يتغير تارة إلى "**متفْعلن**" في أوائل بعض أبيات هذه القصيدة، ونلحظ أن هذا التغيير قد وقع في تسع وثلاثين بيتاً منها. كما نجد مثل هذا التغيير في بداية الشطر الثاني من بعض الأبيات. وقد استحسن النقاد مثل هذا التصرف في وزن قصائد هذا البحر. يقول الدكتور إبراهيم أنيس في موسيقاه في هذا الصدد"... ووقوعه في أول الشطر – (أي تغيير **مستفعلن** إلى **متَفْعلن**) – حسن جميل تميل إليه الأسماع ولا تنفر منه. ويظهر أن جميع الشعراء المحدثين قد آثروا هذا حين نظموا من هذا البحر..."[2].

أما وجود مثل هذا التغيير في حشو البيت فأمر اختلفت أنظار الباحثين فيه، فبينما عدّه أهل العروض صالحاً مقبولاً، فإننا نجد الدكتور إبراهيم أنيس يشمئز منه ويرى أن الأذن تنفر منه ولا تكاد تستسيغه[3]. وعلى أيّ

(1) - موسيقى الشعر،ص: ٧٣
(2) - المرجع السابق ص: ٧٣
(3) -نفسه ص: ٧٤

حال فإننا نستطيع أن نقف على بعض الأمثلة. لمثل هذا التغيير في هذه القصيدة. وإن كانت نادرة جداً. نذكر على سبيل المثال قول الشاعر:

لولاك لم يخلق الجنان يا سندي والنار لولاك ما كان لها أثر

بقي أن نشير إلى أن الشاعر قد زاد حرفاً واحداً قبل وزن "**مستفعلن**" الذي في أول البيت الذي قبل الأخير في هذه القصيدة حيث قال:

وكن لي أيا خالقي كن لي أيا سندي فأنت سؤلي بخير الخلق أنتظر

فقوله "كن لي أيا" وزنها مستفعلن، وزيدت قبلها الواو. وشاهد هذا في الشعر العربي قول امرئ القيس:

وكأن أبانا في أفانين ودقه كبير أناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ[1]

فكلمة "كأن" وزنها "**فعول**" وزيدت قبلها الواو. وقد تكون الزيادة بحرفين أو ثلاثة أو أربعة. وشذّت بأكثر من أربعة في أول الشطر. ومثال الحرفين قول الشاعر:

يا مطر بن ناحية بن سامة إنني أجفى وتغلق دوني الأبواب

فقوله "مطربن نا" وزنها متفاعلن، وزيد قبلها لفظ "يا" ومثال ثلاثة أحرف قول كعب بن مالك الأنصاري، من قصيدة يرثى بها سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهما:

لقد عجبت لقوم أسلموا بعد عزّهم إمامَهُمو للمنكرات وللغدر

[1] - وفي رواية (وكأن ثبيراً في عرانين وبله). وثبير: جبل بعينه. وعرانين وبله: أوائل المطر، وكذلك أفانين ودقه: كناية عن المطر الغزير. بجاد: كساء مخطط، مزمل: ملفق – أنظر شرح أهدى سبيل إلى علمي الخليل: للأستاذ محمود مصطفى، ص: ٥٤-٥٥

فأول الموزن في البيت كلمة "عجبت" وهي على وزن "فعول" ولفظ "لقد" زيد قبل ذلك[1].

وقد ذكر الأستاذ محمود مصطفى بأن هذه الزيادة نادرة الوقوع في الشعر العربي. وعدها من العلل الغير المقبولة[2]. إلا أن أصحاب العروض قد أجازوا ذلك وقالوا: "جازت هذه الزيادة في أوائل الأبيات، ولم يُعتَدَّ بها، كما زيدت في الكلام حروف لا يعتدّ بها، نحو ما في قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾، والمعنى فبرحمةٍ من الله...[3]

وبالجملة فإننا نستطيع أن نحكم لهذه القصيدة باستقامة الوزن من الناحية العروضية، وهو من الظواهر التي اشتهر بها شاعرنا في كل قصائده، وسواء في ذلك العربية منها أو الهوسوية. وما عليك إلا أن ترجع إلى دواوينه الشعرية[4] لتقف على مصداق ما ندّعيه، وهذا – بلا شك – مما يشهد بعلوّ كعب شاعرنا في علمي العروض والقوافي. وإن كنت لا أقصد بهذا أنّ جودة الشعر متوقفة على معرفة العروض، فليست هناك قيمة لمعرفة العروض – بما احتوى عليه من البحور على اختلاف ضروبها وأعاريضها –

---

[1] - شرح أهدى سبيل إلى علمي الخليل، : ٥٤-٥٥

[2] - المرجع نفسه ص: ٤٥

[3] - لسان العرب لابن منظور، مادة (خرم) وفيه كلام واف حول هذه الزيادة التي يسميها العُرضيون "بالخزم"

[4] - له ديوانان في العربية: (١) سبحات الأنوار، الذي جمعه تلميذه الشيخ يوسف بن عبد الله مكوراري، (٢) نغمات الطار، الذي قمت بجمعه في مشروع التخرّج لمرحلة الليسانس. وفي الهوسا له ديوان باسم "ديوان الحقائق الإسلامية على لسان إقليم تَمَازَيا الهوساوية، قام بجمعه إبنه السيد جابر الأنصاري.

إذا لم يكن الشاعر مطبوعاً، إذ أنه بدون الطبع والملكة، سيغرق في هذه البحور ويختنق!.

فأساس الشعر الطبع، فقد:

كان شعر الورى قويم   من قبل أن يولد إبراهيم

فالشيخ قد رزق الطبع. ثم أضاف إلى ذلك معرفة قوية بعلم العروض[1].

وبحر البسيط هذا الذي نظم الشيخ قصيدته على منواله هو أحد الأوزان الشعرية الخمسة عشر التي اكتشفها شيخ العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي وسمي كلا منها بحراً. وقيل إن سبب تسميته الوزن من أوزان الشعر بحراً أنه شبيه بالبحر، فهذا يغترف منه ولا تنتهي مادته، وبحر الشعر يورد عليه من الأمثلة ما لا حصر له[2].

أما تسمية هذا البحر بالبسيط، فقد روى عن الأخفش أنه قال: سألت الخليل – بعد أن عمل كتاب العروض – لم سميت الطويل طويلاً؟ قال: لأنه طال بتمام أجزائه. قلت: فالبسيط؟ قال: لأنه انبسط عن مدى الطويل، وجاء وسطه "**فعلن**" وآخره "فعلن"...[3]

يقول البروفيسور عبد الله الطيب المجذوب في كتابه "المرشد إلى فهم أشعار العرب": "الطويل والبسيط أطول بحور الشعر العربي، وأعظمها أبّهة

(1) - طلابه خير من يشهد بذلك، حيث أنه لا يحتاج إلى نظر كتاب في درس العروض، بل إن جميع الشواهد كانت محفوظة في رأسه، وقل هذا في درس النحو والبلاغة وسائر العلوم العربية، وبالأخص مختارات الشعر الجاهلي.

(2) - شرح أهدى سبيل: ص ٦٣

(3) - الشعراء وإنشاد الشعر، علي الجندي، دار المعارف – مصر د.ت، ص:١٠٨ – ١٠٩ نقلاً عن العمدة ٨٩/١

وجلالة، وإليهما يعمد أصحاب الرصانة. وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهجنة. وهما في الأوزان العربية بمنزلة السّداسي عند الإغريق، والمرسل التامّ عند الإنجليز"[1].

ويقول الأستاذ الشاعر عليّ الجندي، وهو في معرض الحديث عن بحر الطويل:

"... وهو (أي الطويل) وأخوه البسيط يعدّان بحري الجزالة والفخامة، فيغلب على المنظومة منهما الرصانة، والمتانة، وشدة الأسر، وروعة السّرد، وصلابة الحوك، ولذلك يحتاجان إلى ثقافة لغوية ضخمة، وثروة من الأخيلة والمعاني الواسعة، لا تتفق لكل شاعر. فالنظم منهما مزلّة للشاعر الضحل، القليل الحظ من الأساليب العربية، وامتحان قاس من الخير ألا يدخله إلا الفائقون[2].

أما من حيث كثرة استعمال البحور الشعرية، فإننا نرى أن البسيط يحتل المرتبة الثانية بعد الطويل، وذلك في العصور العربية الأولى. وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "إن البحر الطويل قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي.. ثم نرى كلاً من الكامل والبسيط يحتل المرتبة الثانية في نسبة الشيوع"[3].

---

[1] - المرشد ص:٣٩٢

[2] - الشعراء وإنشاد الشعر، ص:١٠٢

[3] - موسيقى الشعر. ص:١٩١

أما في العصر الحديث فيبين لنا الأستاذ عبد الله الطيب أن "...البسيط بحر معرض عنه بين المعاصرين. ولا يكاد ينظم فيه إلا من يدعون بأصحاب المدرسة القديمة[1].

وبالنسبة للمعاني أو العواطف التي تناسب هذا البحر، فإن الدكتور عبد الله الطيب المجذوب قد جمعها لنا في نقطتين، حيث يقول: "ولا يكاد روح البسيط يخلو من أحد النقيضين: العنف أو اللين[2] ثم قال في موضع آخر: "ولإحساس الشعراء بما في رنة البسيط من ملاءمة للعنف، وبما بمجراه من الكلام الصارخ الجهير، تجدهم فيه قد أكثروا من قصائد التحريض والعتاب والهجاء المقُرِّع، وشكوى الدهر، وشكوى الناس. والقصائد الجياد الطنّانة التي وردت في المعنى أكثر مما جاء من نظائرها في غيره[3].

والسرّ في صلاحية البسيط لهذين النقيضين: أي الكلام العنيف أو الرقيق الباكي، على حسب ما ذكره الدكتور المجذوب هو أن نغمه يتطلب عاطفة قوية – أنّى كان نوعها – يعبر عنها الشاعر تعبيراً خطابياً جهيراً، ويلزم مع ذلك جانب الجلالة والرّفعة. وهاتان الصفتان هما اللتان تجمعان بينه وبين الطويل[4].

وإذا نظرنا إلى مدائح البسيط خاصة، وجدناها كلها تعمد إلى التفخيم، وتَحُم حمّ الخطابة، فإن كان صاحبها جاء بها معتذراً كما فعل كعب بن

(1) - المرشد: ٤٨٠
(2) - المرشد ج١ ص:٤٥٢
(3) - المرجع السابق ص: ٤٧١
(4) - نفسه ص: ٤٨٠

زهير أمام النبي صلى الله عليه وسلم، والنابغة أمام النعمان، فإنه يبالغ في الحلف، ويندفع في تمجيد الممدوح وإظهار قوته متطرّفاً في ذلك... وإذا كان المدح خالصاً لا يراد به اعتذاراً أو شيء من ذلك النّحو، رأيت الفخامة وعنصر القوّة يغلب عليه، كما في ميمية زهير[١].

حيّ الديار التي لم يَعفها القدَمُ بَلى وَغَيَّرها الأَرْوَاحُ وَالدِّيَمُ

هذا، ومن النقاد من لا يذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور عبد الله الطيب من محاولة تفسير ذاتية الأوزان، ومحاولة تطبيق كل بحر على مجموعة من العواطف المعينة. من هؤلاء الدكتور داوم سلوم في كتابه "النقد الأدبي" حيث يقول: "... إن البحور العربية اشتركت في تأدية عواطف كثيرة مشتركة، فالطويل المتكرر لكل ما يتوقع القارئ من عواطف وموضوعات وبقى حيث هو، فقد حمل لنا كثيراً من المدح والهجاء والرثاء والحماسة والغزل وما شابه هذه العواطف، فأين هي الفوارق إذن في تغيير العواطف وتأدية البحر لها؟[٢]

وقد قام الدكتور داود بهجوم عنيف على عبد الله الطيب انتهى به إلى السخرية منه[٣]. كما وجّه مثل هذا النقد أيضاً إلى الدكتور عزّ الدين

---

[١] - نفسه ص:٤٦٩-٤٧٠ (بتصرف) وقد تكلم المجذوب في مرشده هذا بكلام طويل حول هذه القضية – أي العاطفة التي تلائم البحر البسيط – بما ينيف على ثلاثين صفحة ولا يسعني إلا أن أحيل القارئ إليه

[٢] - النقد الأدبي، ص:٢٠٧

[٣] - المرجع السابق: ص: ٢١٦-٢١٧

إسماعيل الذي تحدث هو الآخر عن العلاقة بين البحور والنفس في كتابه "التفسير النفسي للأدب"[1].

ومن نحا هذا المنحى الدكتور شوقي ضيف، حيث يقول وهو في معرض الحديث عن موسيقى الشعر: "...ولابد أن نشير إلى أننا لا نؤمن بما ذهب إليه بعض المعاصرين من محاولة الربط بين موضوع القصيدة والوزن الذي تُنْظَمُ فيه، فحقائق شعرنا تنقض ذلك نقضاً تاماً، إذ القصيدة تشمل على موضوعات عدة، ولم يحاول الشعراء أن يخصصوا الموضوعات بأوزان لها، لا تنظم إلا فيها، فكل موضوع نُظِمَ في أوزان مختلفة، وكل وزن نظمتْ فيه موضوعات مختلفة"[2].

ولي هنا وقفة قصيرة أقول فيها: حقاً لم يؤثر عن العرب أنهم خصصوا أوزاناً لعواطف معينة، بل إن كثيراً منهم نظموا أشعارهم على حين غفلة من العروض وما انطوى عليه من البحور، ولكن مع ذلك فإنه لا ينبغي لنا أن نرمي بهذا المجهود الذي قام به عبد الله الطيب وأمثاله من محاولة الربط بين الوزن والعاطفة، إذ لا غرابة في أن يكتشف هذه الظاهرة في الشعر العربي بعد تجربة عميقة، واستعراض دقيق لضروب البحور الشعرية المختلفة، فيصل إلى أن عاطفة كذا مثلا تلائم وزن كذا، وأن الشعر الذي نظم من هذه العاطفة على هذا الوزن يكون أقوى من غيره، مستنداً في ذلك إلى أمثلة مستفيضة من الشعر العربي.

---

[1] - نفسه ص: ٢١٣-٢١٦

[2] - في النقد الأدبي ص: ١٥٢

أما القول بتخصيص الأوزان بموضوعات لا تنظم إلا فيها، فهذا أمر لا نستسيغه، بل لا أظن حتى الدكتور عبد الله نفسه يدّعى ذلك. وخاصة إذا تأملنا قوله في "المرشد" تحت موضوع (أوزان الشعر وموسيقاها): "...ومرادي أن أحاول بقدر المستطاع تبيين أنواع الشعر التي تناسب البحور المختلفة. وقد يقول قائل: ما معنى قولك هذا؟ أتعني أن أغراض الشعر المختلفة تتطلب بحوراً بأعينها، وتنفر عن بحور بأعينها؟ هذا عين الباطل! ألسنا نجد مراثي في الطويل، وأخر في البسيط، وأخر في المنسرح، وهلّم جرا؟ ألا يدلّ هذا على أن أي بحر من البحور يصلح أن يُنْظم فيه لأي غرض من الأغراض الشعرية؟ وجوابي عن مثل هذا السؤال: بلى، كما يبدو ويظهر، ولكن كلاً وألف كلا، لو تأمل الناقد ودقق وتعمق. فاختلاف أوزان البحور نفسه، معناه أن أغراضاً مختلفة دعتْ إلى ذلك، وإلا فقد كانت أغنى بحر واحد، ووزن واحد. وهل يتصور في المعقول أن يصلح بحر الطويل الأول للشعر المعبر عن الرقص والنّقزان والخفه..)[1].

وعلى كل حال فإن هذه المسألة، مسألة عويصة، تحتاج إلى تحقيق وتدقيق، إلا أننا نكتفي بهذا القدر. ونولّ وجهنا شطر سبب اختيار الشاعر لهذا البحر.

سبب اختيار الشيخ لهذا البحر:

قد نتساءل لماذا اختار الشيخ هذا الوزن (البسيط) من بين الأوزان الخليلية، فصاغ عليه هذه القصيدة؟ إلاّ أنه من العسير جداً أن نقطع

---

[1] - المرشد ج١: ٧٤-٧٥

بسبب بعينه يجعل الشيخ يفضل هذا البحر على غيره في نظم هذه القصيدة. أقرب شيء إلى العقل هو أنه جادت القريحة بهذه القصيدة هكذا. وإن كان هذا لا يمنع من أن نفكر في أسباب أخرى، منها:

إن البسيط كان من بحور المرتبة الأولى عند شعراء الجاهلية والقرنين الهجريين الأولين، وهذه البحور هي الطويل فالبسيط فالكامل[١]. وبما أن الشيخ ينتمي أدبه إلى المدرسة الكلاسيكية، فلا غرابة أن نجد له قصيدة كهذه في البسيط. وقد سبق أن ذكرنا قول الدكتور عبد الله الطيب بأن البسيط بحر معرض عنه بين المعاصرين، ولا يكاد ينظم فيه إلا من يُدعون بأصحاب المدرسة القديمة[٢]

ثم إن البسيط قد جاءت فيه قصيدتان هما من أشهر ما قيل في المديح النبوي، وهما: قصيدة سيدنا كعب بن زهير: "بانت سعاد" و "البردة" للإمام البوصيري، التي عمّ دويّها الآفاق، وتغني بها المسلمون في الشرق والغرب، فلا بقعة من بقاع الأرض يوجد فيها المسلمون إلا وفيهم من ينشدونها في المواسم والأعياد. وقد لا يجانبنا الصواب إذا قلنا إن البردة هي أشهر قصيدة ساد سلطانها بين العوام والخواص في العالم الإسلامي بأجمعه. وقد تحدث الدكتور زكي مبارك عن أثر هذه القصيدة في اللغة العربية، وذكر من عارضوها[٣] وشطّروها[٤] وخمسوها[١] وسبعوها[٢] كما أن محمد آدم

---

[١] - الشعر الشنقيطي، الدكتور أحمد ولد الحسن، ط١؛ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية – ليبيا، ١٩٩٥م ص:١٧٩

[٢] - المرشد ج١، ص ٤٨٠

[٣] - أي حاكوها ونسجوا على منوالها.

[٤] - التشطير: هو أن يعمد الشاعر إلى أبيات لغيره، فيضمّ إلى كل شطر منها شطراً =

أبوبكر قد تكلم في رسالته للماجستير عن تأثير قصيدة البردة في الحياة الأدبية لدى بعض علماء مدينة كنو[٣].

ونظراً إلى هذا فلا غرابة إذن من أن نجد الشيخ الناصر هو الآخر ينظم قصيدة – كهذه – في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على وزن قصيدة البردة. وإن كانت هناك بعض الفوارق بين القصيدتين من حيث طريقة العرض أو المنهج، ومن حيث المحتوى.

وليست هذه القصيدة هي الوحيدة التي ينظمها الشيخ الناصر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على وزن البسيط، بل هناك قصيدة تقع في خمسة وثلاثين بيتاً مطلعها:

والله والله إن المصطفى المضري   هو الشفيع من الأسقام والوضر

ثم قصيدته المهملة التي مطلعها:

أعلى سلام لأعلى الرسل إعلاماً   وأكرم الرسل إكراماً وإسلاماً

يزيده عليه عَجزاً لصدر، وصدراً لعجز

[١] - التخميس: هو أن يقدم الشاعر على البيت من شعر غيره فيضم إليه ثلاثة أشطر، على قافية الشطر أول، فتصير خمسة أشطر

[٢] - المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك ص: ١٦١-١٦٨. والتسبيع هو أن يقدّم الشاعر على البيت من شعر غيره خمسة أشطر، على قافية الشطر الأول، فتصير سبعة أشطر.

[٣] - انظر "مظاهر تأثير قصيدة البردة في الحياة الأدبية والروحية لدى بعض علماء مدينة كنو "محمد آدم أبوبكر" (رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية جامعة بايرو، كنو، ١٩٩٥م) ٥٨-٩٣.

وكذلك تخميسه لقصيدة الشيخ أبي بكر عتيق "المواهب الأحدية في مدح الحضرات المحمدية" الواقعة في أربع وستين بيتاً، ومطلعها:

يا أشرف الخلق يا أعلى الورى غرفاً   يا أكرم الخلق يا أسمى الورى شرفاً

يا أعظم الخلـــق يا أوفــاه مغترفاً   يا رحمة الله يا مــن قد رقى فصفا

ونال ما ليس يدريه الذي وصفا

هذه هي الأمور التي نرى أنها قد تكون سبباً لاختيار الشيخ لهذا البحر. بقي أن ننظر إلى رويّ هذه القصيدة لنرى هل وفق الشاعر في اختياره كما وُفّق في اختيار البحر أم لا؟

رويّ القصيدة:

اختار الشيخ حرف الراء ليكون روياً لهذه القصيدة – كما رأيت – والراء من الحروف التي استحسنها النقّاد – قديماً وحديثاً – لأن تكون قافية للقصيدة. وحذروا من ركوب بعض الحروف لأنها تشين الشعر. فهذا ابن الأثير – من القدامى – ينادي الأدباء باجتناب اتخاذ بعض الحروف لتكون روياً، حيث يقول: "واعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يجتنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء، والذال، والخاء، والشين، والصاد، والطاء، والظاء، والغين. فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها. والناظم في ذلك أشد ملامة، لأنه يتعرض لأن ينظم قصيدة ذات أبيات متعددة، فيأتي في أكثرها بالبشع الكريه الذي يمجه السمع، لعدم استعماله، كما فعل أبو تمام في قصيدته الثائية التي مطلعها:

قف بالطوال الدارسات عُلاثاً   أضحت حبال قطينهن رثاثا[1]

ونرى الدكتور عبد الله الطيب – من المحدثين – يؤيد نفس النظرية، بل بطريقة أشمل وأوضح من طريقة ابن الأثير[2].

أما رويّ قصيدتنا الذي هو "الراء" فإن عبد الله الطيب قد جعله في المرتبة الثانية في ترتيب أحلى القوافي، حيث يقول: "والميم واللام أحلى القوافي، لسهولة مخارجهما، وكثرة أصولهما في الكلام من غير إسراف. وروائعهما كثيرة. والباء والراء والدال تليانهما[3].

وإذا تركنا حرف الرويّ جانباً وعدنا إلى حركته، فإننا نصادف أن حركة رويّ قصيدتنا هي الضمة من أول القصيدة إلى آخرها. فلم نجد فيها ما يسميه العروضيون بالإقواء[4].

والضمة توحي بالفخامة كما نوّه بذلك صاحب "المرشد"، حيث يقول وهو في معرض الحديث عن الضمة والكسرة: "والضمة والكسرة متقابلتان، وهما أكثر شيء في الشعر. وأعني بقولي "متقابلتان" أن بينهما نوعاً من الضديّة. فالضمة حركة تشعر بالأبهة والفخامة، والكسرة تشعر بالرقة واللين، ومن تأمل الشعر العربي، وجد أرقّ قصائده مكسورات الرّويّ في الغالب، وأفخمها مضموماته في الغالب..."[5].

[1] - المثل الثائر ٣٥٣/١

[2] - راجع المرشد إلى فهم أشعار العرب ٥٨/١-٧٠

[3] - نفسه، ص: ٤٦

[4] - الإقواء: هو المخالفة بين حركات الإعراب في القوافي، كأن تجئ ببعضها مرفوعاً وببعضها مجروراً. وهو من عيوب القافية التي أجمع العلماء على استقباحها.

[5] - المرشد إلى فهم أشعار العرب، ٧١/١

وبناءً على هذا، فإن قافية قصيدتنا تدخل تحت ما يسميه العروضيون "بالقافية المطلقة" أي التي يكون فيها الرويّ متحركاً. ومثل هذه القافية "... أوضح في السمع وأشدّ أسراً للأذن، لأن الرويّ فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد وتشبه حينئذ حرف مدّ. ومن المقرر في علم الأصوات أن حروف المدّ أوضح في السمع من الحروف الأخرى كالعين والفاء مثلاً"[١]. وهذا من إحدى الحجج التي اعتمد عليها الدكتور إبراهيم أنيس في تفضيل القافية في الشعر العربي وأنها أكثر موسيقية وأجمل وقعاً في الأذن من القافية في الشعر الإنجليزي[٢].

الإيقاع:

وندرس هنا مجموعة من المظاهر الموسيقية تتولد في الكلام الشعري "بمقتضى الجواز"، ويستعملها الشاعر استعمالاً مرناً في غير التزام. من هذه المظاهر ما يلي:

أ. **التصريع:**

درس كثير من القدماء – أمثال ابن رشيق وقدامة [٣]– التصريع في باب القوافي وتبعهم في ذلك الدكتور محمد الهادي الطرابلس، إلا أن الدكتور أحمد ولد الحسن رأى إدراجه تحت باب الوزن وإدخاله في باب الإيقاع، لأنه، وإن كَثُر عند الشعراء العرب، يبقى مع ذلك تصرفاً اختيارياً داخلا

---

[١] - موسيقى الشعر، ص:٢٨١

[٢] - المرجع السابق ٢٨١

[٣] - معجم البلاغة العربية: د. بدوي طبانه، ص: ٣٣٥-٣٣٦. ونقد شعر، ص ٨٦

من خصائص نظم الشعر في "المستحب" لا "المشروط""[١].

وقوام التصريع: التزام الشاعر رويّ القصيدة في عروض البيت الأول منها وسببه – في رأي ابن رشيق – مبادرة الشاعر القافية ليعلم من أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور[٢]. ثم قال: "إذا لم يصرّع الشاعر قصيدته كان كالمتسوّر الداخل من غير باب..."[٣]

ويقول ابن سنان الخفاجي في "سر الفصاحة". والذي أراه أن التصريع يحسن في أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره، ويفهم قبل تمام البيت رويّ القصيدة وقافيتها.

ولذلك قال أبو تمام[٤]:

وتقفو لي الجدوى بجدوى * وإنما يروقك بيت الشعر حين يُصَرَّعُ

وقال الآخر:

خذها إذا أنشدت في القوم من طرب * صدورُها عرفت منها قوافيها

قيمة التصريع:

تحدث الأستاذ علي الجندي عن قيمة التصريع بحديث طويل نلخصه فيما يأتي:

---

(١) - الشعر الشنقيطي: د. أحمد ولد الحسن، ص: ٢١٦

(٢) - المرجع السابق ص: ٢١٦

(٣) - معجم البلاغة العربية: ص: ٣٣٧ نقلاً عن العمدة ١١٥/١

(٤)- المرجع السابق والصفحة

إن التصريع – في حقيقته – ليس إلا ضرباً من الموازنة والتعادل بين العروض والضّرْب، يتولّد منها جَرْس موسيقى رخيم! وهو لذلك من أمس الحلى البديعية بالشعر، وأقربها إليه نَسباً، وأوثقها به صلة.

ونحن حينما نرهف آذاننا للإنشاد من شاعر معروف، فأول ما نتشوّف إليه ونترقبه منه، هذا التصريع الذي يشبه مقدّمة موسيقية خفيفة قصيرة، تلهب إحساسنا، وتهيّئنا لاستماع قصيدته، وتدلّنا على القافية التي اختارها، فإن أغفله أو أتى به رديئاً أو ركيكاً، خيّل إلينا أن شيئاً من الجمال، ترك مكانه شاغراً!

وتأمل بيت البارودي مثلاً:

زمزمي الكأس وهاتيواسقنيها يا مهاتي

فإنه لو قال مثلاً:

.................واسقنيها يا غزالي

لفقد البيت كثيراً من موسيقاه وإيقاعه!

والشعراء المعاصرون الكبار، يكادون يلتزمون التصريع إلاّ في بعض المقاطيع، وهي بحكم خفتها، وقلة أبياتها، ووحدة الغرض فيها، ليس من الضروريّ أن تصرع، وإن جاء كثير منها مُصَرَّعاً[١].

وعندما ننظر إلى مطلع قصيدتنا، فإننا نراه مصرّعاً، حيث انتهى كل من الشطر الأول والثاني بحرف، واحدٍ، وهو الراء. وهو قول الشيخ:

ماذا أقول وقولي فيك **مقتصر**   يا سيدا طاب فيه الفكر **والذكر**

[١] - الشعراء وإنشاد الشعر، ص: ١٣٤ وما بعدها

والتصريع سنة شعرية قديمة أجادها النقاد، أمثال ابن الأثير[1]، وقدامة بن جعفر[2]، وابن سنان الخفاجي، وابن رشيق[3]، وجعلوها دليلاً على قوة الطبع وكثرة المادة، بل إن قدامة بن جعفر وابن رشيق حبّذا تكرار التصريع في القصيدة الواحدة، وخاصة عند الانتقال من موضوع إلى آخر. وإن اشترطا أن لا يكثر ذلك كثرة تجرّ إلى التكلّف. أما ابن سنان فقد نفر من هذا[4].

وعند تقصي قصيدتنا نرى أن الشيخ قد صرّع أبياتاً أخرى بالإضافة إلى البيت الأول من القصيدة. وهذه الأبيات قليلة لم تصل إلى ما يستبشع ويكره. لأننا إذا تتبعناها نرى أن التصريع جاءِ فيها عفواً، بدون قصد من صاحب القصيدة. حتى إن هذه الأبيات لا تشعر بالانتقال من وحدة معنوية إلى أخرى. وهذه الأبيات هي:

(٣٨) حيث المناكر لم يعرف لها أثر وحيث تُنْتهز الآصال والْبُكر

وقوله:

(٨٤) يا فخر آدم يا من نوره القمر ومن هو العَلَم التاوي له البشر

وقوله:

(٨٧) كم من طعامٍ قليل صار ذا كثر ونبذة أحجمت من أكلها النفر

وقوله:

---

[1] - المثل الثائر ٣٣٨/١

[2] - نقد الشعر ص: ٨٦

[3] - معجم البلاغة العربية ص: ٣٣٦-٣٣٣٧. والشعر الشنقيطي ص: ٢١٩

[4] - المرجع السابق والصفحة

(٩١) وكم جماد أتى باللفظ مبتكراً   يا منبراً إرعوي من وعظه الفكر

فترى أن الشاعر التزم رويّ القصيدة في عروض هذه الأبيات.

ب. **الترصيع**[١]:

قال أبو هلال العسكري في الترصيع: هو أن يكون حشو البيت مسجوعاً. وأصله من قولهم "رصعت العقد" إذا فصلته..

وقال رشيد الدين الوطواط:

الترصيع: في اللغة: بمعنى وضع الجواهر وغيرها في الذهب. ومعناه في أبواب البلاغة: أن يقسم الكاتب أو الشاعر عباراته إلى أقسام منفصلة، ثم يجعل كل لفظ منها في مقابل لفظ آخر يتفق معه في الوزن وحروف الرويّ..

ومثال الترصيع في القرآن المجيد ﴿إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم﴾ ومثاله من الحديث النبوي: "اللهم اقبل توبتي، واغسل حوبتي". ومثاله من نثر الفصحاء: "من أطاع غضبه أضاع أدبه"، وقول الآخر: "والعاقل يفتخر بالهمم العالية، لا بالرمم البالية"..[٢].

ومن أمثلة الترصيع في الشعر قول الخنساء:

هبّاط أودية جمّال ألوية   شهّاد أندية مرحان فتيان

---

[١] - سماه الدكتور عبد الله الطيب "بالتقسيم الوزني التقطيعي مع سجع مخالف للقافية" (انظر بعض الظواهر الفنية في شعر الشيخ محمد الناصر، ص:٣٩، نقلاً عن المرشد ٢٨٩/٢ بينما سماه الأستاذ مصطفى محمد الشكعة "بحسن التقسيم" (انظر فنون الشعر الحمداني ص:٥١٦)

[٢] - معجم البلاغة العربية، ص ٢٥٧

وقول المتنبي في إحدى المعارك التي جرت بين سيف الدولة والروم:

فنحن في جذلٍ والروم في وجلٍ   والبّر في شغل والبحر في خجل

لنعد إلى قصيدتنا لنلمس منها هذه الظاهرة، أعني ظاهرة الترصيع، فلا شك أننا سنجد فيها ما يروق القارئ وينبئ باقتدار الشاعر وسعة بحره. فمن ذلك قوله:

(٩) والجذع حنّ لكم والبدر شقّ لكم   والفتح كان لكم والذكر والظفر

(١٢) يا نعم سيـــدنا يا نعـــم ملجئنا   يا سيـــدا مالنا كمثلـــه بشـــر

(١٥) الله فضلكـــم الله شرفّكـــــم   الله مجّدكـــم يا خير مـــن غبروا

لعلك أدركت ما تولّد من هذا التقطيع أو الوقفة اللسانية على الميم بعد كافٍ مضمومة من صوت موسيقي جميل، حيث بدت هذه الأسجاع كأنها توقيعات جميلة على قيثارة ساحرة من عازف بارع.

ومن أمثلة الترصيع في هذه القصيدة أيضاً قوله:

(١٦) الأصل أصلكم والعلم علمكم   والفخر فخركم إذا الورى افتخروا

(٧٠) حقيقة دققت شريعة حققـت   إسلام إيمان إحســـان حمى ستر

(١٢٠) وسائر الأوليا السادة الكرما   القادة العظمـــا والأنجـــم الـــدرر

وهذه هي الأبيات التي نلمس فيها هذه الظاهرة، بحيث نرى أن حشوها كان مسجوعاً، ونلمس فيها ذلك التقطيع والوقفة اللسانية أو الاستراحة أثناء الأداء الإلقائي. وهي كما تبدو قليلة لم تكثر كثرة تمجها الأسماع. فالنقاد كانوا يعيبون أمثال هذه المحسنات إذا أسرف فيها الشاعر. فهذا قدامة بن جعفر يقول عن كثرة الترصيع في القصيدة الواحدة: "... ولا هو أيضاً إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود، فإن ذلك إذا كان دلّ على

تعمّد، وأبان عن تكلف..."[1] ويؤكد هذا ابن الأثير فيقول:"... إلا أن هذه الأصناف من التصريع والترصيع والتجنيس وغيرها إنما يحسن منها في الكلام ما قلّ وجرى مجرى الغرّة من الوجه. أو كان الطراز من الثوب. فأما إذا تواترت وكثرت، فإنها لا تكون مرضية، لما فيها من أمارات الكلفة".[2]

ومن هذه الأمثلة التي سقناها للترصيع يتجلى لنا مدى الارتباط بينه وبين مظهر آخر من مظاهر موسيقى الإيقاع هو التقطيع.

ج. **التقطيع:**

ندرس تحت هذا العنوان، والمصطلح للطرابلسي، "موسيقى التراكيب" أي مدى التزام الشاعر بناء تركيباً واحداً: عمودياً أي بين البيت وتاليه، أو أفقياً[3] أي بين مكونات البيت الواحد[4].

ونكتفي في هذا السياق بالنظر في التقطيع العمودي في هذه القصيدة، إذ هو الذي لمسناه فيها. فمن تلك الأبيات التي نجد فيها هذه الظاهرة قوله:

(٧٥) من بحره الأنبيا والأوليا ارتشفوا   سيّ الصحابة لا سي الأولى هجروا

(٧٦) من بحره الأنبياء والأوليا ارتشفوا   سيّ الصحابة لا سيّ الأولى نصروا

(٧٧) من بحره الأنبيا والأوليا ارتشفوا   سيّ الصحابة لا سيّ الأولى بدروا

(٨٧) فهو الإمام وكل الرسل نائبه   كذاك الأملاك نعم السادة الغرر

[1] - نقد الشعر ص: ٨٣-٨٤

[2] - المثال السائر ج١ ص:٣٣٨ بالمدلول

[3] - تستعمل الأفقية والعمودية بالدلول الهندسي البسيط:

[4] - الشعر الشنقيطي، ص: ٢٢٥

(٧٩) يا سيد الرسل يا خير الأنام ومن إن ضاق خطب فعند بابك الوطر

(٨٠) يا سيد الرسل يا خير الأنام ومن من استغاث بـــه ينالـه الظفــر

د. الإيحاء الصوتي:

ونعني بهذا ملاءمة الصوت للمعنى، حيث يشترك الصوت في الدلالة على المعنى. فالإحساس اللغوي الدقيق هو الذي يجعل الأديب يختار من الكلمات ما يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة، بحيث يكون فيها تقليداً للشيء الموصوف، حتى كأنه يوحي به إلى الخاطر[1]. كما تحس بذلك في كلمة "شهيقا" في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾[2]. والشهيق صوت يخرج من الجوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد، والكمد الطويل، وهو صوت مكروه السماع، فكأنه سبحانه وصف النار بأن لها أصواتاً مقطعة تهول من سمعها، ويصعق من قرب منها، وقد دلّت اللفظة بصوتها على معناها[3]. ومن هذا القبيل قوله تعالى أيضاً ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾[4] فإن جرس كلمة "دمدم" في سياق الآية الكريمة يوحي بمعناها الذي هو الهلاك بمجرد سماعها، وإن لم يعرفها المتلقي – سامعاً كان أو قارئاً – من قبل.

---

(١) - من بلاغة القرآن، ص ٨

(٢) - سورة الملك الآية: ٦-٧

(٣) - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: ٣٣٢-٣٣٣

(٤) - سورة الشمس: ١٥-١٤

وعندما ننظر في قصيدتنا فإننا نجد فيها بعض الألفاظ التي تجري هذا المجرى، وتسلك هذا المسلك. من ذلك قول الشيخ:

كم آية أفصحت عن قدر رتبتكم   وإن كل الورى من فخرك افتخروا

فإن صوت كلمة "أفصحت" يوحي بمعناها الذي هو الظهور والبيان. كما أن كلمة "الرعب" تحمل معنى الخوف والهول الشديد الذي يملأ الصدور. وخاصة إذا تأملت اجتماع الراء المشدّدة المضمومة مع العين الساكنة، فإن مثل هذا الصوت مما يثير الخجل، وذلك في قوله:

والرعب يمشي أمام الجيش ينصركم   وخلفكم مثله يا نعم منتصر

ومن ذلك أيضاً كلمة "منهمر" في قوله:

وإن تكن هي لا غرو ولا عجب   فالرب وهذا الثيب منهمر

فهذه الكلمة تسمعنا صوت فيضان الماء وسيلاته في هذا السياق، وخاصة إذا أشبعنا حركة الراء التي هي الضمة.

انظر إلى كلمة "الرشاقة" في قوله:

حيث الجمال وحيث الحسن ناصعه   حيث الرشاقة والإبلاج والحور

أرأيت كيف يكاد جرسها يضيء للقارئ معناها ولو لم يعرفها! ألا تحس بجمال وبديع بنية هذه الكلمة؟ أعد قراءتها، وتأمل توالي حروفها، فلابد أنك ستكون معي في أن صوتها يوحي بما تحمله معاني الحسن والجمال!

هذا، وقضية مشاركة الصوت في الدلالة على المعنى، قد شغلت الباحثين في اللغات الإنسانية، وفي مختلف الثقافات منذ القديم إلى يومنا هذا، ولَمّا يضعوا بعد شروطاً كافية في حصر رمزية الصوت، وضبطها، وإنما بقيت

شروطها ذوقية[1].

حسن المقطع:

المقطع هو البيت الأخير من القصيدة الذي قطع به الشاعر سلسلة أبيات قصيدته. وحسن المقطع من الأشياء المطلوبة التي تزيد القصيدة رونقاً وجمالاً. ويسمى أيضاً: حسن الخاتمة — أي ختام القصيدة –، ومما ورد بهذا المعنى لغوياً ما جاء في القرآن الكريم "ختامه مسك" وفي الأثر: إنما الأعمال بخواتيمها.

فالمقطع لا يقلّ أهمية عن المطلع! بل ربّما فاقه! لأن به يتمّ الحكم على القصيدة! وهو أشبه بالحلواء التي يختم بها الطعام، فإن لم تكن حلواء في ختام الطعام كان خداجاً[2] كما يقول الحكماء!

وقد كان شبيب بن شيبة يقول: "الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع وبمدح صاحبه"[3]

ويقول ابن رشيق: "وخاتمة الكلام أبقى في السمع، وألصق بالنفس، لقرب العهد بها، فإن حسنت حَسُن، وإن قبحت قبح"[4].

ومن المقاطع الحسنة قول المتنبي في المدح[5]:

---

[1] - الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ص: ٣٣٢، نقلاً عن كتاب "تحليل الخطاب الشعري" ص: ٣٣-٣٥

[2] - الخداج: ككتاب- الناقص

[3] - الشعرء وإنشاد الشعر ص: ١٤٧، نقلاً عن "البيان والتبيين" للجاحظ ١/١٠٦

[4] - المرجع السابق ص: ١٤٧ نقلاً عن العمدة لابن رشيق ١-١٤٧

[5] - الشعراء وإنشاد الشعر ص: ١٤٩

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

فهذا البيت ترجمان لجميع ما في القصيدة من الأمداح، بل إنه الغاية القصوى في المدح والإطراء، حيث أن الكلام جميعه يفنى دون الإحاطة بفضل الممدوح، فإذاً كلما يقوله الشاعر وغيره في فضل الممدوح فإنه خداج لا يفي بحقه. واحتج في ذلك بمديحٍ آخر هو أن الكلام يفنى، ولكن فضل الممدوح لا يبيد ولا ينفد أبد الآبدين ودهر الداهرين. وفي البيت من المبالغة ما فيه، ولا بد أن أثره سيزل باقياً في نفس القارئ، لأنه احتوى على جميع الأمداح، فهو لب القصيدة، وموضع السجود منها.

أما مقطع شاعرنا في قصيدته ، فهو قوله:

وكن لي أيا خالقي كن لي أيا سندي فأنت سؤلي بخير الخلق انتظر

عليه دأبا سلام الله ما أنشدت ماذا أقول وقولي فيك مقتصر

فختم بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى، مع السلام على رسول الله. وهذا أمر يناسب المحل، ويطابق موضوع القصيدة، ثم ذكّرنا بصدر مطلع القصيدة، فجاء كالخاتمة تلخّص جميع ما قد سبق، وتشير إلى نتيجة ما قد وصل إليه في جميع الأمداح التي صاغها. وانظر إلى قوله: "خير الخلق" حيث أتى بما يسمى بجوامع الكلم في هذا الختام، وأثبت لنا أن كل ما خطر ببالك من مخلوق – أيها القارئ- فإن الرسول صلى الله عليه وسلم فوقه خلقاً وخُلقاً، فما أمامه سوى خالقه.

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في زاوية من زوايا شعر الشيخ محمد الناصر كبر. فإنه قد آن لهذه الشقشقة أن تقرّ، ولهذا الفارس أن يترجّل، ولهذا القلم أن يثنى عنانه فيلقي صاحبه على هذا الكلام المركوم بعضه فوق بعض نظرة وداع. فالميدان واسع، والشأو شاسع، وقد وصلنا إلى محطة يقمن النزول عندها. وإلقاء عصا التيسار بفنائها بعون الله المعبود المتفضل الكريم الميسر كل عسير، فالحمد له بدا وختما.

وهذه الخاتمة – نسأل الله تعالى حسنها – تشير إلى أهم النقاط التي ناقشها البحث، وهي على الوجه التالي:

فالبحث عبارة عن دراسة المديح النبوي الذي قرضه واحد من فطاحل علماء نيجيريا، وهو الشيخ محمد الناصر كبر. لكن واقع البحث يقتضي أن نمهّد له بالبيان عن عصر الشاعر، ليعطينا فكرة عن مكونات ثقافته، فالإنسان كما يقال ابن بيئته وثقافته. فرأينا أنه عاش في القرن العشرين الميلادي.

تحدثنا عن حياة الشاعر بشيء من الاختصار، من مولده ونشأته وتعلّمه، والعلماء الذين أخذ عنهم العلم والثقافة. ودوره في نشر العلوم الإسلامية والثقافة العربية، والمناصب التي تبوّأها. وأسردنا طائفة من بعض مؤلفاته، وثناء بعض العلماء عليه. ثم تناولنا بشيء من الإيجاز – الكلام عن المدائح النبوية في بلاد هوسا، فألقينا نظرة خاطفة عن نشأة

تلك المدائح في هذه البلاد، ورأينا كيف نفقت سوقها فيها، ذلك نتيجة هيمنة النشاط الصوفي على البلاد. إذ الصوفية هم روّاد هذا الفن. ثم تدرجنا إلى عصر الشيخ محمد الناصر حيث ازدهرت فيه هذه المدائح النبوية، حتى إنه يصعب عليك أن تجد من يقرض الشعر بالعربية من أبناء هوسا بدون أن تكون له في المدائح النبوية قصيدة فما فوقها. كما قمنا بعرض موجز لجميع قصائد الشيخ الناصر التي وصلت إلى أيدينا والتي صاغها في المديح النبوي.

وقد اخترنا قصيدة واحدة من بين نبويّات الشيخ الكبري وهي قصيدة "الماء المسكوب..." فقمنا بدراستها دراسة تحليلية بشيء من التفصيل. وقد حاولنا أن نلقي ضوءاً على أفكار القصيدة وأن نكتشف عن بعض الخصائص الفنية التي كانت كامنة فيها، وذلك من حيث المضمون ومن حيث الشكل. ووقفنا على بعض الظواهر البلاغية الموجودة في القصيدة. وختمنا بالحديث عن الجانب الموسيقي للقصيدة. وبذلك وصل البحث إلى غايته ومنتهاه.

هذا، ولا يسعني – وأنا بهذا الصدد– أن أطوي حديثي بدون أن أرمز إلى شيء من النتائج التي توصل إليها البحث. وهي علوّ كعب الشيخ الناصر في ميدان القريض أولاً، وفي الثقافة العربية والإسلامية ثانياً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أدركنا خلال البحث ما تتمتع به اللغة العربية من المكانة المرموقة في الديار النيجيرية، وخاصة بلاد هوسا. حيث أصبحت لغة العلم والثقافة، بل تقدّم بها الأمر فصارت

اللغة الرسمية للبلاد. وذلك أيام الدولة الإسلامية الفودوية، وقبل مجئ الاحتلال البريطاني الظالم.

وبناءً على هذا، فإنني أنادي المسئولين أن ينزلوا الأدب العربي النيجيري منزلته اللائقة به، وأن يقدّروه حقّ قدره. نعم، إنني لا أجحد ولا أنكر أن جامعاتنا ومعاهدنا العلمية قد كانت تخص مواداً لدراسة الأدب العربي النيجيري. إلاّ أن الأمر قد جاوز ذلك، فندائي موجّه إلى من يهمهم الأمر في البلاد العربية، فإنهم لو أنصفوا الأدب العربي النيجيري لألحقوه بالأدب المغربي فكان يدرس في المستويات العلمية في البلاد العربية، ولكان من أوضح الدلائل على عالمية اللغة العربية. ألم يكن الأدب الأندلسي يدرس على مدى الأيام؟ أو لم نكن نرهق بدراسة ما أنتجه المهجريون؟ وإن كنت لا أقصد بأن نيجيريا تساوي الأندلس من كل الوجوه، ولا أن النيجيريين عرب مثل المهجريين، فلاّ ثم كلا! ولكن كليهما أدب عربي أنتج في بلاد غير عربية.

وقد تضلّع علماؤنا في اللغة العربية وأدلوا بدلوهم في ميدان الإنتاج العلمي والأدبي بما لا يقل درجة عن ما أنتجه العلماء العرب، وربّما يوجد من بين علمائنا من يفوق بعض علماء العرب في هذا الميدان. وما على الباحث المنصف إلا أن يتتبع إنتاجاتهم ليقف على صدق ما ندّعيه.

وختاماً أرجو أن يكون في نتائج هذا العمل ما يشفع لنقائص في مضمونه كثيرة، وهنات في منهجه غير هينات، وأن يكون قد أسهم،

ولو بقسط ضئيل، في التعريف بشعر الشيخ محمد الناصر كبر من جهة، – وخاصة المدائح النبوية منه — وزيادة إلقاء ضوء على التراث الأدبي النيجيري من جهة أخرى، فتانك غايتاه. نسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يكلّله بالنجاح الباهر، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، فإنه نعم المجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ المتبولي شيخ كبر

٩ ربيع الأول ١٤٢٣هـ

الملحق

النص الكامل لقصيدة
"الماء المسكوب من سحاب المحبوب على ساحة القلوب"

ماذا أقول وقولي فيك مقتصر ... يا سيدا طاب فيه الفكر والذكر

أثني عليك إله العرش خالقنا ... بأحسن الخلق ماذا يذكر البشر

يكفيكم شرفاً ما لا أسطّره ... من المحامد إذْهُ ليس ينحصر

كم آية أفصحت عن قدر رتبتكم ... وإن كل الورى من فخرك افتخروا

أنت المعدّ لكل النائبات فلا ... لها سواكم نصوصاً يوم نحتشر

أنت الإمام وكل العالمين أجل ... فتابع لَكُمُ يا أيها القمر

أنت السميذع والأملاك رمّتها ... في كفكم تنتهي بكُمُ وتأتمر

وأنت سيد كل الخلق أجمعهم ... طوبى لمن بحماكم كان ينتصر

والجذع حنّ لكم والبدر شقّ لكم ... والفتح كان لكم والذكر والظفر

والرعب يمشي أمام الجيش ينصركم ... وخلفكم مثله يا نعم منتصر

ساء صباح الألى يقلونكم أبدا ... وسيفكم ليس يقتصر ولا يذر

يا نعم سيدنا يا نعم ملجئنا ... يا سيدا مالنا كمثله بشر

طبت المكان فلا مكان يشبهه ... ما لعرش ما الكرسي ما الأفلاك ما الدرر

جزت الكيال جزافاً لست متزناً ... بل شعرة منكمُ طالت أولى ذكروا

الله فضلكم الله شرفكم ... الله مجدكم يا خير من غبروا

الأصل أصلكم والعلم علمكم ... والفخر فخركم إذا الورى افتخروا

شأوت كـــل نبي كـــان مستبقاً ... في حلبة العلـم حقاً لسـت تحتصر
اختـــارك الله للعليـــا وغيركـــم ... ذرّات جوهرة مـــن ظهـــرك انحدروا
فإنك الأصـل في كـــل العوالم لم ... تزل تنـزل عـــن أظلالـــك الأثـــر
أنت العروش وأنت الكرسي يا سندي ... وأنتم اللـوح والأقـــلام تقتـــدر
أنت السموات أنت الأرض أجمعها ... وأنـت من نشـرك الأنـــام تعتطـر
أنت الأمام الذي عم الأنام نعم ... في كـل حـال لأنت الناشـر العطـر
قد شق من اسمــه الرحمـــن خالقنا ... لك الأسامي كأنْك[1] لم تكن بشر
وقـد أتـــاك قرانـا يا لـــه عجبـــا ... لأنتـم بشـــر مـــا مثلكـــم بشـــر
لله مكتـــه العظمـــى لقـد شرفت ... بكعبـــة القدر هذا الكعبة النشـــر
إني تعجبت هل هي التي نسكت ... بالسعي والوقف والطواف تفتخـر
فإن يكـــن هو فالأقـــدار جارية ... والعبد راض بمـــا يقضيـــه مقتـدر
وإن تكن هي لا غرو ولا عجب ... فالرب رب وهـــذا الثيـــب منهمر
يا ظبية طبت قدراً فاخـــري أبـد ... قد طاب نشرك والإفضال مشتهر
أفدي بروحي بقاعاً ذات طالعة ... طوالع السعد فيها الدهـــر تزدهـــر
حيث الصحابة والأنوار طالعـة ... والصاحبات وحيث العلـم يزدخـر
حيث النزول وحيث الوحي حيث إذا ... ضاق الخنـــاق ترى الآســـاد تحتثر
حيث الجهاد إذا ما شـــنّ غارتـه ... تختـــال بـــــدراً تبـوك مالهـــا أُزُرُ
حيث التسابيح والأذكار دائمـة ... حيـــث التلاوات والترتيـــل والذكر
حيث الوقار وحيث الشمل مجتمع ... وحيـــث كل الأماني حيثمـــا العِبَرُ
حث الرضاء مع الغفـــران مقترن ... حيث الهناء وحيـــث الذنب مغتفر

[1] - كأنْك: لغة في كأَنَّكَ

حيث الأحاديث مرفوع أساندها حيث الأوامــر بالإخلاص تأتمــر
حيث المناكــر لم يعــرف لها أثر وحيــث تُنْتَهَزُ الآصــال والبكــر
حيث الوفود مع الأفراح وافــدة وحيثمـا حسن الأخـلاق مصطبر
حيث العدالــة بالتبـريز ظاهــرة وحيثما الزهــد والإيثـار مشتهـر
حيث الحقائق بالتحقيق طافحة حيث الشموس مع الأقامر تستفـر
حيث الجمال وحيث الحسن ناصعه حيث الرشاقــة والإبلاج والحــور
قد طاب أصلاً وفرعاً كان محتده عدنــان مدركــة إلياســه مُضَــرُ
إبليس لو اجتلى من نور طلعته لكــان أول مــن يعنــو ويعتفـــر
لولاك ما سجد الأملاك يا سندي ولا أتـــى آدم ولا أتـــى بشــــر
لولاك لم يخلق الجنان يا سنــدي والنار لــو لاك ما كــان لــها أثر
لولاك لا نجــم لا أفلاك دائــرة يا علة الكـــون تستجلي وتستتـر
أنت المحيــط فلا شــيء يفوتكـم أحطت بالكون علما ليس يــحتظر
إن العلوم وإن طالت وإن عظمت في جنب علمك شيء ليس يـــدّكر
أسرى بكم ليلة الإسراء خالقكم مـــا لا يــذاع لمخلــوق فيستطر
رأى هناك من الآيات يا عجبـا لكـــي يرى مـــا يراه قلبه البــصر
فخـــصّ ثمّ بأســـــرار مكتّمـــة ليســـت تحـــاط بتعـداد فتنحصر
رقى على العرش بالنعل الشريفة فاز دهت لــما قد علاها القادم النضر
من بعد مــا أم بالأنبــاء سيــدنا وهــو المقــدم وهــو الدرّ والغـرر
وكم أعاجـــب تروى عنــد مولده تقــول هذا هـــو الموعـود والبُشر
في سورة الفيل مـــن أخبار أبرهة ما ليس يجــحــده إلا الأولى كفروا
وغير ذلك من إرهــاص نبْوتـــه مثل التدلي مع الأضـــوا كما ذكروا

وأنــت أوفى الورى رأيا وأكثرهــم ... صبراً ومــن مثلكــم يا طـه يصطبر
أوذيت في الله لم تزدد عليه سوى ... حلم وصبر وحسن العهـد مشتهر
تقـــواك زهـــدك مــع فتوّة كــرم ... جود قيــام صيــام عزلــة سهــر
فقــر وشكر وتسليــم رضى ورع ... شجاعــة رحمـــة ورأفـــة حـــذر
تفكــر إنخفــاض ذلــة شــرف ... وإنكســـار تأنّ أخـــذة عِبَـــرُ
توكــل خلّــة شـــوق مفاوضــة ... طهـــــارة وقنــــوع مِقّـــة خطر
تلاوة إدّكـــار سبحـــة عـــدة ... تولــع شغــف خبت حجى ذكر
فراســة همـــة كشـــف ومعرفة ... علـــم شهـــود رقــاب ديمة بشر
وعظ وعيـــد وتبشير ومزجـــرة ... والاعتـــذار على مـــن جاء يعتذر
توقـــر جلــد تقلـــل أدب ... صلابة إنكســـار ليس ينحصـــر
فصاحــة حكمة هشاشة بشش ... صــــدق وفـــاء صفاء رقة بصر
حقيقــة دُقّقت شريعة حُقّقت ... إسلام إيمــان إحســان حمى ستر
رسالــة نبْـوة سيـادة عممــت ... شفاعـــة سجـــدة المحمود يدخر
وسيلـــة كوثر حــوض لِوَا رِفْـق ... قيامـــه بمقـــام مــا لـــه بشـــر
منـــازل ومقامـــات ومنـــه لـــه ... وغيـــر ذلك مشهـــور ومنتشـــر
قد كان سيدنا في كــل فاضلــة ... منها على مرقب لا يدرك الـــبصر
من بحره الأنبيــا والأوليا ارتشفــوا ... سيّ الصحابة لا سي الأولى هــجروا
من بحره الأنبيـــا والأوليا ارتشفـوا ... سيّ الصحابة لا سي الأولى نصــروا
من بحــــره الأنبيـا والأوليـا ارتشفـوا ... سي السحابة لا سي الأولى بـــدروا
فهـــو الإمـــام وكـــل الرســـل نائبـه ... كذاك الاملاك نعم السادة الــغرر
يا سيد الرســـل يا خير الأنام ومـــن ... إن ضاق خطب فعند بابك الـــوطر

يا سيد الرسـل يا خير الأنام ومـن   من استغاث به ينـاله الظـفر
أغـث عبيداً غـدا في كـل هائلة   قد حقّه الكـرب والهموم والوضر
وليس لي أبـداً مرجـى فأقصـده   سواك ما خاب من بالحِبّ ينتصر
يا من هو الأصل في كل الوجود ومن   بنشـره هـذه الأكـوان تعتطـر
يـا فخـر آدم يا مـن نوره القمر   ومن هـو العَلَم التأوي[1] له البشر
شق له البدر والشمس لـه حبست   وكـم أتى نابعـاً من عشره الغمر
كـم فجّـر الماء تفجيـراً بـدعوته   ومَسِّـه هكـذا جانـا بـه الخبـر
كم من طعام قليـل صـار ذا كثر   ونبـذة أحجمـت عن أكلها النفر
وكـم أتى خبر الأشجـار عـن ثقة   عن الثقـات إلى مـن كلّم الشجر
قد حنّ للمصطفى جذع ومن شغف   انشق شوقـاً إلى أن جـاءه البُشَر
كم سبحت في يـد المختار أطعمة   مع الحصى قـد أتانا هكـذا الأثر
وكـم جماد أتى باللفـظ مبتكـراً   يا منبراً إرعـوى من وعظـه الفكر
قد مالت الفيء عن قوم لها سبقو   وكـم له سجـدت من عزه الشجر
يعفور ضـب وذيب ظبيـة وكذا   ك طائر وضِمَـار من لـه الشعـر
غُنَيْمَةٌ جمل عضبـا حـمامتنا   حمامتي عنكبوت فيهـم ادّكـروا
قد عظّم الأسد الضاري سفينته   كذاك قصة شـاة إذ لهـا الأثر
وناقة شهـدت والعنز حين أتت   في عسكر المصطفى والعطش معتكر
وجعلـه فرسـاً تجـاه قبلتـه   في بعـض أسفـاره والستة النفر
نطق الذارع صبي شب ما نطقـا   بُنَيّـة طرحـت لله تهتجـر

[1] - التأوي: أل هنا موصولة

بُنيّ عمياء مسجــوّا فإذْ لجــأت إلى النبي أزيـــل عنهمـــا الغبــر
ونجل قيس بن شماس قضا وحكى شهــادة لأبي بكــر تــلا عمــر
زيد بن خارجة قد كفّ نســوته وأشهد الحق حين الوجه قد حسروا
شهـــادة الأبوين بعــد موتهمـــا مِمـا أتانا بـــه وصدقـــه الخبـــر
قد ناول السهم سعدا وهو ليس له نصل وقال ارم يا سعد الأولى كفروا
قــد ردّ في أحد عينـــا لصاحبه قتـادة عــن أبيــه انمحــى الأثـــر
حديث الاعمى شهير حيث لاذ به مستشفعا حينـه قـد جاءه البصر
وابن الملاعـــب قــد أبرته حثوتـه حديـث عيــن فديك طيب عطر
ونفثــه نحــر كلثــوم وتفلتـــــه لشجّــة ابن أنيــس مــا لها ضرر
وتفــل عينــي علـي يـوم خيـبره ونفث ضربــة ســاق سلمة ذكروا
دعاؤكــم مستجــاب مطلقـاً ولذا خبأت دعوتك العظمى كما سطروا
كم قلبت لكم الأعيان كم كشفت عنـك الغيوب فمـا أخبرت منتظر
وقاك ربــك مــن إذايــة اللؤمـا بعصمـة دونها الـدروع والســور
علـــم المصالــح والتدريــب غايته علمتناهـا إلى أن تبعــث الصــور
وأنـــت أكثر رســل الله معجــزة وليــس في كــل ما سطّرتــه نظـر
أصحابكم خير أهل الأرض قاطبة وخيرهـم فجرهــم صديقـنا عمــر
عثمــان ثم علــي ثمــت الفضلا الستــة الكاملــون القــادة الـدرر
فالتابعيــن فمــن للتابعين قفــا ثم الأئمــة مــن بالجهـد اشتهـروا
كذا المربون أربــاب الطرائق والإ رشــاد للحـق من بالإصطلام دُروا
كالعارف الجيلي قطب المشائخ بــالإ طلاق سيد من بالمصطفى افتخــروا
بعد الصحابــة والأنبــاء فهــو إذا كالمصطفى فيهم على الـذي سطروا

وسـائر الأوليـاء السـادة الكرمـا　　القـادة العظمـا والأنجـم الـدرر

كالمجتـبى وولـي الله نعمتـه　　الغيـث والشيخ ما العينين والخضر

ربي بهم وبمن في نهـج مسلكهـم　　أرجـوك فيض السواري حين تـنهمر

وكن لي أيا خالقي كن لي أيا سندي　　فأنـت سؤلي بخير الخلـق أنتظـر

عليه دأبا سـلام الله مـا نشـدت　　ماذا أقـول وقولي فيـك مقتصـر

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أ/ المخطوط:

- محمد الناصر كبر (الشيخ): نسب الإمام السنكوري الأنور، الشيخ عمر ما لم كبر.

ب/ المقالة والرسائل الجامعية غير المنشورة:

١. إبراهيم أبوبكر غمبراوا: **الشيخ طَنْ مَسَنِى ودراسة كتابه "النفحة العنبرية في حلّ ألفاظ العشرينية"** (رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو كنو، ديسمبر ١٩٩٠م)

٢. شيخ عثمان كبر (الدكتور): **شخصية الشيخ محمد الناصر كبر وأدبه** (رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة الخرطوم ١٩٨٠-١٩٨١)

٣. القاسيوني الشيخ محمد الناصر كبر: **التحقيقات السنية على الكيسان الهنيّة** (بحث تكميلي لنيل شهادة الليسانس، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو ١٩٩٤).

٤. المتبولي شيخ كبر: **شعر الشيخ محمد الناصر كبر، جمعه وترتيبه حسب موضوعه الشعري**. (بحث تكميلي لنيل درجة الليسانس، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو ١٩٩٤).

٥. محمد آدم أبوبكر: **مظاهر تأثير قصيدة البردة في الحياة الأدبية والروحية لدى بعض علماء مدينة كنو**. (رسالة ماجستير قسم اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو عام ١٤١٦هـ –١٩٩٥م)

٦. محمد الأول أبوبكر (البروفيسور): **شعر الحاج عليّ الكماسي** (مقالة نوقشت في ندوة قسم اللغة العربية جامعة بايرو، الأربعاء ١٩٧٦/٣/٣م

٧. محمد المختار أتمّ: **ظاهرة المديح الديني في الشعر العربي لدى بعض العلماء في بلاد الهوسا** (رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو ١٩٩٠م)

٨. ناصر مرتضى: **المدائح النبوية عند بعض علماء زاريا** (رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو ٢٠٠٠).

ج/ المطبوعات:

١. إبراهيم أنيس (الدكتور): **موسيقى الشعر** الطبعة الرابعة، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢م.

٢. ابن الأثير (ضياء الدين): **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق الخوفي وطبانة، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهر ١٣٧٩هـ ١٩٠٩م)

٣. ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين بن المكرم الإفريقي المصري): **لسان العرب**، دار صادر – بيروت.

٤. ابن هشام الأنصاري: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (بدون معلومات النشر).

٥. أحمد أحمد بدوي (الدكتور): **من بلاغة القرآن** (الطبعة الثالثة، مطبعة نهضة مصر – القاهرة).

٦. أحمد الصاوي (الإمام): **حاشية الصاوي على تفسير الجلالين** (دار الفكر بيروت ١٩٧٧)

٧. أحمد ولد الحسن (الدكتور) **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري مساهمة في وصف الأساليب**، الطبعة الأولى، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية – ليبيا ١٩٩٥م

٨. أحمد الهاشمي: **جواهر البلاغة دار الفكر** – بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

- **مختار الأحاديث النبوية** الطبعة الثانية عشر دار الفكر بيروت.
- **ميزان الذهب في صناعة شعر العرب.**

٩. البخاري (الإمام محمد بن إسماعيل): **الجامع الصحيح** دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١٠. بدوي طبانه (الدكتور): **التيارات المعاصرة في النقد الأدبي**، الطبعة الثانية، مكتبة

- **معجم البلاغة العربية**: الطبعة الثالثة، دار المنار جدة ودار الرفاعي – الرياض ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١١. البوصيري (الإمام محمد بن سعيد الصنهاجي): البردة الطبعة الأولى (مكتبة الصفا- القاهرة ١٩٩٩).

١٢. داود سلوم (الدكتور): **النقد الأدبي** مطبعة الزهراء – بغداد ١٩٦٧

١٣. زكي مبارك (الدكتور): **المدائح النبوية في الأدب العربي**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ١٣٥٤هـ -١٩٣٥م

١٤. السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين): مسالك الحنفا في والدي المصطفى

- تفسير الجلالين دار الفكر بيروت ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.
- شرح شواهد المغنى، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان (بدون ذكر الطبعة والتاريخ)

١٥. شوقي ضيف (الدكتور): في النقد الأدبي، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر (بدون تاريخ)

١٦. شيخ أحمد سعيد غلادنث (البروفيسور): **حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا**، دار المعارف – القاهرة. (بدون تاريخ).

١٧. شيخ عثمان كبر (الدكتور): **بعض الظواهر الفنية في شعر مولانا الدكتور محمد الناصر كبر**، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الجماهيرية العظمى ١٩٩٧م.

١٨. الطاهر محمد على البشير (الدكتور): **الأدب الصوفي السوداني**، الطبعة الأولى، دار الفكر/ الدار السودانية. ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

١٩. عبد الحكيم حسان: **التصوف في الشعر العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٠٤م

٢٠. عبد الرحمن رأفت الباشا (الدكتور) **صور من حياة الصحابة**، الطبعة الأولى، (وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية ٩٩/١٤٠٠ هـ)

٢١. عبد الرزاق الكاشاني: **معجم اصطلاحات الصوفية**، تحقيق الدكتور عبد العال شاهين، دار المنار ١٣١٤هـ-١٩٩٢م

٢٢. عبد الفتاح لاشين (الدكتور) **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، الطبعة الثالثة دار المعارف – مصر ١٩٧٨م.

٢٣. عبد الله بن فودي (الشيخ) **تزيين الورقات**، طبع مالم محمد صوكوتو.

٢٤. عبد الله الطيب المجذوب (البروفيسور): **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**.

٢٥. عثمان بن فودي (الشيخ المجدد): **عشرينية عثمان بن فودي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم**، طبع الحاج محمد تكر فاروق صوكوتو.

٢٦. على أبوبكر (الدكتور): **الثقافة العربية في نيجيريا**، من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠م عام الاستقلال. بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

٢٧. على الجارم ومصطفى أمين: **البلاغة الواضحة** – دار المعارف بمصر ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م

٢٨. علي الجندي: **الشعراء وإنشاد الشعر**، دار المعارف بمصر (بدون ذكر الطبعة والتاريخ).

٢٩. عياض بن موسى اليحصبي (القاضي): **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الفكر بيروت ١٩٨٨م. وتحقيق كمال بسيوني زغلول المصري دار الفكر، بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣٠. قدامة بن جعفر (أبو الفرج): **نقد الشعر**، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٣١. الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): **القاموس المحيط**، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٣٢. قريب الله أبي صالح (الشيخ): **رشفات المدام**، الطبعة الثانية، دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٧٠.

٣٣. قريب الله الشيخ الناصر كبر (الخليفة): **الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلمية قبل كيان دولة "صوكوتو" العاصمة العلمية**.الطبعة الأولى دار الآن للطباعة والنشر – قبرص. (بدون تاريخ).

٣٤. محمد بن علوي المالكي (خادم العلم بالحرمين الشريفين): **محمد صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل**، الطبعة الرابعة، مطابع الرشيد المدينة المنورة، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

- **المنهل اللطيف في أصول الحديث الشريف**، الطبعة الرابعة مطابع سحر – جدة ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.
- **مفاهيم يجب أن تُصحح**، الطبعة الأولى ١٣٠٥هـ١٩٨٥م.

٣٥. محمد بن نووي البنتي (الشيخ): **مدارج الصعود إلى اكتساء البرود،** الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ١٣٧٠هـ-١٩٥٤م.

٣٦. محمد رمضان الجربي (الدكتور) **ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والأدبية والنقدية،** الطبعة الأولى. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس – ليبيا ١٩٨٤م.

٣٧. محمد كريم الكوّاز (الدكتور): **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم**. مكتبة الاعلام والبحوث والنشر بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية – ليبيا، الطبعة الأولى ١٤٢٦ من ميلاد الرسول.

٣٨. محمد محمد أبو موسى (الدكتور): **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري،** مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٣٩. محمد محي الدين عبد الحميد: **عُدّة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك،** دار الجيل بيروت – لبنان الطبعة الخامسة ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.

٤٠. محمد الناصر كبر (الشيخ): **ألفية السيرة المسماة "بالنفحة المسكية في سيرة أشرف البرية"** الطبعة الأولى دار العربية – بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م

- **ديوان سبحات الأنوار من سحبات الأسرار**. طبع الحاج شريف بلا غباري. د.ت

٤١. محمود مصطفى (الأستاذ): **شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل العروض والقوافي**، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م

٤٢. مصطفى محمد الشكعة: **فنون الشعر الحمداني، مطبعة المعرفة**. د.ت

٤٣. النبهاني، يوسف بن إسماعيل (الشيخ): **الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية**، مكتبة الحقيقة، استنبول ١٩٨٥م.

- **شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق**، الطبعة الرابعة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م

٤٤. **المنجد في اللغة والأعلام**، الطبعة الثانية والعشرون، دار المشرق – بيروت.

45. Abubakar Dokaji: Kano Ta Dabo Cigari Gaskiya Corporation Ltd, Zaria 1978.

د/ الدوريات:

١. فتية القادرية الناصرية: **مجلة صوت الوحدة**، عدد خاص ١٤١٦هـ – ١٩٩٥.

٢. قسم اللغة العربية جامعة بايرو، كنو: **دراسات عربية**، العدد الرابع ١٩٧٩/١٩٧٨م والعدد الخامس ١٩٨٢/٨١.

فهرس الموضوعات